مؤسسة تاريخ دمشق
Damascus History Foundation

تاريخ دمشق

مجلة نصف سنوية - تخصصية محكمة

تصدر عن مؤسسة تاريخ دمشق

Dimashq, a biannual peer-reviewed journal

for studies on the history of Damascus

العدد 5 - كانون الثاني - 2024

www.dimashq.cc

أغراض المجلة وأهدافها

- العناية بتاريخ مدينة دمشق الذي يمتد على أكثر من عشرة آلاف عام، والتَّأريخ له.
- استدراك التقصير في الدراسات المعاصرة، وتوجيه الأنظار إلى الأحداث المهمة.
- استقصاء وجه مدينة دمشق تاريخيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعمرانيّاً وعلميّاً وفنيّاً ووثائقيّاً.
- إبراز صورة دمشق في كلِّ العصور التّاريخيّة: القديمة والعربيّة الإسلاميّة والحديثة والمعاصرة.
- تفسير الأحداث التاريخية واستقصاؤها، وبيان آثارها، على أسس علميّة منهجيّة.
- توجيه الباحثين المعاصرين إلى الموضوعات التاريخية التي تستحقّ الدراسة، وتعزيز الانضباط العلمي والمنهجي والأصالة والجدِّيّة في كتابة البحوث، ومناقشة الظواهر التاريخية.
- إيجاد مصدر علمي ثقافي يتَّصف بالمصداقيّة، ويكون مُتاحاً أمام المهتمين بحضارة دمشق وتاريخها.
- الإفادة من خبرات الباحثين والمختصين وأساتذة الجامعات في تعميق الثقافة التاريخية، وإظهار جوانبها، وتطوير المعارف التاريخية ومناهج دراستها.
- إتاحة المجال أمام طلاّب الدِّراسات العليّا في الماجستير والدكتوراه للمشاركة بأبحاثهم ودراساتهم في المجلة.
- التعاون مع هيئات علميّة داخليّة وخارجيّة تتَّصف بالأكاديميّة والموثوقيّة والمصداقيّة.

إدارة التحرير:

• الإشراف العام:

د. سامي مروان مبيض

• المدير ورئيس التَّحرير:

أ.د. عمار محمد النهار

• أمين التحرير:

د. محمود الحسن

• إدارة الموقع الالكتروني:

مشروع سراج لخدمات الويب

• هيئة التَّحرير والإشراف والاستشارة:

د. أحمد إيبش

أ. إياد خالد الطباع

أ.د. مأمون عبد الكريم

أ.د. محمد رضوان الداية

د. نزار أباظة

• الإخراج الفني:

أ. لارا عبد الكريم توما

• الموقع الالكتروني: www.dimashq.cc

- تُرسل البحوث والمراسلات باسم رئيس التحرير عبر البُرُد الإلكترونية:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org
ammaralnahar@gmail.com

- يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org

لا تعبّر آراء الكُتَّاب بالضرورة عن اتجاهات تتبناها «مؤسسة تاريخ دمشق»

مؤسسة تاريخ دمشق

Damascus History Foundation

مؤسسة تاريخ دمشق هي مؤسسة وطنية غير حكومية وغير ربحية، تُعنى بتاريخ مدينة دمشق، من خلال إطلاق مشاريع وبرامج بغاية الحفاظ على وثائق مدينة دمشق وجمعها وتصنيفها، إضافة إلى البحث عن حقيقة تراث المدينة وتاريخها وأنماط العيش فيها وإعادة تصويب ما شابها من أخطاء، وحفظها من الضياع والاندثار.

أشهرت المؤسسة بقرار وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ١٠٤١ تاريخ ١٨ نيسان ٢٠١٧.

أهداف المؤسسة

توثيق تاريخ مدينة دمشق وما يتعلق بها عبر العصور من خلال جمع صور وقصص وأوراق ووثائق تتعلق بتاريخ المدينة.

إقامة المعارض والمتاحف والفعاليات التوثيقية التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق، وذلك من خلال مختلف الوسائل المتاحة سوآءا كانت مادية أو الكترونية.

إطلاق برامج وجوائز سنوية تشجيعية للمؤرخين الشباب والأكاديميين، للبحث في تاريخ مدينة دمشق.

إقامة البرامج التدريبية في مجال التوثيق والأرشفة والبحث العلمي والتاريخي.

إقامة الندوات والمحاضرات والفعاليات والأنشطة المختلفة التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق عبر العصور.

إطلاق بوابة إلكترونية تعنى بتاريخ مدينة دمشق بلغات عديدة إضافة للعربية، يتم من خلالها نشر أبحاث ومقالات تاريخية عن مدينة دمشق، ونشر صور و مواد سمعية وبصرية وأفلام وثائقية تعنى بتاريخ مدينة دمشق.

إبرام الاتفاقيات ومذكرات التعاون مع مؤسسات سورية محلية أخرى والتعاون معها ومع المؤسسات الأكاديمية المحلية المرموقة، بما يعزز تبادل الخبرات مع هذه المؤسسات وبما يسهم في استمرار تطوير عمل المؤسسة.

بناء مكتبة متكاملة تشكل أرشيفا لتاريخ مدينة دمشق تضم نسخا من كل ما نشر عن تاريخ المدينة من كتب ومجلات ودوريات وصحف ووثائق قديمة وعملات وطوابع قديمة، لتوضع في خدمة الباحثين والمجتمع.

التواصل مع المؤسسات التي تعمل في نفس المجال في الدول العربية والعالم، وابرام الاتفاقيات و مذكرات التعاون لتبادل الخبرات بما يسهم في استمرار تطور عمل المؤسسة وخبراتها البحثية.

مؤازرة المؤسسات الرسمية المعنية والمبادرات الهادفة إلى توثيق تاريخ سورية عموما أو مبادرات مماثلة لمؤسسة تاريخ دمشق تخص مدن سورية أخرى

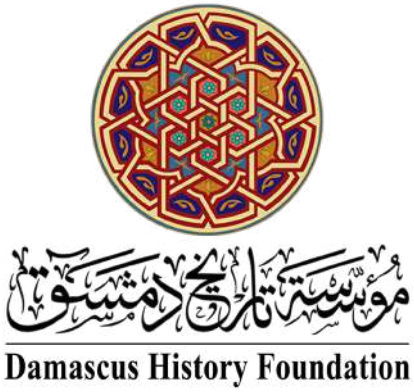

The Damascus History Foundation is a non-governmental non-profit Syrian organization dedicated to the history of Damascus. The DHF carries out a broad spectrum of programmes aimed at collecting, classifying and preserving historical documents pertaining to the city of Damascus. In addition, DHF seeks to design and implement inclusive research projects on the history of Damascus with the aim of preserving the city's heritage and its authentic way of life.

The DHF was founded per decision #1041 of the Syrian Minister of Social Affairs and Labor on 17 April 2017.

Damascus History Foundations aims to...

Document the history of Damascus through the collection of relevant photographs, manuscripts, private papers and official documents.

Launch exhibitions, galleries and documentary initiatives on the history of Damascus through using any available sources.

Design and launch promotional programmes and awards for young historians and academics interested in working on the history of Damascus.

Design and implement training programmes in the fields of documentation, archiving and historical research methods.

Organise seminars, lectures and other activities centred on the different aspects of the history of Damascus.

Launch an electronic platform dedicated to the history of Damascus in order to facilitate the publication of photographs, audio-visual material, academic articles and other relevant material on the history of Damascus.

Cooperate with other local Syrian organisations and academic institutions, in order to exchange knowledge and experience, to the benefit of all parties.

Build an inclusive library dedicated to the history of Damascus, with the aim of collecting all published works on the topic, in addition to magazines, periodicals, news papers, official documents and stamps. DHF will make these material available to researchers and students, and to the general public.

Cooperate with organisation working on similar topics across the world in order to share knowledge and experience.

Support relevant government insinuations and initiatives aimed at documenting the history of Syria and Damascus.

الفهرس

نقود الكبش المضروبة بدمشق في العصر الكلاسيكي

أ.د خالد نواف كيوان

10

دمشق الشام في كتاب (صورة الأرض)
لابن حوقل (ت 367هـ -977م)

محمد علي حبش

26

ابن القَلانِسي
عميد دمشق ومُعلِّم المؤرِّخين

د. ناديا محمد زهير الغزولي

48

جوهر السَّيف الدِّمشقي
(تقنية النانو في السَّيف الدِّمشقي)

أ.د محمد شعلان الطيار

62

المعالم العلمية الكبرى في صالحية دمشق وأثرها على المدينة

الدكتور أسامة شحادة

78

Content

فريد الزَّمان ابن الشَّاطر الدمشقي الفلكي ـ الميكانيكي السَّاعاتي ـ الجغرافي مُفجِّر الثورة الفلكية الأوروبية (الجزء الثاني)

أ.د عمار محمد النهار

100

أحمد بن شاهين (995 – 1053هـ) أديب الشام ومحور حركتها الفكرية في القرن الحادي عشر الهجري

الدكتور محمود الحسن

130

فنُّ الخاتمة في شعر أنور العطار (1913- 1972م)

الدكتورة ناجية سليمان إبراهيم سليمان

156

دمشق منارةٌ علميَّةٌ تتألَّقُ في رحابِ مكتبةِ الأسدِ الوطنيَّة (الجزء الثاني)

إياد فايز مرشد

178

قراءة نقديَّة لكتاب: دمشق 1902م للكاتب ستيبان كوندو روشكين

الدكتور غسان كركوتلي - أ.د عمار محمد النهار

212

الاستهلال

من أهمِّ المزايا التي اتَّصَف بها تاريخُنا العنايةُ بفَنِّ التَّراجِم، حيث ترجَم المؤرِّخونَ للأعلامِ الذين كان لهم شأن في العلم والسياسة وغيرهما من مجالات الحياة، فذكروا تفاصيلَ حياتهم وشيوخهم وتلامذتهم، ومستواهم العلمي، وإنجازاتهم، وسيرتهم في الحياة، فخصَّصوا للحديث عن الأعلام الأسفار الكثيرة المُطوَّلة والمُوجَزة، وبَلغت عنايتُهم بالتَّراجِم حداً جعَل بَعضَهم يُطلِق علمَ التَّاريخ، وهو يُريد فنَّ التَّراجم، فلو أخذنا مثالاً كتاب: تاريخ مدينة دمشق للمؤرِّخ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ = ١١٧٦م)، الَّذي ضَمَّ ثمانين مجلَّدة، فسنكتشف ببساطة أنَّه ليس سوى تراجم للشَّخصيَّات التي لها علاقة بمدينة دمشق، بينما خَصَّص نصف مجلدة فقط لوصف المدينة وخططها وتاريخها العمراني، وهذا ينطبق على كتب أخرى كثيرة.

وبما أنَّ كتب التَّراجم تُشكِّل الرَّكيزة الرَّئيسة لأي بحث على اختلاف العصور حتى يومنا هذا، فإنَّ فنَّ التَّراجم قد أسهم بنصيب وافر في كتابة التَّاريخ العربي الإسلامي منذ بدايته، مروراً ـ وبشكل أقل ـ بالتَّاريخ الحديث والمعاصر، وهذا الفنُّ يُعنى بحياة الأعلام المُبرّزين، وإنتاجهم، وإسهاماتهم في نواحي الحياة، كالقادة والملوك والرُّواة والعلماء والأدباء والأطبَّاء والسِّياسيِّين والمُفكِّرين ... إلخ.

ومع مرور الزَّمن استطاع هذا الفن أن يَظفر بمكانة رفيعة في التَّاريخ، وشغلت كتب التَّراجم المساحة الأكبر فيه، فصار فنُّ التَّراجم سمةً مميَّزة غالبة على فنون الكتابة

التَّاريخية، بحيث إنَّه لو لم تُوجد كثير من كتب التَّراجم، لأُصيب التَّاريخ بثغرة واسعة لا يستطيع أحد سدَّها.

ولا غرابة ـ بعد هذه الأهمية لفن التَّراجم ـ أن يكون الإنتاج الأكبر في تاريخنا عنه، إذ أضحت مؤلَّفاته هي الأكثر عدداً، والأفضل ضبطاً، والأكثر سعة، والأضخم استيعاباً، والأعم نفعاً، وهذا أدَّى إلى حفظ الصُّورة الفكرية الثَّقافية لتاريخنا، فنقف على شبكة من العلماء المُترابطة، ما بين شيخ وتلميذ، وتلميذ للتِّلميذ، وما بين معاصر وآخر، قد سُجِّلت من خلال آلاف التَّراجم.

ومن هذا المنطلق، وللأهمية القصوى لفن التَّراجم، فإنَّنا ارتأينا أن نُخصِّص عَددين من مجلَّتنا على الأقل، لتراجم من أعلام دمشق وأعيانها في العصر الحديث والمعاصر، خاصَّة تلك الشَّخصيَّات التي لم تنلْ حقَّها من التَّعريف، مع أنَّها شخصيَّات مهمَّة ذات مكانة مُعتبرة، أنتجت مؤلَّفات أو قدَّمت أعمالاً ذات قيمة كبيرة، وكان لها الأثر الكبير في تاريخ مدينة دمشق، ونكون بذلك قد سَددنا ثغرة في فنِّ التَّراجم.

وعليه؛ فإنَّ مجلة تاريخ دمشق تدعو كلَّ من يرغب في مشاركتنا هذا الهدف أن يختار شخصية دمشقيَّة ويُترجِمَ لها، لنُحقِّق ـ قدر الإمكان ـ هدفاً سامياً، ونُسهم في حياكة النَّسيج التَّاريخي لهذه المدينة العريقةِ في القِدم.

المدير ورئيس التحرير

نقود الكبش المضروبة بدمشق في العصر الكلاسيكي

أ.د خالد نواف كيوان(١)

(1) أستاذ في جامعة دمشق _ قسم التاريخ _ فرع السويداء. رئيس فرع جامعة دمشق في السويداء.

الملخَّص

تعدُّ دار الضرب بدمشق من أقدم دور الضرب في الداخل السوري، وقد أُنشئت في عهد الإسكندر المقدوني (٣٣٣/٣٣٢ ق.م) إبانَ غزوه لسورية وسيطرته على خزينة الفضة الفارسية الموجودة بدمشق، وقد كلَّف الإسكندر المقدوني القائد بارمينيون للقيام باحتلال دمشق والسيطرة على خزينة الفضة فيها وتحويلها إلى نقود فضية من فئة التيتراداخما، ذات الطابع والطراز اليوناني.

هذه الورقة البحثية تسلط الضوء على رمز دقيق نُقش ودرج انتشاره على النقود الدمشقية منذ أول إصدار نقدي لها، وذلك في زمن الإسكندر المقدوني، ثم انقطع نقشه ليعاود مرةً أخرى الظهور في القرن الثالث الميلادي في العصر الروماني، ولا سيما على نقود الأسرة السيفيرية (١٩٣ ـ ٢٣٥م). وتكمن أهمية هذه الورقة البحثية من حيث أنَّها ستَعرض نقشَ رأس الكبش ومقدمته على المسكوكات الدمشقية، والإجابة على التساؤلات التالية:

١ـ ما أقدم المسكوكات الدمشقية التي حملت رأس الكبش ومقدمته؟

٢ـ ما علاقة هذا التصوير بأقدم المسكوكات الدمشقية؟

٣ـ هل لهذا التصوير معنى دلالي ورمزي؟

٤ـ هل استمرَّ هذا النقش على مسكوكات دمشق؟

مقدمة:

تُعد نقوش الكبش، والغزلان، وذئبة الكابيتول، والعقاب ... إلخ من المشاهد التي زَيَّنت ظهر المسكوكات الدمشقية بالعصور الكلاسيكية، وكانت مرتبطة بقصص ومواضيع أسطورية ودلالات رمزية، ولكل منها مغزًى ومعنًى وقف الباحثون على دراسته وتفسيره، وبحثُنا هذا يقتصر على دراسة تصوير رأس الكبش ومقدمته المنقوشة على النقود الدمشقية، لما له من أهمية ودلالة رمزية تتعلّق بقضيتين، الأولى ذات أصول دينية/ أسطورية، والأخرى تعكس وضعاً عسكريّاً، وسنتناول في هذا البحث أقدم الإصدارات النقدية التي حملت صورة الكبش، ومدى استمراره على النقود، مع مقارنته إنْ وُجد نظيرٌ له على باقي مسكوكات المدن السورية. في حين تعدّ دراسة نقود دمشق من الدراسات المهمة نظراً للامتداد الزمني لتاريخ الإنتاج النقدي لمدينة دمشق، وتعدّد الحكومات التي قامت بعملية الإصدار النقدي حسب التالي:

١ـ نقود الإسكندر المقدوني وفيليب الثالث أريدي (نهاية القرن الرابع ق.م).

٢ـ النقود السلوقية من القرنين الثاني والأول ق.م.

٣ـ نقود الملك تيجرانس الأرميني (القرن الأول ق.م).

٤ـ نقود الملك النبطي الحارث الثالث (القرن الأول ق.م).

٥ـ النقود المستقلة في القرن الأول ق.م.

٦ـ النقود الرومانية من العام (٢٩ ق.م حتى العام ٢٦٨م).

٧ـ النقود البيزنطية من فئة الفلوس النحاسية (القرن السابع الميلادي).

٨ـ النقود الأموية القرن الثامن الميلادي.

٩ـ النقود الأيوبية (القرن الثاني عشر والثالث عشر).

١٠ـ النقود المملوكية (القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر).

وقد اعتمدنا في منهج البحث وسير خطواته على المنهج التاريخي/ الأثري في كتابة الأبحاث، وعلى المنهج الوصفي الاستقرائي القائم على المقارنة والتحليل للمسكوكات، مع مراعاة التسلسل الزمني في استعراض النقود ومدى تطورها.

أولاً. أهمية مدينة دمشق بنظر المؤرخين القدماء:

تأتي أهميّة مدينة دمشق(ΔAMAΣKHNΩN) في العصر الكلاسيكي من خلال النصوص القديمة، فالمؤرّخ كوينتوس كيروس (Quinte –Curce) ذكر أنّ الملك الفارسيّ داريوس الثالث أرسل كنزه إلى دمشق. ويضيف المؤرّخ أريانوس (Arrien) بأنّ الإسكندر المقدونيّ عندما علم بذلك كلّف مساعده بارمينيون بالاستيلاء عليه[٢]. في حين يؤكّد المؤرّخ سترابون (Strabon)[٣] على أهميّة دمشق في الفترة الفارسيّة/ الإخمينيّة بقوله: (لا تزال دمشق حتّى اليوم على جانب عظيم من الأهميّة، وفي زمن الحكم الفارسي يمكن اعتبارها أشهر مدينة في هذا القسم من آسيا)[٤]. ويضيف أنّ ملوك الفرس قد أقاموا فيها بقوله: (إنّ الملك الفارسي داريوس كان موجوداً في قصره الكائن بدمشق مع حاشيته وثرواته قبل معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق.م). في حين ذكرها كتّابٌ آخرون من القرن الرابع الميلاديّ مثل آميانوس مارسيللينوس (Ammianus Marcellinus)، الذي تكلّم عن أهمّيتها السياسيّة والعسكريّة كمركز لعسكرة الجيوش الإمبراطوريّة أثناء النزاع ضد الساسانيّين[٥]، خاصّةً في عهد الإمبراطور ديوقليتيانوس (Dioclétien) الذي حكم بين عامي (٢٨٥ ـ ٣٠٥م)، وذلك عندما عدَّها من المدن الصناعية إلى جانب أنطاكية وأديسا (الرها / أورفة)، حين أسِّس فيها ورشات تعدين لصناعة الأسلحة، وكذلك مستودعات اللوازم الحربيّة[٦].

---

(2) كوينتوس كيروس (Quinte-Curce): مؤرخ حملات الإسكندر. أريان (Arrien): كتب عن حياة وتاريخ الإسكندر الكبير. انظر: (SARTRE Maurice. 2001. P. 70.). انظر أيضاً بخصوص نقود دمشق: (إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها في الفترة الرومانية. كيوان، خالد 2010م). كذلك للباحث مجموعة من المقالات المنشورة في مجلة مهد الحضارات والحوليات الأثرية العربية السورية الصادرة عن المديرية العامة للآثار والمتاحف بأعدادها الأخيرة وبمجلة دراسات تاريخية/ جامعة دمشق.

(3) (بلينيوس Pline): مؤرخ يوناني عاش بين عامي 20 - 79م، عمل بالسياسة ثمّ بالجغرافية، ومن كتبه التاريخ الطبيعي. وقد توفي إثر اندلاع بركان فيزوف بإيطالية عام 79م. (فلافيوس يوسيفوس): مؤرخ يهودي عاش بين عامي 37 - 100م وشهد الحرب اليهودية وكتب عنها، وقد ذكر بعض المدن السورية، كمدينة أبيفانيا (حماة)، ورافانيا بالقرب من حمص. (سترابون Strabon): مؤرخ وجغرافي يوناني من آسيا الصغرى عاش بين عامي 64 - 19م كتب في الجغرافية. (بوسيدون الأفامي Poseidonios d'Apamée): ولد في أفاميا على العاصي 135 - 50 ق.م، درس الفلسفة في أثينا، ترك مؤلفات كثيرة اعتمد عليها سترابون في جغرافيته وكتابه في التاريخ.

(4) دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب. حداد، جورج. ج1 . 1951. ص 272-274.

(5) Archéologie et Histoire de la Syrie. Maurice Sartre. p. 466.

(6) إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها في الفترة الرومانية، كيوان، خالد. 2010. ص/ 130

ثانياً ـ اسم مدينة دمشق:

يشير المؤرخون القدماء إلى قدم مدينة دمشق وشهرتها منذ التأسيس، والسؤال الممكن طرحه من أين استمدت مدينة دمشق اسمها (داماسكينون). يبدو أنَّ هذه التسمية مأخوذة من الأساطير الإغريقية ـ الرومانية، وهي مؤلفة من (دامي ـ أسكوس) وهو العملاق الذي قام الإله زيوس كبير آلهة جبل الأولمب بترويضه في هذا المكان[٧]. ويرى ستيفانوس البيزنطي أنَّ العملاق (أسكوس/ ASKOS) كان حليفاً للبطل المحلي (Lycurgus) الذي وثقه (ربطه) الإله ديونيسيوس (إله الخمر)، وألقى به في نهر بارادين (بردى)، لكنَّ الإله هرمس (رسول الآلهة) فكَّ وثاقه، وسلخ جلد أسكوس، وجعل منه ديرماً (زقاً) للخمر، ومن هنا جاء اسم (داماسكوس) من (ديرماسكوس)[٨].

هناك رواية أخرى تذكر بأنَّ (داماسكوس) هو ابن الإله هرمس والحورية (هاليدي Halimédé) التي جاءت من أركاديا لتأسيس المدينة، ويمنحها اسمه (داماسكوس)، وبالتالي فإنَّ داماسكوس هو كائن بشري كان يقطع بفأسه كروم العنب في سورية، المزروعة من قبل الإله ديونيسيوس.

أمّا رواية المعجم البيزنطي فتقول: أنَّ دمشق قامت بحملة، ووقف إلى جانبها الإله ديونيسيوس، الذي بنى خيمة أو معبداً صغيراً يدعى (Skènè)، وينصب به تمثالاً لآلهة سورية، لكن من المستبعد أنْ تكون هذه التسمية ذات صلة باسم دمشق (داماسكينون)، وإنَّ الأقرب لها هو ما ذُكر في الرواية الأولى إذ تمّ الاعتقاد بأنَّ قبر أسكوس موجود بدمشق. وقد أظهر العلماء المعاصرون أنَّ هذه الأساطير تضمّنت عناصر هي:

١ـ الأساطير الأركادية (الإله هرمس، العمالقة، هاليدي).

٢ـ أسطورة الإله العربي (Lycurgus) مسلَّحاً بفأسه لقطع كرمة ديونيسيوس.

٣ـ شخصية الساتير مارسياس المرتبطة بالإله أبولو الذي سادت صوره على النقود البرونزية الدمشقية في القرن الثالث الميلادي.

نقد برونزي لفيليب الابن مضروب بدمشق عام ٢٤٧م حمل في مركز الظهر صورة الساتير مارسياس حاملاً على ظهر جلد (ديرما) واقفاً أمام شجرة سرو.
كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١.

(7) Damas dans les textes de l'antique. Pierre – Louis GATTIER. Vol. LI, LII. P. 42-45.
(8) Damas dans les textes de l'antique. Pierre – Louis GATTIER. Vol. LI, LII. P. 42 (8).

ثالثاً ـ تاريخ الإنتاج النقدي الدمشقي:

تُعدُّ دمشق من أوائل دور الضرب السورية التي أصدرتْ نقوداً على شرف الإسكندر المقدونيّ، وكان ذلك بين عامي (٣٣٣ـ ٣٢٣ ق.م). حيث تميّزت نقودها بأنّها ضُربَت من معدن الفضّة، وظهر في مركز الوجه رأس الإسكندر هرقل أو ملقارت، بينما حمل مركز الظهر الإله زيوس جالساً على العرش، وفي الجهة المقابلة له مقدّمة كبش برأس ملتفٍّ القرنين كأوّل رمز لدار الضرب الدمشقيّة، وكُتبَ خلف الإله زيوس نقشٌ يونانيٌّ عموديّ يذكر اسم الإسكندر الكبير نحو: (ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΥ)، كما أنّها حملت الحرفين الأوّل والثاني من اسمها (ΔA)[٩]. ويشير إلى ذلك دراسة النقود المكتشفة في جزيرة فيلكة الكويتيّة وفي مدينة آكاكال التركيّة، إذ أنّه بعد موت الإسكندر الكبير تسلّم الحكم الملك فيليب الثالث أريدي (٣٢٣ـ ٣١٦ ق.م)، الذي أصدر بدمشق نقوداً من وحدة التيتراداخما الفضيّة، جاءتْ متناغمة مع إصدارات الإسكندر الكبير[١٠].

توقّفت دمشق عن الإنتاج النقدي من العام (٣١٦ ق.م) وحتّى عهد الملك السلوقيّ أنطيوخوس السابع إيفريجيت (١٣٧ـ ١٢٩ ق.م)، وديمتريوس الثاني نيكاتوريوس (١٢٩ـ ١٢٥ ق.م)، الّذي اتّخذ من دمشق مقرّاً لإقامته وداراً رسميّة لإصدار عملاته[١١]. ومن هذه النّقود تيتراداخما فضيّة صدرت باسم الملك أنطيوخوس السابع إيفريجيت (١٣٧ ـ ١٢٩ ق.م)، حملتْ في مركز الظهر الربّة أثينا منتصبة بحركة المسير نحو اليسار، ممسكةً بيدها اليمنى تمثال ربّة النّصر المجنّحة وباليد اليسرى الرمح. ونقش الإله زيوس أورانوس واقفاً متّجهاً نحو اليسار يعلو رأسَه هلال، يقف فوق يده اليمنى النسر ويمسك باليد اليسرى الرمح. وبعد انتصار غايوس يوليوس أوكتافيانوس (أغسطس) على كليوباترا وماركوس أنطونيوس في معركة أكتيوم عام (٣١ ق.م) كانت دمشق من أوائل دور الضرب السوريّة التي أصدرت نقوداً على شرفه مؤرّخة بالعام (٢٩ ق.م)، متميّزةً بنقش كلمة سيباستوس اليونانية (ΣΕΒΑΣΤΟC) التي تقابل في اللاتينية كلمة (August) المشتقّة من سيباتوس اليونانيّة. بينما حمل مركز الظهر الربّة تيكة جالسةً على صخرة وهي تشير إلى جبل قاسيون، وقد أمسكتْ بيدها اليسرى قرن الوفر والسعادة، وأُحيط المشهد المركزيّ بكتابةٍ إغريقيةٍ تذكر اسم دمشق (ΔAMACKHNWN)[١٢].

أمّا في عهد الأسرة السيفيرية فقد نشطت عملية الإصدار النقدي بدمشق، لا سيما بعد منحها لقب المستعمرة الرومانيّة (كولونيا ميتروبوليس ـ المدينة العاصمة METPO. COL ΔAMAΣKHNΩN)[١٣]، وأضافتْ إليها امتياز إصدار نقود فضيّة من وحدة التيتراداخما الرومانيّة في عهد كركلا. كما تابعت دمشق عمليّة إنتاجها النّقدي في عهد الإمبراطور فيليب العربيّ، حملت نقودها في مركز الوجه نقشاً جانبيّاً لرأس الإمبراطور فيليب معتمراً التاج الشعاعيّ، كما حملت إصداراتٌ أخرى نقشاً جانبيّاً لرأسه المكلّل بورق الغار، تحيط به كتابةٌ لاتينيةٌ تذكر

(9). La monnaie en Syrie à l'époque hellénistique et romaine, Archéologie. AUGÉ Christian, p. 152.
(10) "Le trésor de Failaka", Revue numismatique. AMANDRY Michel et CALLOT Olivier. p. 64.
(11) Les rois de Syrie, d'Arménie et de Commagène. BABELON. Ernest. p. 208.
(12) Archéologie et Histoire de la Syrie. Maurice Sartre. p. 466.
(13) La Syrie de Pompée à Dioclétien. Histoire politique et administrative. Archéologie et Histoire de la Syrie. REY-COQUAIS. Jean-Paul , p. 4561-

اسمَه، مع عبارة لاتينيّة تعني الابن التقي، والمرمّزة بالحرفين:

IMP. M. IVL. PHI–LIPPVS. PF. AVG .(PF= Pius Filius)

إمبراطور. ماركوس.يوليوس.فيليبوس.بيوس. فيليوس. أوج (الإمبراطور)

نلاحظ على النقود الدمشقية الصادرة في عهد فيليب العربيّ وأسرته تعدُّدَ الأشكال والمشاهد التي جسّدت العمارة الدينيّة والآلهة والحيوانات (كالكبش والغزلان)، والرموز العسكريّة التي تشير إلى الفرقة السادسة فيراتا (LEG VI FER). وقد استمرّت دمشق بإصدار النّقود في عهدي الإمبراطورين تراجان دوقيوس وتريبنيوس غالوس، كما أنّها حملتْ مشاهد مشابهة لتلك التي حملتها نقود دمشق في عهد فيليب العربيّ وعائلته. كما استمرَّت دمشق بإصدار النقود في عهد أسرة فاليريانوس وغاليانوس وسالونينا. وفي العام (٢٦٨م) توقّفت دار الضرب فيها عن الإنتاج النقديّ نهائيّاً.

رابعاً ـ الإصدار النقدي الفضي الأول في دمشق:

تعدُّ التيتراداخما الفضية المنسوبة للإسكندر المقدوني المضروبة بين عامي (٣٣٣ ـ ٣٢٣ ق.م) أقدم الإصدارات النقدية فيها وتزن (١٧غ)، كما وتعدُّ من أوائل دور الضرب في الداخل السوري في هذه المرحلة[١٤]، وتتسم أيضاً بحملها أول تصوير رمزي دلالي عليها، وهو رأس الكبش ومقدمته، ملتف القرنين، يواجه الإله زيوس الجالس على العرش، والكتابة اليونانية التي تذكر اسم الإسكندر (ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΥ) والحرفين الأولين اليونانيين من اسم دمشق (**ΑΔ**)[١٥].

ومن اللافت للنظر أنَّ خليفة الإسكندر المقدوني فيليب الثالث أريدي (٣٢٣ ـ ٣١٦ ق.م) قد أصدر النموذج نفسه حسب ما أشارت إليه دراسة الباحث (ميشيل أماندري) في النقود القديمة[١٦]، كما عُثر على كنوز من هذه النقود الفضية في جزيرة فيلكة بالكويت وآكاكال التركية[١٧].

(14) إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، كيوان، خالد. ص/125

(15) La monnaie en Syrie à l'époque hellénistique et romaine. Archéologie. AUGÉ Christian, p. 152.

(16) Le trésor de Failak, Revue Numismatique. Amandry. Michel et Callot Olivier.. P. 64.

(17) المسكوكات القديمة، كيوان، خالد، وسلهب، زياد. ص/ 194.

تيترادراخما الإسكندر المقدوني ٣٣٣ ـ ٣٢٣ ق.م
ـ الإله زيوس جالساً على العرش يقف على يده اليمنى نسر، وأمامه حرف دلتا اليوناني (Δ)

تيترادراخما فيليب الثالث أريدي ٣٢٣ ـ ٣١٦ ق.م
ـ الإله زيوس جالساً على العرش يقف على يده اليمنى نسر، وأمامه حرف دلتا اليوناني (Δ)
ـ كنز آكاكل في تركيا ١٩٥٨م، الوزن ١٧،١٩غ

خامساً ـ إصدارات دمشق النقدية الفضية في العصر الروماني:

بدأ إنتاج النقود الفضية من فئة التيترادراخما في العديد من دور الضرب السورية بما فيها مدينة دمشق، حيث تمَّ إجراء دراسة على الإصدارات الفضية لهذه الدار لتحديد الترتيب الزمني لتسلسل وجه العملة وأيضاً ظهرها. وتشير النتائج الأولوية إلى عدم وجود أي تطابق، إذ نلاحظ اختلاف وجه الإمبراطور كراكلا من ناحية أنَّ رأسه عارٍ ولا يعتليه التاج، أو يعتليه تاجٌ شعاعي، أو رايات. كما شرعت الدراسة لتحديد ما إذا كان سك هذه التيترادراخما قد بدأ من خلال نموذج الظهر النادر الذي يصوّر تمثالاً نصفيّاً للإمبراطور وعلى الوجه الثاني نقش العقاب السوري.

تمَّ إحصاء (٢٨) داراً لضرب التيترادراخما في عهد الإمبراطور كراكلا موزعةً في عدّة مناطق هي: كيليكية، قبرص، سورية، سورية/ فينيقية، وقد شاركت فلسطين وبلاد ما بين النهرين في عملية الإنتاج النقدي التي بدأت في القنصلية الرابعة من حكم الإمبراطور كراكلا في عام (٢١٣/ ٢١٤م) واستمرَّت في عهد ماكرينوس (٢١٧/٢١٨م)، والأغلبية من صور هذه التيترادراخما تمثِّل تمثالاً نصفيًّا أو رأس الإمبراطور، والوجه الآخر حمل نقش العقاب السوري. ولم تكن مدينة دمشق بمنعزل عن أخواتها المدن الأخرى في عملية الإنتاج النقدي من فئة التيترادراخما المضروبة في عهد الإمبراطور كراكلا، والأهم بأنَّه لم يتم العثور على تيترادراخما تعود إلى عهد الإمبراطور ماكرينوس صادرة عنها.

أشارت دراسة النقود أنَّ دمشق لم تصدر تيتراداخما فضية في العصر الروماني قبل عهد كراكلا، وخير من قادنا إلى ذلك دراسة الكنز المكتشف في دورا أوروبوس، الذي قام بدراسته (ألفرد بيلينجر)، حيث تبيّن من خلال قرائته أنَّ أول إصدار نقدي فضي لدمشق في العصر الروماني كان في عهد الإمبراطور كراكلا، كما وجد أيضاً عدة نماذج من هذه النقود الفضية التي تصوّر رأس الإمبراطور كراكلا[١٨].

حملت تيتراداخما الإمبراطور كراكلا النقوش التالية:

الوجه: AYT. KAI. ANTWNINOC. CEBACTOC

ويتم اختصار (CEBACTOC) بالحروف: (C) أو (CE) أو (CEB)، كما حمل ظهر التيتراداخما العبارات: (ΔAMAPXEΞ) و(Δ ΥΠΑΤΟC)، والأهم من ذلك بأنَّ رمز دار الضرب الدمشقية تجلّى بمقدمة كبش ورأسه ملتف القرنين متمركز تحت أقدام العقاب[١٩]، وهو النقش أو الرمز الذي ظهر على تيتراداخما الإسكندر المقدوني الصادرة في دار ضرب دمشق، وعلى النقود البرونزية الصادرة في العصر الروماني، وللتأكيد فإنَّ باحث المسكوكات(Prieur) يعدُّ التمثيل المقتصر على رأس الكبش سمة من السمات الأساسية التي تميّز نقود دمشق، التي لها صلة بالإله زيوس. ويضيف (بريور): (إنَّ عملية نقش رأس الكبش ومقدمته هي من العادات التي اتبعتها دار الضرب بدمشق منذ عهد الإسكندر الكبير، وهي بالتأكيد من النقوش الواضحة والمميزة على العملات الدمشقية خلال مسيرة سكها النقدي)[٢٠]. إنّ سياسة الإمبراطور كراكلا المالية أثارت اشمئزاز العديد من كبار الإمبراطورية، كونه استنزف أموال الإمبراطورية، ونشير إلى ذلك بما قاله جان بابيلون[٢١]: (لم يطلب كراكلا من أمه إلا أنْ تُؤمِّن له ما يحتاجه من المال ليستنزف أرصدة الدولة فيما يُنفقه على حملاته البعيدة، وما يهديه إلى أمراء البرابرة)، ويضيف: (يجب أنْ نذكر الضرائب المخزية التي فرضها من أجل أنْ يشتري السِّلمَ بالمال، بحيث تجاوز سخاؤُه كلَّ الرصيد المخصَّص للجيوش، وما ينفقه على الأبنية كالحمامات، وما يقدمه للمقرَّبين، والمساهمة التي كان يفرضها على المواطنين أنْ يقدموها عند اعتلاء الإمبراطور على العرش)[٢٢].

(18) المسكوكات القديمة، كيوان، خالد، وسلهب، زياد. ص/ 125 - 126.
(19) Damascene tetradrachms of Caracalla. Jack. Nurpetlian. AJN, 26. pp. 187 – 198.
(20) A type corpus of the Syro – Phoenician Tetradrachms and their fraction from 57 BC to 253 A.D. Michel and Korin Prieur. Pp. 143 -144.
(21) إمبراطوريات سوريات، بابيلون، جان. ص/ 202 - 203.
(22) إمبراطوريات سوريات، بابيلون، جان. ص/ 202 - 203.

تيترادراخما فضية دمشقية للإمبراطور كراكلا (ماركوس أوريلوس أنطونينوس ٢١١ - ٢١٧م)
AYT. KAI. ANTΩNEINOC
العقاب السوري مواجهاً وبين أقدامه رأس كبش ملتف القرنين
الوزن ١٤،٨٩
Bellinger. A, 1940: The Syrian Tetradrachms of Caracalla and Macrinus.
AJN. New Yor;

سادساً ـ دلالة رأس الكبش على النقود الدمشقية:

لا يوجد تفسيرٌ واضح ودقيق لوجود رأس الكبش ومقدمته على النقود الدمشقية، لكن ما يمكن استنتاجه أنَّ رأس الكبش أو الكبش بشكل عام له دلالتان: دينية مرتبطة بالإله زيوس ـ أمون حيث تقول الأسطورة الإغريقية: لدى قيام الحرب بين الآلهة والعمالقة، وترجيح كفة النصر لصالح العمالقة، هربت الآلهة من بلاد الإغريق، وتقمَّص كلٌ إله شكل حيوان معيّن، فأخذ الإله زيوس كبير آلهة اليونان وجبل الأولمب شكل كبش ملتف القرنين، وفرّ إلى مصر، وعادل إلهها الأكبر آمون، واقترن الإله زيوس أثناءها بآمون وأطلق عليه زيوس ـ آمون. أما التفسير الآخر فارتبط بأمور عسكرية حيث كانت إحدى الفيالق المشاركة بحملات الإسكندر تحمل رايات صُوِّر عليها الكبش ملتف القرنين، أي أنَّ ذلك الرمز المنقوش على الرايات الحربية يشير إلى المحاربين الأوائل في صفوف جيش الإسكندر الأكبر. لذلك يظهر رأس الكبش على نقود الإسكندر الكبير ومقابل الإله زيوس الجالس على العرش المصوّر في الوجه الثاني للنقد، وعندما تكرّر ظهوره على نقود كراكلا متمركزاً بين قدمي النسر الذي يرمز إلى الإله زيوس/ جوبيتر فإنما أراد كراكلا أن يعبِّر عن نفسه بأنّه الإسكندر الأكبر، وما حملاته العسكرية باتجاه البارثيين إلا تكرار لبطولات الإسكندر الأكبر، متشبهاً بشخصيته حتى بالنقود التي أصدرها.

سابعاً ـ أهم الرموز التصويرية على النقود الدمشقية:

تعدّدت النقوش والصور على النقود الدمشقية، بنوعيها الفضي والبرونزي، خلال العصر الكلاسيكي بحقبتيه (الهلنستية والرومانية)، وكان من أهمِّ هذه الرموز:

١ـ الإله زيوس جالساً على العرش.

٢ـ الربة السورية أتارجاتيس مرتديةً ثوباً من حراشف السمك.

٣ـ الإله السوري هدد الدمشقي واقفاً بين ثورين.

٤. الربة تيكة حامية المدينة جالسةً على كومةً من الحجارة تشير إلى جبل قاسيون، وتحت أقدامها رجل يسبح في إشارة إلى نهر بردى.

٥. إله نهر بردى متكئًا وأمامه جرة مقلوبة ينضح منها الماء.

٦. واجهة معبد نبع الفيجي يخرج من قوسه الماء ورجل يسبح يشير إلى نهر بردى.

٧. رأس الربة تيكة مزدان بتاج يأخذ شكل سور المدينة ومُزوَّد بأبراج لتشير إلى أنها الربة الحامية للمدينة.

٨. صورة العقاب السوري منتصباً مواجهاً، رأسُه متَّجِهٌ نحو اليمين أو اليسار.

٩. ذئبة الكابيتول ترضع الطفلين ريموس وروموولوس، وينتصب فوق ظهرها راية حربية تشير إلى الفرقة السادسة فيراتا التي كانت متمركزة بالقرب من دمشق.

١٠. صور حيوانية لغزلان وأكباش وعصافير.

أ. نقود الكبش الدمشقية:

لدى دراسة النقود السورية تبيَّن وجود مدينتين سوريتين، هما أنطاكية ودمشق، وضعتا رأس أو صورة الكبش على نقودهما الفضية والبرونزية، وما يُميِّزُ نقودَ أنطاكية عن دمشق وجودُ هلال فوق رأس الكبش للإشارة إلى الإله زيوس أورانوس (الشمسي)، وهذه من صفات الإله زيوس.

جورديانوس الثالث على رأسه تاج شعاعي،
وفي الظهر نسر وبين مخالبه كبش يعدو نحو
اليسار سنة ٢٣٨م

إصدار أنطاكية: مقارنة مع نقود دمشق من الفئة النقدية نفسها التي حملت صورة الكبش
Augé, Christian, 1989: la monnaies en Syrie à l'époque hellénistique et romaine. Archéologie et histoire de la Syrie. éd par J. M. Dentzer. Saarbrücken

ب ـ تيكة والكبش:

صنَّفنا نقود دمشق التي حملت رمز الكبش حسب الشخصية المرافقة لها، وأولها نلاحظ نقش الكبش فوق رأس الربة تيكة المتوّج بتاج يأخذ شكل سور المدينة المزوَّد بالأبراج.

فيليب العربي
IMP.M_IVL.PHILIP.-PVS-PF-AVG

نقد برونزي يحمل رأس الربة تيكة وفوقه كبش يعدو نحو اليمين
إصدار أنطاكية، دائرة آثار ريف دمشق، مسح أثري، خربة الطيبة.
كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١. ص/ ٣٨٦

ج ـ عبارة الألعاب الرياضية وعلاقتها برأس الكبش:

أُقيمت الألعاب الرياضية في العصر الروماني على شرف الإمبراطور غايوس يوليوس أوكتافيانوس، وعُرفت باسم (سبا سميا) أو سيباكتوس أو أوكتافيوس (أكتيا)، ونُقشت العبارة ضمن إكليل من أوراق الغار، وفي الأسفل نُقش رأس الكبش الذي يشير إلى الإله زيوس مُباركاً هذه الألعاب الأولمبية، التي يعود أصلها للإغريق، وأوَّلُها أُقيم في سنة (٧٧٦ ق.م).

نزي من العصر الروماني حمل عبارة الألعاب الرياضية (CEBA-CMIA)
، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها بالفترة الرومانية من ١-٣م، ط١، وزارة الثقافة السورية. ص/ ٣٣٧

د ـ الكبش:

حملت نقود دمشق في الفترة المستقلة بالقرن الأول ق.م صورة كبش يعدو ملتفّ القرنين، وفوقه نقش هلال، وزهرة اللوتس خماسية البتلات، لتشير إلى الربة فينوس أو أفروديت، بما يعادل بالديانة المحلية السورية الإله هدد وعشتار التي رمزها الزهرة خماسية البتلات، والتي تظهر دائماً ضمن هلال يشير إلى الإله هدد.

نقد برونزي حمل رأس الربة تيكة المزدان بتاج يعلوه الأبراج. وفي مركز الظهر نقش كبش يعدو نحو اليمين، وقد علاه نقش هلال وشمس، إضافة إلى حمله التاريخ ٦٦ م، / ٣٧٧ سلوقي = ٦٥ = ZOT. الوزن ٧,٨٠ غ، القطر ١٩ مم. وأحاطت به عبارة يونانيّة تذكر اسم (ΔAMAΣKHNWN داماسكينون دمشق).
كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١. ص/ ٣٢١

هـ ـ النقود البرونزية في العصر الروماني التي حملت رأس الكبش أو الكبش:

أهم هذه الصور ظهرت على النقودِ البرونزية الصادرة في عهد الإمبراطور فيليب العربي وأسرته، وقد جسدت الكبشَ وحده واقفاً أو يعدو تحت ذئبة الكابيتول وهي تُرضع التوءَمين ريموس وروموولوس، كما ظهر الكبش يعدو على نقود أوتاكيلا زوجة فيليب العربي، وَجُسِّد أمام رأس الربة تيكة يعدو، أو أسفل واجهة معبد رباعي الأعمدة، وتكرّر مشهد الكبش على النقود البرونزية الصادرة عن دمشق، والتي حملت اسم فيليب الابن، ومن ثم الإمبراطور تريبينيوس غالوس (٢٥١ ـ ٢٥٣م).

نقد برونزي من العصر الروماني (فيليب العربي) حمل في مركز الظهر كبش واقفاً متجهاً نحو اليمين. COL.ΔAM.METRO IMP. M. IVL.Φ
كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها بالفترة الرومانية من القرن ١-٣م، ط١، وزارة الثقافة السورية. ص/ ٣٤١

نقد برونزي من العصر الروماني (فيليب العربي) حمل في مركز الظهر ذئبة الكابيتول ترضع الطفلين ريموس ورومولوس وبالأسفل كبش يعدو نحو اليمين. IMP. M. IVL.Φ COL.ΔAM.METRO

كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها بدمشق وريفها بالفترة الرومانية من القرن ١-٣م، ط١، وزارة الثقافة السورية. ص/ ٣٤١

نقد برونزي للإمبراطورة مارثيا أوتاكيلا صادر عن دار الضرب بدمشق بين عامي ٢٤٤ ـ ٢٤٩ حمل الظهر الربة تيكة جالسة وأمام رأسها كبش يعدو نحو اليسار.

كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١. ص/ ٣٤٤

نقد برونزي للإمبراطور فيليب الابن صادر عن دار الضرب بدمشق بين عامي ٢٤٤ ـ ٢٤٩م. حمل الظهر رأس الربة تيكة ضمن واجهة معبد رباعي الأعمدة، وتحته كبش يعدو نحو اليمين.

كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١. ص/ ٣٤٧

نقد برونزي للإمبراطور تريبينيوس غالوس صادر عن دار الضرب بدمشق بين عامي ٢٥١ـ ٢٥٣. حمل الظهر الربة تيكة جالسة وأمام رأسها كبش يعدو نحو اليسار.

كيوان، خالد، ٢٠١٠: إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها بالفترة الرومانية، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١. ص/ ٣٤٨

ـ الخاتمة:

تأتي أهمية النقود الدمشقية من استمرارية إصدارها، ومن الرموز التصويرية التي حملتها، وكان من أهم هذه الرموز رأس الكبش ومقدمته، الذي عُدَّ الرمز التصويري الأول لدار ضرب دمشق، بما يحمله من دلالات دينية وعسكرية، واستمرّ هذا النقش على الرغم من وضع دمشق على نقودها في القرن الثاني ومطلع الأول قبل الميلاد صورة الربة أتارجاتيس والإله هدد الدمشقي إلا أنَّ ذلك لم يُغيِّب نقشَ الكبش الذي كان ظهوره بشكل رئيسي على النقود البرونزية الصادرة في عهد الإمبراطور فيليب العربي وأسرته. نأمل أن نكون قد قدمنا ما يفيد المهتمين بالنقود الدمشقية عن رمزٍ تصويري اعتُبر الأهم في تاريخ الإنتاج النقدي الدمشقي.

مصادر البحث ومراجعه

- إنتاج المسكوكات وتداولها في دمشق وريفها في الفترة الرومانية، كيوان، خالد، منشورات وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ط١ . ٢٠١٠ .
- إمبراطوريات سوريات بابيلون، جان، ت. يوسف شلب الشام، ط٦، دمشق. ١٩٨٧ .
- دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب، حداد، جورج، الحوليات الأثرية العربية السورية، الجزء الأول. ١٩٥١ م.
- المسكوكات القديمة، كيوان، خالد وسلهب، زياد، ط٢، منشورات جامعة دمشق. ٢٠١٥/ ٢٠١٦ .

-Le trésor de Failaka, Revue numismatique. AMANDRY Michel et CALLOT Olivier. 1988
-Les rois de Syrie, d'Arménie et de Commagène. BABELON. Ernest. Paris 1890
-Damascene tetradrachms of Caracalla. Jack. Nurpetlian. AJN, 26. 2014
-A type corpus of the Syro – Phoenician Tetradrachms and their fraction from 57 BC to 253 AD. Michel and Korin Prieur. London 2000.
-Damas dans les textes de l'antique. Pierre – Louis GATTIER. Les annales Archéologiques Arabes Syriennes. Vol. LI, LII. 20082009/
-La monnaie en Syrie à l'époque hellénistique et romaine. Archéologie et Histoire de la Syrie. AUGÉ Christian. éd. J.-M. Dentzer et W. Orthmann, Saarbrücken, 1989.
-La Syrie de Pompée à Dioclétien, Histoire politique et administrative. REY-COQUAIS. Jean-Paul. Archéologie et Histoire de la Syrie, éd. J.-M. Dentzer et W. Orthmann, Saarbrücken. 1989
-la Syrie à l'époque hellénistique. Archéologie et Histoire de la Syrie. Maurice Sartre édit par J. M. Dentzer. Saarbrücken.1989.

دمشق الشام في كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل (ت ٣٦٧هـ-٩٧٧م)

محمد علي حبش(١)

(1) جامعة دمشق - مدير تحرير مجلة الأدب العلمي.

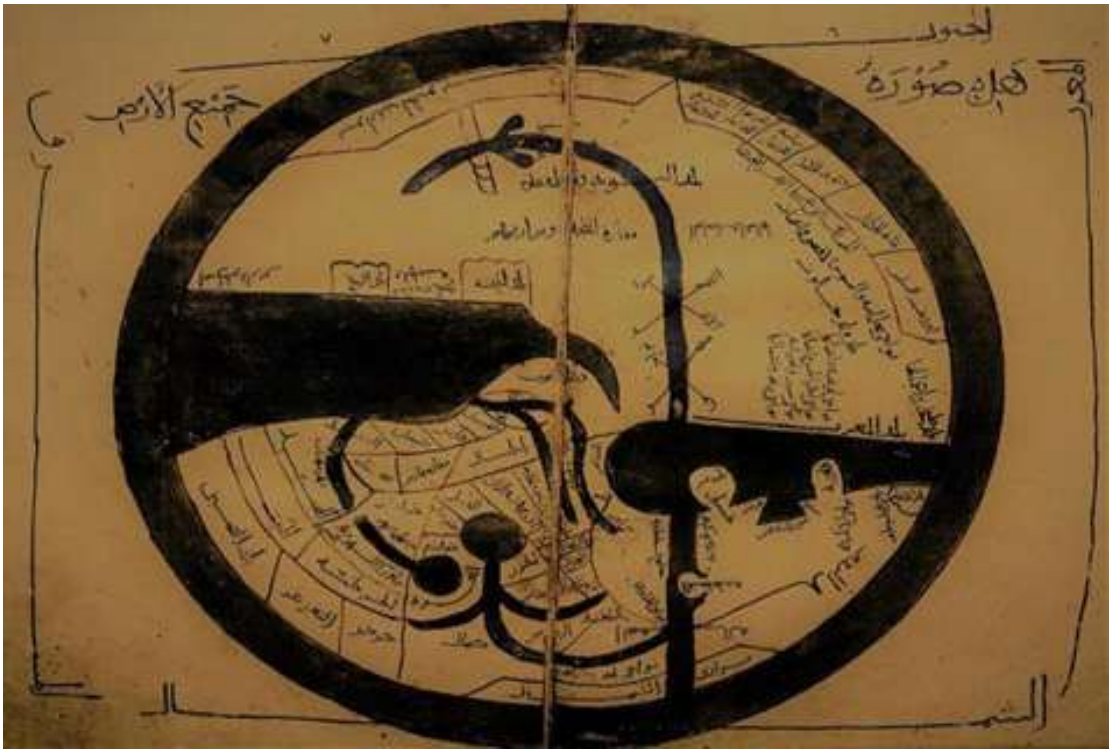

ملخَّص البحث

حظيت دمشقُ الشام باهتمام الجغرافيين العرب، فزاروها وحطُّوا رحالَهم فيها طلباً للعلم والمعرفة والفائدة العلمية في جمع المعلومات الجغرافية، أو للتجارة وكسب الرزق، فوصفوها في مؤلَّفاتهم، وتحدّثوا عن حدودها وطبيعتها وأنهارها وأهلها، ودوَّنوا مشاهداتهم في رحلاتهم.. ومن هذه المؤلفات كتاب (صورة الأرض)[٢] للرحّالة الجغرافي ابن حوقل[٣] الذيَ قدَّم فيه معلومات مهمّة عن دمشق الشام، حيث تحدَّث عن معالمها الطبيعية وصفاتها الطبوغرافية والمُناخية وموارد المياه وأهم المدن وزراعتها وصناعاتها، واصفاً غوطتها ومسجدها الأموي الكبير، وفصَّل في حدودها الواسعة طولاً وعرضاً، وصوَّر أجنادَها وجبالَها وأنهارها وبحرها وما على ساحله من مدن، وفقَ منهج امتاز به عن غيره من علماء الجغرافية باعتماده على معرفته الشخصية التي اكتسبها من رحلاته ولقاءاته بعلماء الفكر الجغرافي والرحّالة العرب، واستماعه لهم طالما كانوا ذوي علم ودراية بأخبار البلدان وممَّن يُشهد لهم بالصدق والبنان، واعتمد في كتابه أسلوبَ المشاهدة والدراسة الميدانية.

(2) كتاب صورة الأرض: أبو القاسم بن حوقل النصيبي، عدد الأجزاء: 2.

(3) ابن حَوْقَل (000-367هـ/000--977م)، هو محمّد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم: رحّالة، من علماء البلدان. كان تاجراً. رحل من بغداد سنة 331هـ ودخل المغرب وصِقِلِّيَة، وجاب بلاد الأندلس وغيرها.. له (المسالك والممالك). نقلاً عن كتاب: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط-5 2002، (ج-6 ص111). ويذكر "أغناطيوس كراتشكوفسكي" في مؤلفه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، تر: صلاح الدين هاشم، ج1، منشورات دار الغرب الإسلامي، موسكو، 1957. ص200، أنّ أصله من نصيبين السورية، المدينة العامرة من الجزيرة الفراتية، حيث لُقِّب بالنصيبي، درس بتعمُّق كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة "أبي القاسم عبيد الله" (ت:300هـ/912م)، وكتاب المسالك في معرفة الممالك للجيهاني "أبي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر" (ت:330هـ/941م)، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لابن قدامة "أبي الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة" (ت:310هـ/922م أو 337هـ/948م)، وتوصّل إلى أن المعلومات التي فيها لم تستند إلى دليل أو مشاهدة شخصية، لذا اعتمد على نفسه في أسفاره وتنقّلاته بين المدن والبلدان والأقاليم.. ليرى بنفسه أحوالَها ويتعرَّف على ظواهرها الجغرافية وغيرها..

كما قدَّم معلومات عن حصون على طريق الشام، وقبائل عاشت في باديتها، وحمولاتها ونشاطاتها الزراعية والصناعية والتجارية، وخراجاتها من الجبايات والضرائب.

مقدّمة:

الأدب الجغرافي ليس كأيِّ فنٍّ من فنون الأدب العربي، إذ اكتسب أهميةً تجاوزت بكثير حدودَ اختصاصاته الضيِّقة.. طالما أنّه المصدر الأساسي والموثوق به في دراسة ماضي العالم الإسلامي، والتراث العلمي العربي، إذ تتوفَّر فيه مادّة لا ينضب مَعينُها تمدُّنا بمعلومات مهمّة عن جميع البلاد التي بلغها العرب أو التي تجمَّعت لديهم معلومات عنها.

إنّ دراسةَ الأدب الجغرافي عند العرب، يحتاج إلى صبر وأناة، لكي نستطيع تقدير أهمية هذا الإنتاج بعَدِّه إنسانيّاً لا يهمُّ العربَ وحدَهم ولا يشغل حيّزاً معيَّناً من أدبهم، بل يهمُّ الفكر الإنساني عامّة.

والبحث الجغرافي عند العرب يُتحفنا بنصوص ومعلومات دقيقة ومفيدة عن الامتداد العربي، والكيفية التي كانت تُجمع بها المعلومات الجغرافية عن الأقاليم التي شملها ترحالهم وأسفارهم، ومنها وصف الشام وغيرها من البلاد والأمصار، وضبط المسافات ورسم المصوَّرات الجغرافية في ميدان الجغرافية الوصفية والرحلات والمسالك والممالك..

ومثلما كان العرب سبّاقين في كثير من العلوم (الطب، والفلك، والرياضيات... وغيرها) كانوا أيضاً مبتكرين في ميادين أخرى مثل دراسة الأبعاد والمسافات ومعرفة الممالك والأقاليم وخطوط عرضها وطولها واستكشاف المجاهل والجزائر النائية والأقاليم المهجورة.

ولعلّ تتبُّعَ أسفار واحد من أهم الجغرافيين العرب، وهو ابن حوقل، وما رواه في صورة الأرض،

يَرفدنا بملاحظات دقيقة عمّا فيه من دراسة منهجية وعمقٍ وحقائق، وهي معلومات على جانب كبير من الأهمية في الأدب الجغرافي.. لم تزدنا إلّا اقتناعاً باتّساع آفاق الأدب الجغرافي عند العرب في مشارق الأرض ومغاربها.

وهنا، إطلالة على كيفية تناول هذا الأدب لدمشق الشام في مؤلَّف "صورة الأرض" لابن حوقل من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

أولاً- "صورة الأرض" من أبرز كتب المسالك والممالك:

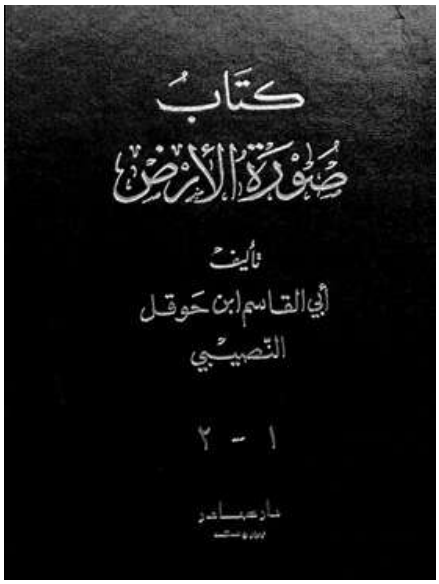

حمل كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل اسماً آخر هو (المسالك والممالك)، ففي مطلعه يلتزم بما أخذه على عاتقه بتناول جوانب معرفية جغرافية معبّراً عنها، حيث ورد في كتابه تحت العنوان: "هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك، وذكر الأقاليم والبلدان، على مرِّ الدهور والأزمان، وطبائع أهلها، وخواص البلاد في نفسها، وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلّاتها، وذكر الأنهار الكبار، واتّصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار، ومسافة ما بين البلدان للسفّارة والتجّار، مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار".

ويعدُّ هذا الكتاب من أبرز الكتب العربية الجغرافية المبكّرة، التي تمثّل أساساً مهمّاً من أسس الجغرافيا، ويصف ابن حوقل الأرضَ وأشكالَها ومقدارَها في الطول والعرض وأقاليم بلدانها ومحلَّ الغامر منها والعمران فيها، ويذكر في مقدّمته دواعي تأليفه هذا الكتاب، المتمثّلة في العمل بالتجارة وكسب الرزق والفائدة العلمية في جمع المعلومات الجغرافية، حيث يقول: "ممّا حضَّني على تأليفه، وحثّني على تصنيفه، وجذبَني إلى رسمه أنّي لم أزل في حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلّعاً إلى كيفيّة البين بين الممالك في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمّيّة وقوع ذلك في الهمم والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم، وترعرعتُ فقرأتُ الكتبَ الجليلة المعروفة، والتّواليفَ الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مُقنعاً، وما رأيت فيها رسماً مُتَّبَعاً، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب، وأعانني عليه تواصلُ السَّفَرِ..."[4].

امتاز منهجُ ابن حوقل عن غيره من علماء الجغرافية باعتماده على معرفته الشخصية، التي اكتسبها من رحلاته ولقاءاته بعلماء الفكر الجغرافي والرحّالة العرب، واستماعه لهم طالما كانوا ذوي علم ودراية بأخبار البلدان، وممَّن يُشهَد لهم بالصدق والبنان، واعتمد في كتابه أسلوبَ المشاهدة والدراسة الميدانية، مركزاً على الجوانب البشرية أكثر من تركيزه على الجوانب الجغرافية.. وباشتمال مؤلَّفه (صورة الأرض) على خريطة خاصة لكلِّ إقليم تحدَّث عنه، وجملة

(4) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص3.

تلك الخرائط تشكّل بحقٍّ أطلسَ للعالم الإسلامي، "إذ عمل على توحيد هذه الخرائط في أطلس موحّد يعدُّ من أول الأطالس العربية المُبكرة التي تصوِّر العالمَ المعروف حينذاك"[٥].

صورة جميع الأرض لابن حوقل

ووصف "اندريه ميكيل" ابنَ حوقل بأنّه "من أميز مؤلِّفي كتب المسالك والممالك، من حيث سعة الوثائق، وغزارة المعلومات الجغرافية، فضلاً عن تقديم معطيات جديدة لم يذكرها الجغرافيون السابقون"[٦]. وقدَّم للتراث الجغرافي دراسة علمية عن المسافات والبحار والأنهار والجبال وخواص البلدان التي زارها، ووصف عاداتها وتقاليدها. فكان نتاجه متكاملاً، وخاصة فيما يرتبط ببلاد الإسلام، من حيث طبيعة العرض والمحاصيل الزراعية والحياة الاجتماعية في الحضر والأرياف.. وامتاز كتابُه بما يحتويه من الأفكار الأصيلة التي لم يسبقه إليها أحدٌ.. إذ كان متمسِّكاً بالمنهج العلمي الذي يستند إلى المشاهدة والاستنباط العلمي، والاستقراء المنطقي.

ولمّا كان ابن حوقل نابغةً في علم الجغرافيا، طلبَ منه الإصطخريُّ[٧] تنقيح كتابه (المسالك والممالك).. إذ يزعم ابنُ حوقل أنه لقي الإصطخريَّ في بغداد، وأخذ منه كتابه لتصحيحه كما زعم، قال: "ولقيتُ أبا اسحاقَ الفارسيَّ، وقد صوَّر هذه الصورة لأرض الهند فخلطها، وصوَّر فارسَ فجوَّدَها، وقد كنتُ صوَّرتُ أذربيجانَ التي في هذه الصفحة فاستحسنها، والجزيرةَ

(5) في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي: شاكر خصباك، ص374.

(6) جغرافية دار الإسلام البشرية: أندريه ميكل، ج1، ص60.

(7) الإصطخري (000-346هـ=000-957م) هو إبراهيم بن محمد الفارسيّ، أبو إسحاق الإصطخري ويقال له الكرخي: جغرافي، رحّالة، من العلماء، من أهل إصطخر (بإيران)، قام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الأوقيانوس الأتلانتيكي، واستعان بكتاب (صور الأقاليم) لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان وافرة في عصره، فألّف كتابيه (صور الأقاليم) على اسم كتاب البلخي، و(مسالك الممالك)، ونقل ياقوت الحموي عنهما أو عن أحدهما في معجم البلدان، وأغفل ترجمته أو الإشارة إليه في كلامه على إصطخر، مكتفياً بتسميته في مقدّمة المعجم أبا إسحاق الإصطخري (عن الأعلام للزركلي، ج1 ص61). وورد في نسخة دار صادر من كتاب المسالك والممالك للإصطخري، أنه خلَّف كتابين هما «صور الأقاليم» و«المسالك والممالك». والظاهر أنه ألّف الأول ثم شرحه وفصّله وسمّاه بالمسالك والممالك. يظهر من كتب المسالك والممالك أن هذه السلسلة من الكتب الجغرافية بدأت بكتاب أبي زيد البلخي، واستمرّت بتأليف الإصطخري، وتمّت بكتاب ابن حوقل.

فاستجادها، وأخرج التي لمصر فاسدةً، وللمغرب أكثرها خطأً، وقال قد نظرتُ في مولدك وأثرك، وأنا أسألكَ إصلاحَ كتابي هذا حيث ضللتُ، فأصلحتُ منه غيرَ مُشكل وعزوته إليه"[٨]، والواضح من قول ابن حوقل أنّ للإصطخرى كتاباً وأنّه أصلحه كما زعمَ، وأنّ هذا الكتاب منسوب للإصطخري.

أمضى ابن حوقل في أسفاره نحو ٣٠ عاماً، طاف خلالها أنحاء مصر والشام والبحرين والأحساء وبلاد فارس وخراسان، وآسيا الوسطى والجنوبية، وبلاد السند والبلغار والأندلس وإفريقيا، وصقلية، إذ كان قد بدأ سفره من مدينة السلام يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة ٣٣١ هجرية، ٩٤٢ ميلادية برّاً، دون أن يركب البحر، إذ سلك الأرض طولاً وعرضاً، ووصف رجالات البلدان، وأعيانَ ملوكها من ذوي السلطان، وذكرِ محاسنهم وفضائلهم، وفصَّل بلاد الإسلام إقليماً إقليماً ... وبدأ بذكر ديار العرب فجعلها إقليماً واحداً .. فذكر المغرب، وأرض مصر والقيروان والمهديّة وطنجة، ثمّ صوَّر الشامَ وأجناده وجباله ومياهه من أنهاره وبحره، وما على ساحله من المدن[٩].

ثانياً- جغرافية الشام وحدودها:

مثلما تحدَّث الإصطخري في كتابه المسالك والممالك، تحت عنوان أرض الشام، عن حدودها وما يُحيط بها، نجد ابنَ حوقل قد قسَّم الأرض قسمين، وهما برٌّ جنوبيٌّ، وبَرٌّ شماليٌّ، ورسم في كل برّ أنهارَه وبلدانه والممالك التي على البحار.. وأشار إلى الشام التي تشمل كلاً من سورية ولبنان وفلسطين وشرقيَّ الأردن، وتحدَّث عن معالمها الطبيعية وصفاتها الطبوغرافية والمُناخية وموارد المياه وأهم المدن وزراعتها وصناعاتها، وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم وحكّامهم مع ذكر تاريخ كلِّ إقليم.. إذ يقول في هذا الموضع: "عن يَمين أرمينيّةَ نهرُ دجله ثمّ الفرات، وبينهما الجزيرة، وبين الفرات والبحر يقرأ الشام، ثمّ عند مصبِّ النَّهرين العراقُ، ومن فوق ذلك ديارُ العرب، ثمَّ يقرأ عن يسار العراق على البحر خوزستان ثمّ فارس..."[١٠].

ويَستنتج ابنُ حوقلٍ أنَّ الأرض مقسومةٌ على الممالك، إذ يقول: "عمادُ ممالك الأرض أربعٌ، فأعمرُها وأكثرُها خيراً وأحسنُها استقامةً في السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر، وقطبُها إقليم بابل، وهي مملكة فارس..."[١١]، ويُنوِّه إلى أنَّ الشام كانت تتبع مملكةَ الروم، وأخذتها مملكةُ فارس حين جاء الإسلام، ويقول: "كان حدُّ هذه المملكة (فارس) في أيّام العَجم معلوماً، فلمّا جاء الإسلام أخذت (الدولةُ الإسلامية) من كلِّ مملكة بنصيب، فأخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس، وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر، وانضمَّت إليها هذه الممالك العظيمة.."[١٢].

وحين يتحدَّث ابنُ حوقل عن مملكة الإسلام، ويذكر حدودها وامتداداتها، يذكر الثغورَ

(8) المسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، ص8.
(9) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص6.
(10) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص9.
(11) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص9.
(12) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص9

الشامية، إذ يقول: "أمّا بحرُ الروم فإنّه يأخذ من البحر المحيط في الخليج الذي بين المغرب والأندلس، حتّى ينتهي إلى الثغور التي كانت تُعرف بالشاميّة، ومقداره في المسافة نحو أربعة أشهر..."[١٣].

ويُقسِّم ابنُ حوقل ديارَ العرب إلى أقسام عدّة، ومنها أرض الشام، حيث يقول: "وديار العرب هي الحجاز التي تشتمل على مكّة والمدينة واليمامة ومَخاليفها، ونجد الحجاز متّصلاً بأرض البحرين، وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمانٍ ومهرة وبلاد صنعاء وعدن وسائر مَخاليف اليمن... وما كان من اليمامة إلى قرب المدينة راجعاً على بادية البصرة حتّى يمتدَّ على البحرين [إلى البحر] فمن نجد، وما كان من حدّ عبّادان[١٤] إلى الأنبار مواجهاً لنجد والحجاز على ديار أسد وطيِّئ وتميم وسائر قبائل مُضَرَ فمن بادية العراق، وما كان من حدّ الأنبار إلى بالس[١٥] مواجهاً لبادية الشام على أرض تيماء وبرّيّة خساف إلى قرب وادي القرى والحجر فمن بادية الجزيرة، وما كان من بالس إلى أيلة مواجهاً للحجاز على بحر فارس إلى ناحية مدين معارضاً لأرض تبوك حتّى يتّصل بديار طيِّئٍ فمن بادية الشام"[١٦].

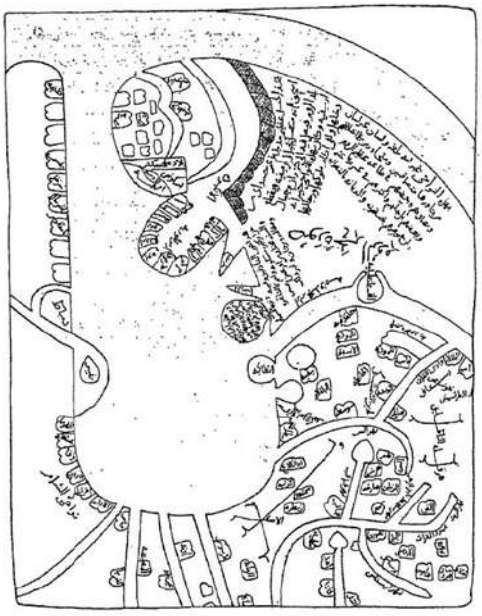

صورة بحر الروم التي في الصفحة ٥٢ ب من الأصل.

(13) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص11.

(14) يقول ابن حوقل في صورة الأرض (ص48) عن عبّادان إنها "حصن صغير عامر على شطّ البحر، ومجمع ماء دجلة، وهو رباط كان فيه المحاربون للصفريّة والقطريّة وغيرهم من متلصّصة البحر، وبها على دوام الأيّام مرابطون، قال كاتب هذه الأحرف اجتزت بعبّادان سنة 538 وهي جزيرة في وسط الدجلة وماء الفرات عند مصبّهما في البحر واختلاط ماء البحر بهما وفيها رباط يسكنه جماعة الصوفيّة والزهّاد وليس بينهم المرأة البتّة، وفي هذه الجزيرة مسجد من جانب الشرق، وفيه ودائع وأمانات غير مسلّمة إلى أحد من الناس، وقد قرّر الجماعة بتلك البقعة أنّ كلّ من أخذ من عبّادان شيئاً على سبيل الجناية والسرقة فإنّ السفينة تغرق لا محالة بزعمهم، حتّى إنّهم قد رسّخوا في قلوب الناس أنّ تراب عبّادان إن حمله أحد بغير أمر أولئك الجماعة فإنّ تلك السفينة التي فيها من ذلك التراب تغرق وليس كما زعموا".

(15) هي قلعة ومدينة أثرية تقع بين مسكنة والطبقة عند انعطاف نهر الفرات إلى الشرق. ذكرها أبو العلاء المعرّي في ديوانه اللزوميات بقوله:

أَرى كَفرَطابٍ أَعجَزَ الماءُ حَفرَها وَبالِسَ أَغناها الفُراتُ عَنِ الحَفرِ

(ديوان اللزوميات لأبي العلاء المعرّي ص405).

(16) صورة الأرض: ابن حوقل، (ج-1 ص ص19-21).

في (صورة الأرض) أيضاً خصَّص ابنُ حوقل فصلاً كاملاً عن الشام، بدأه بالقول: "أمّا الشام فإنّ غربيَّها بحر الروم[17] وشرقيَّها البادية من أيلة إلى الفرات، ثمّ من الفرات إلى حدِّ الروم، وشماليَّها بلاد الروم، وجنوبيَّها مصرٍ وتيه بنى إسرائيل[18]، وآخرُ حدودها ممّا يلى مصر رفح، وممّا يلى الروم الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة، وهي ملطيه والحدث ومرعش والهارونيّة والكنيسة وعين زربة والمصِّيصة وأذنه وطرسوس"[19].

ويُوضِّح ابنُ حوقل في كتابه عبر مصوَّر للشام مُعدِّداً أسماءَ المدن والقرى على حدودها، فيقول: "هذه الصورة التي في باطن هذه الصفحة صورة الشام، إيضاح ما يوجد في صورة الشام من الأسماء والنصوص، قد كتب في النصف الأيمن من الصورة موازياً لساحل بحر الروم الساحل، وعليه من المدن ابتداءً من الأعلى الفرما، ميماس، تبدا، عسقلان، الماحوز، يافا، قيساريه، عكا، إسكندرية، صور، عذنون، صرفنده، صيدا، الجيه، الناعمه، بيروت، جونيه، الماحوز، جبيل، بثرون، أنفه، القلمون، أطرابلس، أنطرطوس، مراقيه، بلنياس، جبلة، اللاذقية، فاسرة، السويديه، الصخره، الإسكندرونه، بياس"[20].

(17) بحر الروم: أي البحر الأبيض المتوسط.
(18) تيه بني إسرائيل: أي صحراء سيناء.
(19) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص165.
(20) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص165.

يتابع في شرح الحدود مشيراً إلى الشام في أكثر من موضع قائلاً: "في أسفل الصورة ينصبُّ في البحر ثلاثة أنهار عليها من المدن كفربيا، المصيصة، عين زربه، أذنه، طرسوس، ورسمت في البحر ثلاثَ مدن وهي الكنيسة، أرسوف، نسدين، وكتب في البرِّ عن يسار قيسارية وعكا وبينهما حيفا والقصور المضافة إلى حيفا، وتوازى الساحل سلسلة جبليّة، وكتب في أعلى الساحة التي بينها وبين البحر نواحي مصر ومغرب الشام وبلد فلسطين، وفي هذا القسم مدينتا الرملة وكفر سابا، ثمّ يليهما إلى الأسفل اتّصالاً للجبل بانياس، أقذار، عرقة، حصن برزوية، بغراس، الهارونية، الكنيسة، وبين حصن برزوية والصخرة نهر، وكتب في أسفل هذا القسم شمال الشام، وكتب في الجانب الأيسر من الجبل عند أعلاه جبل طور سينا، وعن يسار ذلك تيه بنى إسرائيل، وعن يسار ذلك مدينة القلزم وبحر القلزم، ومن أسفل ذلك جنوب الشام، وكتب من طرفي هذا القسم الأعلى من الجبل آخر مخطوط فلسطين، وفيه مدينتا بيت إبراهيم وبيت المقدس، ومن أسفلهما نابلس، ثمّ بحيرة طبرية ونهر الأردن الذي يُفضي إلى بحيرة زغر وعليها مدينة زغر، وكتب عند الجبل فيما يُسامتُ بانياس جبل لبنان، وتقابله في البرّ مدينة دمشق، وبين دمشق وزغر من المدن البلقا، رقم، روَاث، وكتب عند القسم الأوسط من الجبل جبل بهرا، وهنا مدينة حمص، وبين حمص ودمشق طريق عليه من المدن جوسية، اللبوة، بعلبك، الزبداني، ومن أسفل حمص مدينة فامية، ثمّ كتب عند القسم التالي من الجبل جبل السمّاق وقرب ذلك مدينة أنطاكيه، ويأخذ منها طريق إلى حلب ثمّ إلى بالس على نهر الفرات، وعلى الطريق من حلب إلى حمص من المدن قنسرين، كفرطاب، شيزر، حماه، وبين شيزر وأنطاكيه مدينتا معرة النعمان ومعرة مصرين، وكتب على خطّ مستطيل من بالس إلى القلزم حدّ الشام وعليه من المدن الرصافة، الخناصرة، تدمر، سلمية، معان، وتحت الخطّ هذه صورة الشام، وذلك عنوان الصورة، وعن يسار ذلك نواحي ديار العرب والبادية، وعلى نهر الفرات من جانبه الأيسر الرافقة، الرقة، الجسر، جربلص، وكتب وراء ذلك مشرق الشام، وبين حلب وجربلص مدينه منبج، ثمّ على ضفّة الفرات من هذا الجانب سميساط[٢١]، ملطيه، وعن يمينهما شمشاط، ويأخذ من شمشاط طريق إلى الجبل وعليه دلوك، رعبان، مرعش، بوقا وأسفل بوقا مدينة الحدث، واسم الجبل في هذا القسم جبل اللكام، ثمّ كتب في أسفل الصورة نواحي بلد الروم"[٢٢].

لقد أجمع الإصطخري في كتابه المسالك والممالك، وأبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمّد البكري الأندلسي في كتابه المسالك والممالك، وابن حوقل في (صورة الأرض)، على أنّ بعلبك هي من مدن الشام، فحين يُعدِّد البكريُّ كُوَرَ الشام ومدنها يقول: "إنّ لها كُوَراً جليلة منها: جردان، والسمة"، أما مدنها فهي: "بصرى وأذرعات والبلقاء وذمار وعمّان وجبال وشراط ومأرب وتنوفة والغور وبعلبكُ وبيروت، وهي قرية الأوزاعي، وأطرابلس ووجه الحجر وأجنادين

(21) شِمْشَاطُ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وشين مثل الأولى، وآخره طاء مهملة: مدينة بالروم على شاطئ الفرات، وينقل ياقوت الحموي في معجم البلدان (ج3) عن بطليموس قوله: مدينة شمشاط طولها إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة، كما ينقل عن صاحب الزيج قوله: طول شمشاط اثنتان وستون درجة وثلثان، وعرضها ثمان وثلاثون درجة ونصف وربع، وشمشاط الآن خراب ليس بها إلا أناس قليل، وهي غير سميساط، هذه بسينين مهملتين وتلك بمعجمتين، وكلتاهما على الفرات إلّا أنّ ذات الإهمال (سميساط) من أعمال الشام، وتلك في طرف أرمينية، قيل: سمّيت بشمشاط بن اليفز بن سام بن نوح، عليه السلام، لأنّه أول من أحدثها، وقد نُسب إليها قوم من أهل العلم، منهم: أبو الحسن عليّ بن محمد الشمشاطي، كان شاعراً وله تصانيف في الأدب.

(22) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص166-168.

واليرموك ومرج الصفر والجابية ومرج راهط"[٢٣].

ويُشيد ابنُ حوقل بأبنيتها العجيبة من الحجارة، ويتحدَّث عن هبّة أهل الشام لنجدتها وقت الاستنفار، فيقول: "من حدِّ دمشق بعلبك، وهي مدينة على جبل، وعامّة أبنيتها من حجارة، وبها قصور من حجارة قد بُنيت على أساطين شاهقة، وليس بأرض الشام أبنيةُ حجارة أعجب ولا أكبر منها، وهي مدينة كثيرة الخير والغلّات والفواكه الجيّدة بيّنة الخصب والرخص، وهي قريبة من مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم، وهي فرضتها وساحلها، وبها يُرابطُ أهل دمشق وسائر جندها، وينفرون إليهم عند استنفارهم، وليسوا كأهل دمشق في جساء الأخلاق وغلظ الطباع، وفيهم مَنْ إذا دُعي إلى الخير أجاب وأصغى، وإذا أيقظه الداعي أناب، ولنفس دمشق خاصّيّة بطالعها المُحيل بطاعتها إلى الخلاف"[٢٤].

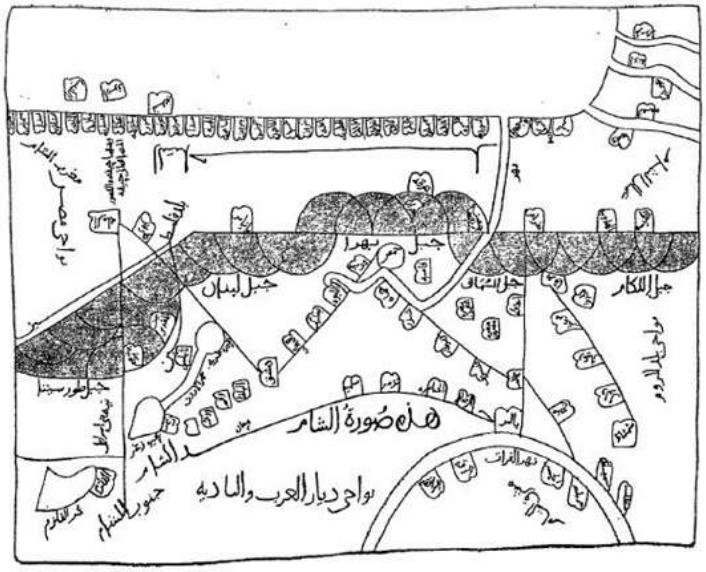

صورة الشام في ص٤٩ ب من الأصل، في صفحة ١٦٧ من الكتاب الذي بين أيدينا

ويقدّر ابن حوقل المسافات بين المدن بالمراحل، ذاكراً مدينة "أيلة" التي لها أربعة أبواب، من ضمنها باب دمشق، فيقول: "وأمّا طريق الرقّة إلى المدينة فنحو عشرين مرحلة على جبلي طيِّئ وكذلك من دمشق إلى المدينة ومثلها من فلسطين إلى المدينة، ومن مصر إلى المدينة على الساحل عشرون مرحلة ومجتمعهم مع أهل الشام بأيلة[٢٥]، وفي ضمن المصريّين يحجّ المغاربة، وربّما تفرَّدوا بأنفسهم، إلّا أنَّهم يتَّفقون في مناخ واحد، وربَّما تقدَّموا فيكون بينهم أن ينزل أحدهم ويرحل الآخرون، أو يتأخَّرون على هذا السبيل، وأيلة من ناحية الشام أوَّل حدود البادية..."[٢٦].

(23) المسالك والممالك: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمّد البكري الأندلسي، (ج1 ص464).
(24) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص175.
(25) ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (ج1، ص292) أن أَيْلَة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، واشتقاقها قد ذكر في اشتقاق إيلياء بعده، قال أبو زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمُسخوا قردة وخنازير، وبها في يد اليهود عهد لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال أبو المنذر: سُمِّيت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم، عليه السلام، وقال أبو عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم تعدُّ في بلاد الشام.
(26) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص40.

وفي باب خصَّصه للحديث عن الجزيرة، يصوِّر ابنُ حوقل الشام بأنها رأس طائر تُشكِّل البصرة ومصر جناحاه، واليمن ذيله، حيث يقول: "على شرقيِّ دجلة وغربيِّ الفرات مدنٌ وقرى تُنسب إلى الجزيرة، وهي خارجة عنها ونائية منها، وسأذكرها بما يدلُّ على حالها، قد اتّفق العلماء بمسالك الأرض وبعض الحُسّاب المشار إليهم بعلم الهيئة فيما تواضعوه من صفات الأرض أنّها مصوّرة بصورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان، والشام الرأس، والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الذنب، وهذه حكاية ما رأيتُها قطُّ مُقرَّرة"[٢٧].

ثالثاً – اليمن جزءٌ من أرض الشام، وأحد أركان الكعبة المشرّفة الركن الشامي:

يُشير ابنُ حوقل في كتابه (صورة الأرض) إلى أنّ هناك طوائفَ من العرب من ربيعة ومُضر سكنوا الجزيرة، دانت بالديانة المسيحية بأرض الشام، ولعلَّ في إشارته هذه دلالة على أنّ اليمن هي جزءٌ من أرض الشام، مثل: "غسان"، و"بهراء" و"تنوخ"، إذ يقول: "سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر الجزيرة حتّى صارت لهم بها ديار ومراع، ولم أرَ أحداً عزا الجزيرة إلى ديار العرب، لأنَّ نزولهم بها وهي ديار لفارس والروم في أضعافٍ قرى معمورة ومدن لها أعمال عريضة، فنزلوا على خفارة فارس والروم، حتَّى إنَّ بعضهم تنصَّر ودان بدين النصرانيّة مع الروم مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة وغسّان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام"[٢٨].

وحين يتحدَّث ابنُ حوقل عن مكّة المكرَّمة والأركان الأربعة للكعبة المشرَّفة[٢٩] يُشير إلى الركن الشامي، وهو الركن الغربيُّ، الذي يتَّجه باتجاه الشام، إذ يقول: "وأنا مُبتدئٌ من ديار العرب بذكر مكّة، ومكّةُ مدينة فيما بين شعاب الجبال، وطولُها من المعلاة إلى المَسفلة نحو ميلين، وهو من الحدِّ الجنوبي إلى الشمالي، ومن أسفل جياد إلى ظهر قعيقعان نحو الثلثين من هذا، وأبنيتُها من حجارة، والمسجد في نحو وسطها، والكعبة في وسط المسجد، وباب الكعبة مرتفع من الأرض نحو قامة تجاهَ المشرق، وهو مصراعان، وأرض البيت مرتفعة عن الأرض مع الباب، ويُحاذيه قبّةُ زمزم، ومقام إبراهيم صلّى اللّه عليه بقرب من زمزم بخطوات، وبين يدي الكعبة ممّا يلي المغرب حصار مبنيٌّ مدوَّر له بابان مع ركني البيت، إلّا أنّه لم يدخل فيه، ويُعرف بالحجر، والطواف يحيط به وبالبيت، وأحدُ الرُكنَين الذي يحادُ الحجر يُعرَف بالعراقيّ، والركن الآخر يُعرف بالشاميِّ، والركنان الآخران أحدُهما عند الباب والحجر الأسود مركَّب فيه على نحو قامة إنسان، والركن الآخر يُعرف باليمانيّ"[٣٠].

---

(27) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص209.

(28) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص19.

(29) هي زوايا الكعبة الأربع، وجاءت تسميتها باعتبار اتجاهاتها الأربعة تارةً، وخصوصية أخرى فيها تارة أخرى. الرُكن الشرقي: وهو الركن الذي يكون بجوار باب الكعبة ويُقابلُ بئر زمزم تقريباً، يُسمى بالركن الشرقي لكونه باتجاه المشرق تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالركن الأسود لأن الحجر الأسود مُثبَّتٌ فيه ومنه يبدأ الطواف حول الكعبة. الرُكن العراقي: وهو الركن الذي يلي الركن الشرقي حسب جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى بالركن الشمالي لمواجهته للشمال تقريباً، وهو الركن الذي يكون على الجانب الشرقي من حجر إسماعيل، ويُسمَّى أيضا بالركن العراقي لكونه باتجاه العراق. الرُكن الغربي: وهو الركن الذي يلي الركن الشمالي وفق جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى بالركن الغربي لمواجهته للمغرب تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالركن الشامي لكونه باتجاه الشام، وهو الرُكن الذي يكون على الجانب الغربي من حجر إسماعيل. الرُكن اليماني: وهو الركن الذي يلي الركن الغربي وفق جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى بالركن الجنوبي لمواجهته للجنوب تقريباً، ويُسمَّى أيضًا الركن اليماني لكونه باتجاه اليمن، ويُسمَّى أيضاً بالمُستجار. هو أحد أركان الكعبة المشرَّفة في اتجاه الجنوب، وهو الركن الموازي لركن الحجر الأسود.

(30) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص28.

رابعاً- حصون على طريق الشام، وقبائل في باديتها:

الحصن، هو بناء عسكري أو مبنًى مصمَّم للدفاع عن الأراضي في حالات الحروب، ويُستخدم أيضاً لترسيخ الحكم في منطقة خلال وقت السلم.. وتميَّزت كثير من بلاد العرب بحصونها في كثير من المواضع، سواءً على المرتفعات الجبلية، أو على السواحل البحرية، وها هو ابن حوقل يصف عدداً من تلك الحصون المنتشرة على طريق الشام، فيقول: "... وتبوك بين الحجر وبين أوّل الشام على أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام، وهي حصن، وله عين ماء، ونخيل وحائط يُنسب إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويقال إنَّ أصحاب الأيكة الذين بعث الله إليهم شعيباً كانوا بها، ولم يكن شعيب منهم، وإنّما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم[٣١] محاذية لتبوك على نحو ستِّ مراحل[٣٢]. كما يصف تيماء بأنّها حصن أعمر من تبوك، بينها وبين أوّل الشام مسير ثلاثة أيام، إذ يقول: "تيماء حصن، وهي في شمال تبوك، ولها نخيل، وهي ممتار البادية، وبينها وبين أوّل الشام ثلاثة أيّام"[٣٣].

وأنطرطوس حصن على البحر ثغر لأهل حمص، فيه مصحف عثمان بن عفّان وعليه سور من حجارة، وكان الروم يقصدونها في حروبهم، وقد نجا أهلُها غير مرّة من الروم لقلّة اكتراثهم بما في البلد ورزوح حال أهله، ولم يقف نقفور عليه لهذا السبب"[٣٤].

ويتحدَّث ابن حوقل أيضاً عن قبائل في بادية الشام، فيقول: "أمّا بادية الشام فإنّها ديار لفزارة[٣٥] ولخم[٣٦] وجُذام[٣٧] وبلِّي[٣٨] وقبائل مختلطة من اليمن وربيعة ومضر وأكثرها يمن"[٣٩].

خامساً- الحياة الاقتصادية في الشام:

لمّا كان ابن حوقل قد اطَّلع على كتب الخراج، ودرسها بتعمّق في مسيرة حياته العلمية والتجارية، فقد تناول ذلك في كتابه صورة الأرض، فقدَّم معلومات اقتصادية مهمّة ودقيقة عنها، ويعود ذلك إلى اتجاهه الاقتصادي كونه تاجراً رحّالة.. وإنّ اتِّساع رقعة الدولة الإسلامية تطلَّب معلومات جديدة عن تلك البلدان وشعوبها، فلا بدَّ للحكّام المسلمين أن يتعرَّفوا على طبيعة السكّان وعلى إنتاج البلاد الزراعي والصناعي وثرواتها، ليتمكَّنوا من تقدير خراجها،

---

(31) البحر الأحمر.

(32) كلمة مرحلة تعني لغويّاً: مرحلَ يمرحلُ مرحلةً، أتمَّه على فترات، والمرحلة في القاموس: المسافة التي يقطعها السائر في نحو يوم، أو ما بين المنزلية. يُقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان، والمرحلة المنزلة يُرتحل منها.

(33) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص32-34.

(34) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص177.

(35) ورد في موسوعة القبائل العربية - بحوث ميدانية وتاريخية: محمد سليمان الطيب، أنّ قبيلة فزارة تُنسب إلى مؤسسها فزارة "جد جاهلي": وهو فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (ج2، ص481).

(36) كانت لخم قد انتشرت قبل الإسلام بقرنين فوق الأراضي الواقعة شمالي شبه الجزيرة في الشام وفلسطين والعراق؛ ولذلك كانت قبائل منها تقيم، في الوقت الذي سار فيه عمرو إلى مصر، في جبل الحلال الواقع دون العريش من ناحية الشام، ولما مرّ عمرو بهذا الجبل في طريقه إلى مصر انضم إليه بعض هذه القبائل، وهكذا دخلت لخم مصر منذ أول لحظة مع جيش الفتح (وفق موسوعة القبائل، ج2، ص124).

(37) الراجح عند جمهرة العلماء أن جُذاماً من القحطانية ببلاد اليمن وهو: جُذام (عمرو) بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (وفق موسوعة القبائل، ج1، ص134).

(38) "بلِّي" نسب القبيلة، هو بلِّي بن عمرو بن الحافي بن قُضاعة، تنتشر عشائر بلي في الوقت الحاضر في شمال الحجاز (شمال غرب المملكة العربية السعودية)، ويقول المقريزي: كانت بلِّي في الشام فنادى رجل من بلِّي: يا آل قُضَاعة فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فكتب إلى عامله على الشام أن يُسيّر ثلث قُضَاعة إلى مصر، فتفرّقت بطون بلِّي في الديار المصرية، ثم صار لبلّي جسر سوهاج غرباً إلى قرب غرب قمولة، وصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب في صحراء أسوان (وفق موسوعة القبائل، ج1، ص318).

(39) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص35.

وكذلك التعرُّف على أسماء مدنها المهمّة والطرق المؤدِّية إليها. فالخراج[40] الذي عُرف منذ الأيام الأولى للإسلام، يعني الضريبة السنوية المفروضة على الأراضي التي تُزرع حبوباً ونخيلاً وفاكهة، يدفعها المزارع للمقطع صاحب الأرض الإقطاعية ليُؤدِّيَها بدوره إلى خزانة الدولة بعد استقطاع مختلف المصروفات.. ويقول: "كان خراج الشام علَى عهد بني مروان ألف ألف دينار وفوق ثمانمائة ألف دينار"[41].

ويذكر ابن حوقل حمولات الشام التي كانت تُنقل إلى الحجاز واليمن وسواحل بحر القلزم، حيث يقول: "أمّا القلزم فمدينة على شفير البحر ونحره ومنتهى هذا البحر إليها، وهي في عقم هذا البحر من آخر لسانه وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء، وماؤهم يُحمل إليهم من آبار بعيدة ومياه منها على نأي، وهي تامّة العمارة، بها فرضة مصر والشام، ومنها تُحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر، وبينها وبين مصر مرحلتان، ثمّ تنتهي إلى شطّ البحر، فلا تكون بها قرية ولا مدينة سوى مواضع بها ناس مقيمون على صيد من هذا البحر، وشيء من النخيل يسير، حتّى تنتهي إلى تاران وجبيلان[42] وما حاذى جبل الطور إلى أيلة"[43].

كما حظي الجانب البَشري باهتمام ابن حوقل، فهو يذكر الأنشطة التي يشتهر بها كلُّ إقليم زاره، ومن أهم الأنشطة البشرية التي ذكرها الزراعة، إذ يتحدَّث عن اتِّساع النشاط الزراعي في أكثر من مكان، ومن ضمن هذه الأمكنة الشام، حيث تحدَّث عن سهول مدينة دمشق وأنهارها وينابيعها وأهمِّيتها الرئيسة للإنسان في ممارسة أنشطته اليومية مثل الزراعة والرعي... ولعلَّ اهتمامه بالأنهار والأودية كان يصبُّ في خدمة تقديم وصف مفيد لاقتصاديات بلاد الإسلام، ومنها بلاد الشام، التي تعتمد في كثير من أماكنها على النشاط الزراعي المرتبط بتلك الأنهار والوديان، حيث يقول: " ... "أمّا جندُ دمشق فقصبتُها دمشقُ، وهي أجلّ مدينة بالشام في أرض مستوية قد دُحيت بين جبال تحتفُّ بها إلى مياه كثيرة وأشجار وزروع قد أحاطت بها متَّصلة، وتُعرف تلك البقعة بالغوطة، عرضها مرحلة في مرحلتين وليس بالشام مكان أنزه منها، ومخرج مائها من تحت بيعة تعرف بالفيجة (مع ما يأتي إليه من عين بردى من جبل سنير)، وهو أوّل ما يخرج مقدار ارتفاع ذراع في عرض باع ثمّ يجري في شِعب تتفجَّر فيه العيون؛ فيأخذ منه نهر عظيم أجراه يزيد بن معاوية، يغوص الرجل فيه عمقاً ثمّ ينبسط منه نهر المزة ونهر القناة، ويظهر عند الخروج من الشعب بموضع يُقال له النيرب، ويُقال إنّه المكان الذي عناه الله تعالى

(40) كتاب (الخراج) للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت: 182هـ-798-م) هو رسالة موجَّهة من أبي يوسف إلى هارون الرشيد، وفيه تبيانٌ لكيفية إدارة الدولة لمواردها المالية، من الضرائب والرسوم التي يحقُّ للدولة جبايتها، ويتطرَّق لأمور إدارية تتعلّق بكيفية تعيين عمّال الخراج وأصحاب البريد في مختلف الأقاليم، كما يتناول أموراً قانونية مثل كيفية إنزال العقوبات بالعمّال المرتشين.. للمزيد انظر: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت: 182هـ-798-م): كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان 1979م. وورد في لسان العرب لابن منظور (ج2، ص252) أن الخَراجُ، الإتاوَةُ، ويُجمع على أَخْراجٍ وأَخَارِيجَ وأُخْرجَةٍ.. وفي التنزيل: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ. قال: الزجّاج: الخَرَاجُ الفَيْءُ، والخَرْجُ الضَّريبَةُ والجزية. كما ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (ج-1ص40) أنّ الخراج والخرج بمعنى واحد، وهو أن يؤدّي العبد إليك خراجه أي غلّته. والرعية تؤدّي الخراج إلى الولاة.

(41) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص175.

(42) تَارَانُ: جزيرة في بحر القلزم بين القلزم وأيلة، يسكنها قوم من الأشقياء يقال لهم بنو جدّان، يستطعمون الخبز ممن يجتاز بهم، ومعاشهم السمك، وليس لهم زرع ولا ضرع ولا ماء عذب، وبيوتهم السفن المكسّرة، ويستعذبون الماء ممن يمرّ بهم في الديمة، وربما أقاموا السنين الكثيرة ولا يمر بهم إنسان، (وفق ياقوت الحموي-معجم البلدان، ج2، ص6)، فالمقصود بالجزيرتين: تيران وصنافير، حيث لم يرد ذكر اسم "صنافير" في كتب الجغرافيين اليونانيين، أما الجغرافيون العرب فقد لمحوا في كتبهم إلى "تيران وصنافير" تارة بالاسم الصريح، وأخرى بلفظ "جبيلان".

(43) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص47-48.

(بقوله): (وآوَيناهما إلى رَبوة ذات قَرار ومَعين)[٤٤] ثمّ ينقل من هذا الماء عمود النهر المسمّى بردى، وعليه قنطرة في وسطِ مدَينة دمشق لاً يَعبره الراكب غُزْرَ ماء وكثرةً، فيُفضى إلى قرى الغوطة، ويجري الماء في عامّة دورهم وسككهم وحمّاماتهم"[٤٥].

من خرائط العالم المبكّرة: خريطة ابن حوقل

اهتمَّ ابن حوقل بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في مواضع مختلفة، مشيراً إلى الزراعة والثروة الزراعية في المناطق المعتدلة مثل بلاد الشام، حيث قال: "وفي المناطق المعتدلة منها سفوح جبال بلاد الشام يذكر زراعة الكروم والتين والرمّان معتمدة على الأمطار والمياه السطحية مثل نهر العاصي، وبسبب ملائمة الظروف الطبيعية المتمثّلة باعتدال درجات الحرارة وخصوبة التربة"[٤٦].

وحين يتحدَّث ابن حوقل في باب الجزيرة عن نهر الخابور، يشير إلى غنى أرض عرابان على ضفافه بالأقطان وثياب القطن التي كانت تُصدَّر إلى الشام، فيقول: "ونهر الخابور المذكور عليه مدائن كثيرة قد شكَّلتُها ووصفتُها كمدينة عرابان، وهي مدينة لطيفة كثيرة الأقطان، وثياب القطن تحمل منها وتجهَّز إلى الشام وغيرها، وعليها سور صالح منيع، ومن ورائه منعة بمن فيه من الرجال"[٤٧].

وتطرَّق ابن حوقل إلى العديد من النشاطات الصناعية المهمّة، فذكر التوطُّن الصناعيَّ وبيَّن العلاقة بين نوع الصناعة والمواد الأولية، كذكره للصناعات القطنية والألبسة بطبرستان، ومن الصناعات التي أشار إليها صناعة الصابون بمدينة بالس، على نهر الفرات غرب العراق، والذي

(44) (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)، سورة المؤمنون، آية 50.
(45) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص174.
(46) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص173-174.
(47) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص222.

يُعمل منه الشيء الكثير، وصناعة المشروبات في مدينة منبج بالشام التي تشتهر بالزبيب[٤٨].

وبالنسبة للنشاط التجاري تحدَّث عن وجود تبادل تجاري على المستويين الداخلي والخارجي، فذكر على سبيل المثال العلاقات التجارية بين بلاد الهند والصين وكلٍ من العراق وبلاد فارس خاصة، وبين تلك الأقاليم والعالم الإسلامي عامّة، والراجح أنّ مردَّ هذه العلاقات ترجع إلى حالة السلم السائدة بين تلك الأقاليم والعالم الإسلامي آنذاك. وهنا ذكر ابن حوقل استخدام طرق النقل البحري، كما ذكر المواد التي تُنقل مثل القطن والملح والعقاقير الهندية...

وتناول ابنُ حوقل الوحدات العمرانية من خلال ذكره لمواد البناء التي استُعملت بغض النظر عن مصادرها، فقد تكرَّر ذكر مواد البناء في العديد من المواضع التي ذكرها في كتابه والتي جاءت في الغالب من البيئة المحلية، فقد ذكر أنواعاً عديدة من مواد البناء تتفاوت في درجة استعمالها من منطقة إلى أخرى مثل المواد التي استُعملت في مباني مدينة تكريت، وذكر الحجارة كمادّة للبناء، شائعة الاستعمال، ففي وصفه لمدينة حمص في بلاد الشام يقول: "وجميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلَّطة"[٤٩]... وهذا يدلُّ على توفُّر المادّة الخام في موضع المدينة، وبالتالي يساعد على توسُّع حجمها في المستقبل.

سادساً- ثغورُ الشام وكُوَرُها وأجنادُها:

اشتهر ابنُ حوقل برحلاته الواسعة في العالم الإسلامي، فطاف في مصر والشام والعراق والبحرين والأحساء وفارس وأذربيجان وأرمينيا، كما تجوَّل في جهات من آسيا حتى بلغ إقليم السند، ودخل البلغار ووصل إلى وسط نهر الفولكا، وتجوَّل في بلدان المغرب العربي والأندلس وغربي أفريقيا حتى مملكة غانا، وزار نابولي وصقلية، ويمكن تلخيص رحلاته في الشام بأن وجوده بإقليم الشام كان ما بين سنتي (٣٣٧-٣٤٩هـ)، فيقول: "والذي أدركتُ عليه عقود فلسطين والأردن أيام أبي المسك كافور رحمه الله والمتّلي لها من قبله في سني سبع وثمانٍ وتسع وثلاثين إلى سني ثمان وتسع وأربعين، وكذلك جند الشام"[٥٠].

ويشرح عن ثغور الشام فيقول: "قد جُمعت الثغور إلى الشام، وبعض الثغور كانت تُعرف بثغور الشام، وبعضها تُعرف بثغور الجزيرة، وكلُّها من الشام، وذلك أنَّ كلَّ ما كان وراء الفرات فمن الشام، وإنّما سُمِّي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة، لأنّ أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون لا أنّها من الجزيرة وأعمالها"[٥١].

وكذا الثغور الشاميّة، (وأمّا الثغور الشاميّة فمن الإسكندرونة إلى بياس مرحلة خفيفة، ومن بياس إلى المصّيصة مرحلتان، ومن المصّيصة إلى عين زربة مرحلة، ومن المصّيصة إلى أذنة مرحلة، ومن أذنة إلى طرسوس مرحلة، ومن طرسوس إلى أولاس على بحر الروم يومان، ومن طرسوس إلى الحوزات مرحلتان، ومن طرسوس إلى بياس على بحر الروم فرسخان، ومن بياس إلى الكنيسة والهارونيّة أقلُّ من يوم، ومن الهارونيّة إلى مرعش من ثغور الجزيرة مرحلة، فهذه جملة مسافات الثغور).

(48) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص180.
(49) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص176.
(50) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص172.
(51) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص168.

وقد انتهى القول فيما قصدتُ ذكرَه من الشام بعد ذكر المغرب ومصر والشام في أقاليم ممتدّة على بحر الروم، وقد استوفيتُ أيضاً ذكرَه، ولا وجه لذكر ارتفاع ما خرج عن أيدى أهل الشام، والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم (من) حدّ أطرابلس وأنفه إلى نواحي يافا وعسقلان (لأنّ اللاذقيّة وما نزل عنها وحاذاها تحت جزيتهم ومقاطعتهم)[٥٢]... (ورأيتُ ارتفاع الشام وما في ضمنها من الأعمال والأجناد والتي أقف عليه من جماعة عليّ بن عيسى ومحمّد بن سليمان لسنة (٢٩٦) ستّ وتسعين ومائتين وسنة ستّ وثلاثمائة من جميع وجوهها إلى حقوق بيت المال وما يلزم له من التوابع دون أرزاق العمّال تسعة وثلاثون ألف ألف درهم)[٥٣].

وحول كُوَر الشام، يُعدِّدها ابنُ حوقل كالآتي: "وكور الشام هي جند فلسطين وجند الأردنّ وجند دمشق وجند حمص وجند قنّسرين والعواصم والثغور، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بينهما، وجبل اللكام جبل داخل في بلد الروم ومتّصل بجميع جبال بلاد الروم، (ويقال إنّه ينتهى إلى حدّ مائتي فرسخ)، ويظهر في الإسلام ما ظهر منه بين مرعش والهارونيّة وعين زربة، فيُسمَّى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقيّة، ثمّ يُسمَّى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص، ثمّ يُسمَّى جبل لبنان، ثمّ يمتدّ على الشام حتّى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة ويتّصل بالمقطّم من أخرى".

ديار قوم لوط

(52) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص188.

(53) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص189، من هنا يتّضح أن ابن حوقل الذي لم تذكر المصادر تاريخاً لمولده، أن عمره يقدّر في تلك المرحلة بقرابة 20 عاماً، وربّما يكون مولده وفق ما ورد بحدود سبعينيات القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

وعن أجناد الشام[٥٤] يقول: "أمّا جند فلسطين وهو أوّل أجناد الشام ممّا يلى المغرب فإنّه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح إلى حدّ اللجون، وعرضه من يافا إلى ريحا مسيرة يومين، ونواحي زغر وديار قوم لوط[٥٥]، والشراة والجبال فمضمومة إلى هذا الجند، وهي منها في العمل إلى أيلة، وديار قوم لوط والبحيرة الميّتة وزغر إلى بيسان وطبريّة يُسمَّى الغور لأنّها بين جبلين، وسائر مياه بلاد الشام يقع إليها، وبعضها من الأردنّ وبعضها من فلسطين، ونفس فلسطين هو ما ذكرته، ومياه فلسطين من الأمطار والطلّ، وأشجارها وزرعها أعذاء بخوس لا سقيَ فيها إلّا نابلس فيها مياه جارية، وفلسطين أزكى بلدان الشام ريوعا، ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبر وهي مدينة مرتفعة على جبال يُصعد إليها من كلِّ مكان يقصدها القاصد من فلسطين"[٥٦].

أمّا المسافات بالشام فإنّ "طولها من حدٍّ ملطية إلى رفح، والطريق من ملطية على منبج وبينهما أربعة أيّام، ومن منبج إلى حلب يومان، ومن حلب إلى حمص خمسة أيّام، ومن حمص إلى دمشق خمسة أيّام، ومن دمشق إلى طبريّة أربعة أيّامٍ، ومن طبريّة إلى الرملة ثلاثة أيّام، ومن الرملة إلى رفح يومان، فالجميع خمسة وعشرون يوما"[٥٧].

ويضيف معلومات عن المسافات بين دمشقٍ وما يحيط بها من بلدات ومدن، فيقول: "من دمشق إلى بيروت على بحر الروم مسيرة يومين غربا، وإلى أقصى الغوطة من دمشق حتّى يتّصل بالبادية مشرقا يوم، ومن حمص إلى أنطرطوس التي على بحر الروم مسيرة يومين غربا، ومن حمص إلى سلميّة على البادية مشرقا يوم، ومن طبريّة إلى صور التي على البحر غربا مرحلة، ومنها إلى أن يجاوز فيق على ديار بني فزارة مشرقا دون المرحلة، وهذه مسافات طول الشام وعرضه"[٥٨].

أمّا الأردنّ وهي أصغر أجناد الشام وأقصرها مسافة، فيذكر ابنُ حوقل أنها: "لم تزل في يد أبي منصور أحمد بن العبّاس محلولة ومعقودة سنين كثيرة بمائتي ألف دينار، وأمّا جند دمشق فدمشق قصبتها ومنها إلى بعلبك يومان، ومنها إلى بيروت (يومان، ومن بيروت) إلى أطرابلس يومان، ومن بيروت إلى صيداء يومان، ومن دمشق إلى أذرعات أربعة أيّام، وإلى أقصى الغوطة يوم وإلى حوران» والبثنية يومان"[٥٩].

(54) أجناد الشام: جمع جند، وهي خمسة: جند فلسطين، وجند الأردنّ، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنّسرين، وكلها بالشام، يقول أحمد بن يحيى بن جابر: اختلفوا في الأجناد، فقيل سمّى المسلمون فلسطين جنداً، لأنه جمع كورًا، والتجنّد: التجمّع، وجنّدت جنداً أي جمعت جمعاً، وكذلك بقية الأجناد. وقيل: سمّيت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه... وذكروا أن الجزيرة كانت مع قنّسرين جنداً واحداً، فأفردها عبد الملك بن مروان وجعلها جنداً برأسه، ولم تزل قنّسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان ليزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً برأسه، فلما استخلف الرشيد، أفرد قنسرين بكورها، فجعلها جنداً، وأفرد العواصم، كما نذكره في العواصم (معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج1، ص38 و103)، وفي لسان العرب لابن منظور: "الجَنَد: الأَرض الْغَلِيظَةُ، وَقِيلَ: هِيَ حِجَارَةٌ تُشْبِهُ الطِّينَ. والجَنَد: مَوْضِعٌ بِالْيَمَنِ، وَهِيَ أَجود كُوَرِهَا، وَفِي الصِّحَاحِ: وجَنَد، بِالتَّحْرِيكِ، بَلَدٌ بِالْيَمَنِ. وَفِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ الجَنَد، بِفَتْحِ الجيم والنون، أَحد مَخاليف الْيَمَنِ؛ وَقِيلَ: هِيَ مَدِينَةٌ مَعْرُوفَةٌ بِهَا. وجُنَيْد وجَنَّاد وجُنادة: أَسماء. وجُنادة أَيضاً: حَيٌّ. وجُنْدَيْسابُورُ: مَوْضِعٌ، وَلَفْظُهُ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ سَوَاءٌ لِعُجْمَتِهِ. وأَجنادانُ وأَجنادَيْنُ: مَوْضِعٌ، النونُ مُعَرَّبَةٌ بِالرَّفْعِ؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وأُرى الْبِنَاءَ قَدْ حُكِيَ فِيهَا. وَيَوْمُ أَجنادَيْنِ: يَوْمٌ مَعْرُوفٌ كَانَ بِالشَّامِ أَيام عُمَرَ، وَهُوَ مَوْضِعٌ مَشْهُورٌ مِنْ نَوَاحِي دِمَشْقَ، وَكَانَتِ الْوَقْعَةُ الْعَظِيمَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومِ فِيهِ" (ج3، ص ص 132-133).

(55) ديار قوم لوط هي "سدوم"، سكنها قوم لوط قبل أكثر من 3500 سنة، وقد عثرت بعثة آثار أمريكية استمرّت بالتنقيب مدّة 10 سنوات في منطقة "تل الحمام" في الأردن، على خرائب "سدوم".

(56) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص170-171.

(57) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص185.

(58) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص186.

(59) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص187.

سابعاً- غوطة دمشق ونهر بردى والأموي:

مثلما وصف الإصطخري جلال مدينة دمشق وغوطتها ونبع الفيجة، ونهر بردى في كتابه المسالك والممالك، نجد أنّ الجانب الطبيعي حظي باهتمام ابنِ حوقل بطبيعةِ الحال، فهو يشير إلى جوانب عدّة تتعلّق بهذا المجال، إذ يتحدّث عن الأنهار في كل إقليم، مشيراً إلى الأنهار الرئيسة والفرعية من منابعها والمناطق التي تمرُّ فيها وحتى مصبّها في البحار، كما يذكر الظواهر الطبيعية التي تحدث فيها وما يجاورها من المدن والمظاهر الجغرافية المتنوّعة، فيذكر طبيعة السطح والبحيرات وغير ذلك، كما يُوضِّح الظروفَ المُناخيةِ وأثرها على الإنسان في مزاولة نشاطه، فضلاً عن تطرُّقه إلى أهم الثروات الطبيعية في كل إقليم كالمعادن...

ففي آخر صور كتابه (صورة الأرض)، بعنوان (ما وراء النهر)[٦٠] يشير ابنُ حوقل إلى دمشق وغوطتها، فيقول: "لم أرَ ولم أسمع في الإسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بخارى، لأنّك إذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلّا على خضرة تتّصل خضرتها بلون السماء، وكأنّ السماء مكبّة زرقاء على بساط أخضر، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس التيبتيّة والحجف اللمطيّة أو كالكواكب العلويّة بياضاً ونوراً بين أراضي ضياع مقوّمة بالاستواء مهندمة كوجه المرآة بغاية الهندسة، وليس بما وراء النهر من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم مع كثرة متنزَّهات في سعة المسافة وفسحة المساحة من أرضهم، وذلك لهم دون غيرهم، لأنّ المشار إليه من متنزَّهات الأرض سغد سمرقند ونهر الأبلّة وغوطة دمشق،

(60) بلاد ما وراء النهر، هي منطقة تاريخية وجزء من آسيا الوسطى، تشمل أراضيها أوزبكستان والجزء الجنوبي الغربي من كازاخستان والجزء الجنوبي من قرغيزستان. أطلق العرب المسلمون على تلك المنطقة اسمَ «بلاد ما وراء النهر» عندما فتحوا تلك المنطقة في القرن الهجري الأول، إشارة إلى النهرين العظيمين الذين يحدّانها شرقاً وغرباً: نهر سيحون (2212 كم) ونهر جيحون (1415 كم)؛ وهي ترجمة للتسمية الفارسية القديمة «فرارود». أهم مدنها: سمرقند، بخارى، فرغانة، طشقند، خوارزم، مرو، ترمذ... وهي أسماء تدلُّ على أعلام لهم مكانتهم في التاريخ، مثل: الخوارزمي، والفارابي، والبخاري، والترمذي، وابن سينا، والجرجاني، والسجستاني، والبيروني. يُشكِّل الأوزبك الكازاخ والروس الأغلبية العرقية في تلك المناطق.

على أنّ سابور وجور فارِس لا تقصرانِ عن غوطة دمشق، لأنّك إذا كنت بدمشق ترى بعينيك على فرسخ وأقلّ جبالاً فرّاغاً قرعاً من النبات والشجر وأمكنة خالية من العمارة، وأكمل النزهة ما ملأ البصر وسدَّ الأفقَ وتَناهى في الطيب"[٦١]...

ويُضيف أن دمشق هي من أنزَه الأماكن، فيقول: "أمّا سغد سمرقند فهي أنزَهُ الثلاثة الأماكن التي ذُكرت، وهي غوطةِ دمشق ونَهر الأبلّة، وقد قال أهل فارس شعب بوّان، لأنَّ من حدِّ بخارى على وادي السغد يميناً وشمالاً ضياعاً تتَّصل إلى حدِّ البتم، لا تنقطع خضرتها ولا تتصرَّم زهرتها، ومقدارها في المسافة ثمانية أيّام مشتبكة البساتين والخضرة والرياض والميادين، قد حفَّت بالأنهار الدائم جريُها"[٦٢].

(61) صورة الأرض: ابن حوقل، ج2، ص472.
(62) صورة الأرض: ابن حوقل، ج2، ص743.

أمّا المسجد الأموي بدمشق، والذي وصفه الإصطخري في كتابه المسالك والممالك، متحدّثاً عن تاريخه وأصله وبُناته، وعن باب جيرون ومقتل النبي يحيى عليه السلام ونصب رأسه عليه، كذلك وصفه أبو عبيد البكري الأندلسي في كتابه المسالك والممالك بالمسجد الجليل، وأن فيه غرائب من الأعمال يطول وصفها، ويُكرِّر ابنُ حوقل المعلومات نفسها حين يتحدَّث عن الجامع الأموي واصفاً المسجد الأموي، إذ يقول: " .. وبها مسجد ليس في الإسلام أحسنُ منه، ولا أتقن بقعةً، فأمّا الجدار والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن أبنية الصابئين، وكان مُصَلّاهم، ثمّ صار في أيدى اليونانيِّين وكانوا يعظّمون فيه دينَهم، ثمّ صار لليهود وملوك من عبدة الأصنام والأوثان، وقُتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريّاء عليهما السلام، فنُصب رأسُه على بابٍ هذا المسجد المسمّى باب جيرون، ثمّ تغلّبت عليه النصارى، فصارت في أيديهم بيعة لهم يُعظّمون فيها دينَهم، حتّى جاء الإسلام فصار المكان للمسلمين واتَّخذوه مسجداً، وعلى باب جيرون نُصب رأس الحسين بن عليّ بالموضع الذي نُصب فيه رأس يحيى بن زكريّاء عليهم أجمعين السلام، فلمّا كان في أيّام الوليد بن عبدِ الملك عمَرَه، فجعل أرضه رخاماً مفروشاً، وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزَّعاً وأساطينه رخاماً موشّى، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً، ومحرابه مذهّب الجملة مرصّعاً بالجواهر، ودور السقف كلّه ذهب مُكتّبٌ كما يطوّق ترابيع جدار المسجد، ويُقال إنّه أنفق فيه وحده خراج الشام سنين، وسطحُه رصاص، فإذا أرادوا غسله بثقوا الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه حتّى إذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الأركان بالسويّة"[٦٣].

ثامناً- معان.. سكانها بنو أمية، ودار ضيافة لزبيدة:

بينما نوّه الإصطخري في كتابه (المسالك والممالك) إلى سكّان مدينة معان الأردنية من بني أمية، فيقول: "معان مدينة صغيرة سكّانها بنو أميّة ومواليهم، وهو حصن من الشّراة"[٦٤]... ويشير أيضاً إلى دار ضيافة وحيدة في الشام كانت لزبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد التي رحلت سنة ٢١٦ للهجرة، ٨٣١ للميلاد، فيقول: "هناك بصرى وعند البلقاء عمّان الّتي جاء في الخبر في ذكر الحوض أنّه ما بين عمّان وبصرى وبغراس على طريق الثغور، وبها دار ضيافة لزبيدة، وليس بالشام دار ضيافة غيرها"[٦٥]... ها هو ابنُ حوقل ينقل في كتابه (صورة الأرض) المعلومات نفسها فيقول عن معان بأنها: "مدينة صغيرة على شفير البادية أيضاً سكّانها بنو أميّة وفيهم لبني السبيل مرفق ومغوثة، وحوران والبثنية رستاقان عظيمان من جند دمشق، مزارعها مباخس، ويتّصل أعمالهما بحدود نهر بين الذي عند البلقاء وعمان، الذي جاء في الخبر أنّه نهر من ركيّ الحوض، وأنّه ما بين بصرى وعمان"[٦٦].

أمّا عن دار زبيدة فيقول ابن حوقل: "بغراس حصن كان فيه منبر على طريق الثغور، وكانت فيه دار ضيافة لزبيدة، ولم يكن للمسلمين بالشام دار ضيافة غيرها"[٦٧].

(63) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص ص174-175.
(64) المسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: (ص65).
(65) المسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري: (ص65).
(66) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص185.
(67) صورة الأرض: ابن حوقل، ج1، ص184.

مصادر البحث ومراجعه

_ جغرافية دار الإسلام البشرية: أندريه ميكل، ج١ ، ترجمة: إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥ ، ص٦٠ .

_ صورة الأرض: أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، طُبع في مدينة ليدن – مطبعة بريل، طبعة ثانية، ج١ سنة ١٩٢٨ ، ج٢ سنة ١٩٣٩ ، عدد الأجزاء: ٢ .

_ ديوان لزوم ما لا يلزم: أبو العلاء المعرّي، حقّقه وعلّق على حواشيه وقدّمَ له الدكتور عمر الطبّاع، مجلد أول، دار الأرقم – بيروت ٢٠٠٠م.

_ في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي: شاكر خصباك، ط١ ، دار الحداثة، ١٩٨٨م، بيروت، لبنان، ص٣٧٤ .

_ كتاب الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمّد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفّى: ١٣٩٦هـ)، ج٦ ، دار العلم للملايين، طبعة ١٥ ، سنة ٢٠٠٢م.

_ كتاب الخراج: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت: ١٨٢هـ-٧٩٨م)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان ١٩٧٩م.

_ لسان العرب: محمّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفّى: ٧١١هـ)، ج٢ - ج٣، دار صادر – بيروت، ط٣ عام ١٤١٤ هـ.

_ المسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، المعروف بالكَرَخي (المتوفى: ٣٤٦ هـ)، دار صادر، بيروت ٢٠٠٤ م.

_ المسالك والممالك: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمّد البكري الأندلسي، ج ١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٢م.

_ معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، ج١ ، ج٣، دار صادر، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٥م. عدد الأجزاء:٧.

_ موسوعة القبائل العربية - بحوث ميدانية وتاريخية: محمد سليمان الطيب، دار الفكر العربي، ج١ ، ج٢، طبعة ثالثة، ١٤٢١هـ- ١٤٣١هـ (٢٠٠٠-٢٠١٠م)، عدد الأجزاء: ١٢ .

معهد
رواقد العلا

ابن القَلانِسي
عميد دمشق ومُعلِّم المؤرِّخين

د. ناديا محمد زهير الغزولي(١)

(1) دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام من طرابلس لبنان جامعة الجنان، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربوية في وزارة التربية السورية.

ملخّص البحث

يُعَدُّ كتاب «تاريخ دمشق» لابن القَلانسيّ من أهم المصادر التي احتفظت بكثير من الأحداث التي رافقت الحملات الصليبية على بلاد الشام، ويكتسب أهميته من أن المؤلِّف كان شاهداً على كثير من تلك الأحداث، وكان على احتكاك مباشر بالوثائق والمستندات، المتعلقة بتلك الحقبة، نتيجة عمله في ديوان الرسائل وديوان الخراج، فكان جديراً بتأمُّل الحقيقة في ذاتها ومناقشتها وإعطائها عللاً وأسباباً، فحاز بذلك أهميّة كبيرة بين المؤرخين، ليس على الصعيد العربي فقط بل والعالمي أيضاً، وقد ركّز هذا البحث على التعريف بهذا المؤرخ، وأسلوبه في تدوين الأحداث التاريخيّة، وأهم المزايا التي يتّصف بها كتابه عن تاريخ دمشق.

ـ المقدمة:

تأثّر علم التاريخ عند العرب، في بداياته، بعلم الحديث، فاعتمد طريقتَه في التدوين من حيث الإسناد، يُضاف إلى ذلك أن معظم المؤرخين كانوا من أهل الحديث، وفي مرحلة لاحقة لم تعد تكفي الرواية المسندة في نقل الحقيقة التاريخية، فاتّجه المؤرِّخون إلى البحث عن الخبر في حدِّ ذاته، ومناقشته ونقده، وتحديد أسبابه وآثاره، وكل ذلك أسهم في إبراز شخصية المؤرخ وذاتيته[٢].

وهذا التحول في طريقة التدوين التاريخي يظهر جليّاً في كتاب عميد مدينة دمشق وشيخ مؤرخيها ابن القَلانسيّ، الذي خصَّص كتابه تاريخ دمشق للمرحلة التي عاصرها، متبعاً أسلوب النقد والاقتصار على جزء معين من الأحداث دون الخوض في التفاصيل، فكان أسلوبه مرسلاً أمدَّنا بمعلومات صادقة وقيمة في آنٍ واحد.

المحور الأوّل ـ عصر ابن القَلانسيّ:

عاش ابن القَلانسيّ في مدينة دَمشق بين عامي (٤٦٤-٥٥٥هـ/١٠٧٢-١١٦٠م)[٣]، أي في النصف الثاني من القَرن الخامس الهجري، والنصف الأوّل من القرن السادس الهجري، وهي المرحلة التاريخيّة التي عانت فيها مدينة دمشق من أوضاع سياسية مضطربة، بدأت بالصراع القرمطي الفاطمي، ثم بشن القوى الأوروبيّة بدعم من البابوية سلسلة معقدة وطويلة من الحملات العسكرية على بلاد الشام، عُرفت باسم الحروب الصليبية.

أولاً ـ الجانب السياسيّ:

ترافقت طفولة ابن القَلانسيّ مع الأوضاع السياسية غير المستقرة للمنطقة العربية، التي كانت مسرحاً لصراعات هادئة وحَادة في الوقت نفسه، حيث كانت الدولة العباسية تعاني من الضعف، وتقتصر سلطتها على بغداد وما حولها، في حين كانت تُسيطر على باقي أجزائها دويلاتٌ مستقلة، أبرزها الدولة الفاطمية في مصر، والدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، وكان لذلك الوضع أثره المباشر في ضعف بلاد الشام، أثناء الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، التي تمكّنت من تأسيس مملكة بيت المقدس وثلاث إمارات أخرى هي: الرها وأنطاكية وطرابلس، مع القيام بمحاولات عدة للتوسع على حساب المدن الداخلية كحلب ودمشق.

ثم كانت الحملة الصليبية الثانية بتاريخ ٥٤٢هـ/١١٤٩م.

(2) معجم المؤرخين المسلمين: عبد الله (يسرى)، ص1213.
(3) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص276.

لكن ظهور المشروع العربي الوحدوي، بقيادة عماد الدين زنكي، ومن بعده نور الدين محمود زنكي، حال دون سيطرة الصليبيين على دمشق في الحملة الثانية، وهذه الأحداث وتشابكاتها دفعت مؤرِّخَنا ابنَ القَلانسيّ إلى تخصيص كتابه عن تاريخ مدينته دمشق، مستفيداً من قُربه من مصدر الأحداث، باعَتباره كاتبًا في ديواني الرسائل والخراج، اللذين أمداه بما يحتاجه من وثائق.

ثانياً _ الكتابة التاريخيّة في بلاد الشام:

على الرغم من اضطراب الأحوال السياسيّة في عصر ابن القَلانسيّ إلا أن هذا العصر كان زاهياً بالعلم والثقافة، فبلغت مدن كدمشق وبغداد والقاهرة وحلبَ وغيرها درجاتٍ رفيعة من العلم في القرنين الخامس والسادس الهجريين[٤]، أما علم التاريخ فقد أصبح علماً مستقلاً منذ القرن الثالث الهجري، مع ظهور اتجاهات عدة لكتابة التاريخ، ولكن بسبب وحدة الحضارة واتفاق الأسس الفكريّة والاهتمامات العلميّة، فلا نكاد نعثر على فروق تذكر بين مؤرخي الشام وغيرهم من مؤرخي البلاد الإسلاميّة الأخرى[٥]، حيث كانت الأفكار والطرائق والمناهج متشابهة إلى حدٍّ بعيد بين المؤلفين عامة في جميع أقاليم الدولة العربيّة الإسلامية، وفي مختلف العلوم، وإنّما كان يتميَّز بعضُ علماء هذه الأقاليم عن بعضهم في تأكيدهم على نوع أو آخر من الإنتاج الفكريّ[٦]، فصميم العملية التأريخية ظلّ واحداً في الشام أو العراق أو مصرٍ أو خراسان أو حتى الأندلس، ولكن الفروق تنصبُّ على المسيرة العامة للعمل التاريخيّ لكلّ مدرسة، من حيث السعة والعمق والفروع.

ولم يُلغ انتقال مركز الدولة إلى بغداد مدرسةَ الشام التاريخيّة ذات الأصول الأموية[٧]، ومع ذلك فهيَ لم تكن مدرسة إلا بالمعنى الجغرافي للكلمة، مع وجود بعض الملامح الخاصة في إنتاجها التاريخي، وكان لها دور كبير في خدمة الحياة العلمية والثقافية، بفَضل ما تركه مُؤرخوها من تصانيف ثمينة مسَّت مختلف مجالات الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها[٨]، ولمدينة دمشق فيها النصيب الأوفى، فمعظم المؤرخين من المحدثين والفقهاء نعد منهم الخمسة والثمانين، لكن نصفهم من الموظفين (الكتاب والقضاة خاصة)[٩]، وهي صفات تنطبق على العميد ابن القَلانسيّ، حيث وصلت الكتابة التاريخية في عصره إلى درجة كبيرة من النضج والتقدم، والدليل كتَابه تاريخ دمشق الذي ما زال له شأن في تاريخ المعرفة في تلك المدينة العريقة، فترك للأجيال من بعده ثروة تاريخيّة مهمة ونفيسة عن مرحلة من مراحل تاريخ مدينتهم.

(4) عصر الانحلال تاريخ الأمة العربية: طلس (محمد أسعد)، ص171.
(5) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص218.
(6) مدرسة بلاد الشام التاريخية ودورها في التدوين: العبدلي (خالد)، مقال/الملخص.
(7) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص217.
(8) المدارس التاريخية الصغرى (الشام، اليمن، فارس): بورويس (وليد)، مقال/الملخص.
(9) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص219

المحور الثاني ـ سيرة ابن القَلانسيّ:

أولاً ـ نسبه ومولده:

ابن القَلانسيّ هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي أبو يَعْلى الصاحب[10] العميد الدمشقي كاتب وحاكم مدينة دمشق، يُنسب إلى أسرة دمشقية[11] من قبيلة تميم العربية الأصلية، عُرفت الأسرة بهذا الاسم نسبةً إلى يافع القَلانسيّ أو القلنسوة، ويبدو أنها حرفة عمل بها أحدُ آباء ابن القَلانسيّ أو كان تاجراً يبيعها.

كانت هذه الأسرة غنيّة ولها مكانتها وأملاكها من عقارات وأموال وضياع، وكانت واضحة الوجود في مدينة دمشق منذ القرن الرابع الهجري، وقد استمرَّ ذكرُها في تراجم الأعيان حتى القرن التاسع الهجري/السابع عشر الميلادي قريباً، وكان بعض رجال هذه الأسرة يشغل عدة وظائف، منها رئاسة مدينة دمشق[12]، وكذلك الكتابة في ديوان الرسائل، اشتهر منهم أخو ابن القَلانسيّ الذي عُرف بالأمين أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي ابن محمد التميمي (ت ٥٣٩هـ)[13]، والرئيس رضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي ابن أخي القَلانسيّ[14]، أما حمزة بن أسعد التميمي الدمشقي فكان من أحفاده[15].

ثانياً ـ شيوخه وتلاميذه:

نشأ ابن القَلانسيّ على ثقافة دينية وأدبية، فنال من العلم ما توافر لأبناء البيوتات العريقة من الدراسةَ كالأدب والفقه وأصول الدين، وسمع شيئاً من الحديث، كما شدا بعضاً من الأدب[16]، لم يذكر ابن القَلانسيّ في كتابه شيئاً عن شيوخه أو معلميه أو مَن تأثَّر بهم[17]، لكن المؤرخ ابن عساكر ذكر في كتابه أن ابن القَلانسيّ روى عن سهل بن بشر الإسفراييني (الإسفرائيني)[18]، وحامد بن يوسف[19]، وأن من حدَّث عن ابن القَلانسيّ هو أبو القاسم بن صصرى، ومكرم بن أبي الصقر[20].

ثالثاً ـ أعماله ووظائفه:

كان ابن القَلانسيّ ذا عقل راجح ومعارف واسعة عميقة فاضلاً أديباً مترسلاً[21]، له عناية بالحديث، وله خطٌّ حسن ونثرٌ، وله إنشاء جيد وشعر[22]، تدل كتابته في التاريخ وعمله في ديوان

(10) سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، ج20/ص388.
(11) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص276.
(12) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص236237.
(13) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص435.
(14) المصدر نفسه، ص501.
(15) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص277. خطط دمشق: العلبي (أكرم حسن)، ص84. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي الدمشقي (عبد القادر)، ص48.
(16) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص236237.
(17) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.
(18) سهل بن بشر الإسفراييني: هو الشيخ الإمام المحدث المتقن الرحال أبو الفرج، توفي في دمشق سنة 491هـ. الكامل في التاريخ: ابن الأثير (عز الدين علي)، ج10/ص280. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي)، ج4/ص174.
(19) حامد بن يوسف: هو أبو أحمد التفليسي. معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، ج2/ص37.
(20) التاريخ الكبير: ابن عساكر (علي بن الحسين)، ج4/ص439. سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، ج20/ص389.
(21) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردى (جمال الدين)، ج5/ص332.
(22) الأعلام: الزركلي (خير الدين)، ج2/ص276.

الإنشاء على علو ثقافته وتمكُّنه من ناصية اللغة، فقد ضمَّن كتابه تاريخ دمشق عدة قصائد من نظمه منها:

يا نفسُ لا تَجْزَعي من شدةٍ عَظُمَتْ وأيقني من إله الخَلْقِ بالفَرَجِ

كم شدةٍ عَرَضَتْ ثم انجَلَتْ ومَضَتْ من بعد تأثيرها في المال والمُهَجِ

تقلد عملين علميين؛ كتابة الإنشاء (ديوان الرسائل)، وكتابة الحساب (ديوان الخراج)[٢٣]، وتقلُّده لهذا العمل دفعَه إلى دراسة الحساب، ولأن تقاليد العمل الحكومي في بلاط دمشق تقتضي العلم بالفارسية فقد تعلم شيئاً منها[٢٤]، ولا ندري كم استمرَّ في هذه الأعمال، لكن من المؤكد أنه قد تسلم هذا العمل مرتين، وكان أبرز الكتاب في الدولة الأتابكية، وأن المرحلة التي دوَّنَ فيها كتابه كانت متوافقة مع وجوده في العمل الحكومي التي حدَّدها بشكل تقريبي الدكتور شاكر مصطفى بنحو ٤٩٠هـ، مستمرة حتى وفاة ابن القَلانِسيّ في ٥٥٥هـ[٢٥].

رابعاً ـ وفاة ابن القَلانسيّ:

مات عميد دمشق أبو يعلي في (٧ ربيع الأوّل سنة ٥٥٥هـ[٢٦]/١٨ آذار ١١٦٠م[٢٧]) وقد تجاوز عمره الثمانين، ودُفن في سفح جبل قاسيون في صالحية[٢٨] دمشق، وقد أنشئت دار الحديث القَلانسيّة على تربته، أنشأها في عام ٧٢٠هـ حفيدُه حمزة بن مؤيد الدين المعروف بالصاحب عز الدين أبو ليلى ابن القَلانسيّ (٦٤٩-٧٢٩هـ)، رئيس الشام في عصرهِ، إذ تولى وكالة السلطان والوزارة بدمشق[٢٩].

عُرفت المدرسة باسم الخانقاه القَلانسيّة، وبرباط دار الحديث القَلانسيّة، وبرَباط القَلانسيّ، وبالمدرسة الأخيميَة القَلانسيّة، وصفَ ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) موقعَها في

يبدو في الصورة قبة جامع محيي الدين بن عربي ومئذنته، تصوير الباحثة في ٢٣/١١/٢٠٢٣م.

(23) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.

(24) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص531. التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص236237.

(25) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص238.

(26) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين)، ج5/ص332.

(27)H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, p8.

(28) حي الصالحية: من أحياء مدينة دمشق الشمالية، يقع خارج سور مدينة دمشق القديمة، على أطراف نهر «يزيد» بين منطقتي «المهاجرين» و«ركن الدين"، كان يُسمَّى قديماً بقرية النخل، يشتهر بآثاره منها المدرسة العمرية الكبرى، ومسجد الشيخ محي الدين ابن عربي. معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، ج2/ص69.

(29) الصاحب الأمجد رئيس الشام حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين بن غالب بن المظفر بن الوزير بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن العميد أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي بن القلانسي، روى عن البرهان وابن عبد الدائم. القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، ص8586. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي الدمشقي (عبد القادر)، ص47.

البناء السكني الذي أقيم بعد إزالة المدرسة القلانسية، تصوير الباحثة في ٢٠٢٣/١١/٢٣م.

عصره أنها تقع على حافة نهر يزيد، غربيَّ مدرسة أبي عمر، وشماليَّ جامع الأتابكي ابن المبارك، وأنها أصبحت تُعرف بالخانقاه (رباط)[٣٠]، وقد ذكر محقق كتاب القلائد الجوهرية محمد دهمان أن المدرسة خربت، ولم يبق من آثارها شيء، فجدَّدها السيد إسماعيل التكريتي في عام ١٣١٦هـ/١٩٠٧م، وأصبحت تُعرف بجامع التكريتي، وهي شرقيَّ جامع محيي الدين، وعلى مقربة منه ومن القاهرية التي تقع شرقها[٣١]، بينما يذكر قتيبة الشهابي في كتابه معجم دمشق التاريخي المطبوع عام ١٩٩٩م أن المدرسة قد زالت وتحوَّل مبناها إلى دار للسكن[٣٢]، فعلاً عند زيارة الموقع من قبل الباحثة تبيَّن أن بعضاً من سكان المنطقة ما زالوا يذكرون وجود مصلًّى في مكان البناء الحديث الموجود حالياً، والمصادفة الغريبة أن إحدى الشقق السكنية في المبنى تحولت إلى معهد للتعليم منذ ثلاث سنوات، وكأنَّ أرضِ المدرسة القَلانسيّة تأبى أن تكون مكاناً عاديّاً، إنها دمشق أرَض العلم والمعرفة.

الصاحب عميد دمشق ورئيسها ومعلم المؤرخين فيها، حفظ ذاكرة أمته من خلال كتاب واحد، بينما لم يحافظ أبناء دمشق على مكان مدرسته، ويبدو أنهم لا يعرفون مِن دوَّن تاريخهم، ولم يضرَّ ابنَ القَلانسيّ ألا يعرفه أبناؤها اليوم، إذ إن كتابه ما زال موجوداً يعرفه القاصي والداني وكل علماء التاريخ، ومؤرخو مدينة دمشق، فهو الكتاب المعتمد لمعرفة تاريخ تلك المدينة ومجتمعها في تلك المرحلة من الزمن، وكأن لسان حاله يقول إن الكلمة هي الباقية، والتاريخ هو فعلاً علم العلوم.

المحور الثالث _ الكتابة التاريخيّة عند ابن القَلانِسيّ:

أولاً_ التعريف بكتاب تاريخ دمشق:

كتاب تاريخ دمشق وثيقة تاريخيّة لمدينة دمشق، والمصدر الوحيد عنها خلال حكم السلاجقة والفاطميين، وفيما بعد الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية، فأصبح المصدر الأوّل لتلك المرحلة التاريخية لدى المؤرخين كافة[٣٣]، وقد اشتهر الكتاب خطأً باسم (ذيل في تاريخ

(30) غوطة دمشق: كرد علي (محمد)، ص149.
(31) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، ص87/هامش1.
(32) معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، ج1/ص272.
(33) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص239.

دمشق)، لأن الذيل يأتي ملحقاً بكتاب أساسي، والسبب في هذه التسمية أن القسم الأوّل من الكتاب للمؤرخ ثابت بن سنان، خصَّصَهُ لمصر والشام، ووقف به على أحداث سنة ٣٦٥هـ، وأتمه هلال بن المحسن الصابي[٣٤] بحوادث ٣٦٦هـ، ووقف به عند نهاية ٤٤٨هـ تاريخ وفاته، ولعل ابن القَلانسيّ كان مُعجباً بهذا الكتاب، فقرر أن يبني هذا المذيل، فبدأ بحوادث ٤٤٨هـ حتى نهاية الكتابَ[٣٥]، وقد وجد أن هذا المؤرخ لا يعطي أحداث دمشق حقَّها من الشرح والتسجيل، بينما لدى ابن القَلانسيّ الكثير من المعلومات ليضيفها إلى أحداث الأعوام التسعين بين عامي ٣٦٠هـ و٤٤٧هـ، إذ كانَ لدى ابن القَلانسيّ مصدران إضافيان عن هذه المرحلة التاريخية، هما تعليقات تاريخية مكتوبة لبعض المؤلفيَن المجهولين، ومحفوظات الديوان بدمشق[٣٦].

أما معلومات ابن القَلانسيّ فيما بين عامي ٤٤٨هـ و٤٨٥هـ فتبدو شحيحة قليلة، حتى إذا وصل إلى الأعوام التي وعاها بنفسه، وصار فيها موظفاً في الديوان، وتقريباً نحو ٤٩٠هـ، أخذت كتابته التاريخية شيئاً من التوازن، فالأهميّة للأخبار سوف تتغيَّر، وسوف يبدأ بكتابة فصل وراء فصل متحرِّياً الدِّقةَ والموضوعية[٣٧]، فكثرت معلوماته، واستندت إلى الوثائق، واستمرَّت حتى آخر سنة دوَّنها[٣٨]، معتمداً أنواعاً مُتعدِّدة من المصادر المكتوبة والشفهية، التي تظهر أهميتها من خلال التباين في اعتماده لها[٣٩].

رغم أن الكتاب يحمل عنوان تاريخ دمشق إلا أنه لا يقتصر على أمورها إلا في قسمه الأوّل السابق لعام ٤٤٨هـ، أما بعد ذلك فهو تاريخ للعالم الإسلامي كله منظوراً إليه من دمشق، وأحياناً الإلمام بأحداثه المهمة مع التركيز والتوقف عند أحداث دمشق، مع تركيز جزء من اهتمامه لمملكة بيت المقدس[٤٠]، فهو بذلك يحوي الشكل المحلي والشكل العام، وقد استند في ذكر أخبار هذه الأقاليم البعيدة على الروايات والحكايات، مع أخذه الرواية التي يثق بها، كما فعل في حديثه عن أخبار المغرب العربي[٤١].

ثانياً_ الوثيقة محور اهتمام ابن القَلانسيّ:

عُدَّ كتابُ ابن القَلانسيّ من الكتب القليلة التي أخذت بُعداً عالميّاً في دلالة التوثيق، ليس من حيث العرض والتصنيَف فحسب، بل ومن حيث المنهج الذي اختطه ابن القَلانسيّ[٤٢] في عرض الوثيقة في ثلاث طرائق، فهو إما أن يوردها صراحة بنصها[٤٣]، أو يورد جوهرَ الوثيقة[٤٤]

(34) أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، ابن أخت إبراهيم بن سنان، عمل كاتباً في الدولة بعد أن أسلم، كتب تاريخًا هو تكملة للتاريخ الذي كتبه خاله ثابت بن سنان. تاريخ الأدب العربي: بروكلمان (كارل)، ج6/ص3536.

(35) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.

(36) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص238.

(37) H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, p10.- دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص2.

(38) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص238.

(39) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص153.

(40) H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, p11. - التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص239.

(41) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص454. ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص159.

(42) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص2. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسرى)، ص141.

(43) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص245308.

(44)H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932, p9.

كالنتيجة للمراسلة أو الكتاب دون ذكر المضمون[٤٥]، أو بالشرح والتفصيل فيقول: «شرح الحال في ذلك»[٤٦]، فقد أتاح له عمله في ديواني الرسائل والخراج الاطلاع على محفوظات الدولة، ومعرفةَ أسرار السياسة خلال تلك المرحلة الحرجة من تاريخ دمشق[٤٧]، مما جعل منهجه مميزاً باستخدام الوثائق السياسية والسجلات على نحو كبير[٤٨]، فضمن كتابه بعض الوثائق الديوانية الواردة إلى دمشق لإعجابه بصياغتها[٤٩] من جهة، ولأهميتها من جهة ثانية، ولاستكمال المادة التاريخية وتوثيقها من جهة ثالثة.

وتنوَّعت مادته الوثائقية لتشمل (الرسائل والسجلات وعقود الصلح والعهود والمكاتبات والمنشورات والمهادنات والوصايا وأختام الخلفاء)، حيث قدَّمَ في كلّ موضوع منها مادة قيمة لا تتوفَّر في مصادر أخرى[٥٠]، وتحسُّباً منه لأي معلومة جديدة تستوجب تدوينها نراه يترك صفحات بيضاء لكي يتم ملؤها فيما بعد بحوادث ربما تصل إليه، ولم تكن قد تناهت إلى مسامعه لحظة كتابته تلك، فيقول: «ليُثبَت فيه ما يُعرَفُ صحتُه من الأخبار، وتُعلَمُ حقيقتُه من الحوادث والآثار»[٥١]، ما يؤكد تحرِّيَهَ للموضوعية في أثناء كتابته للأحداث التاريخية، وإضفاء الصبغة البحثية على كتابه، فيقول: «انتهيتُ في شرح ما شرحته من هذا التاريخ، ورتَّبتُه، وتحفَّظتُ من الخطأ والخلل والزلل فيما علَّقتُه من أفواه الثِّقات، نقلتُه وأكَّدتُ الحال فيه بالاستقصاء والبحث»[٥٢]، أي الأقرب إلى العقل والمنطق، فمنهجه يعتمد على الاختيار والاستنتاج العقلي المدروس، وليس على النقل والسرد، وهذا ما يعطي مادته التاريخية قيمةً علمية لاتِّباعه منهجَ الاستقصاء والبحث عن الصحيح[٥٣].

ثالثاً_ أخلاق ابن القَلانسيّ تظهر في كتابه:

اتَّجه معظم المؤرخين إلَى الكتابة التاريخية، في أغلب الأحيان، بقصد المنفعة والعبرة، والحصول على الفوائد من التجارب، لكن ابن القَلانسيّ لم يقتصر على هذه الغاية فقط في كتابه، بل أظهر بشكلٍ جليٍّ هدفه من كتابة تاريخَ لمدينته دمشق، بتوجيه رسالة للأجيال من بعده، فربط بين أمرين تحقيق العدالة- والنصر على الأعداء، وهي معادلة ثمينة، وقلَّما يكون الهدف من الكتابة التاريخية واضحاً لدى المؤرخين في أثناء تدوين الحقائق، فهو عاصر مجموعة من الأمراء المُستبدِّين، وعاصر الهزيمة بعصرهم، ثم النهوض على أيدي أمراء آخرين مثل السلطان نور الدين محمود زنكي، وبدا من موقعه الذي كتب فيه أنه أراد إيصال رسالة للأجيال القادمة، فحواها أن النصر والعزة إنما تأتي بوجود العدالة[٥٤].

كما يظهر من كتابه أنه مُوجَّه لمخاطبة العرب، ويُلحظ بهذا الخطاب مظاهر الرقي

(45) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص303.
(46) المصدر نفسه، ص439.
(47) التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص237.
(48) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص190.
(49) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.
(50) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص191.
(51) تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص442.
(52) المصدر نفسه، ص441.
(53) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص190.
(54) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص3.

والوعي الحضاري الذي كان يُميِّز الأمة العربية الإسلامية آنذاك عن بقية الأمم، فاستخدم لغة سامية، تجلّت في رسمه ملامح الصراع مع الصليبيين بدقة متناهية، حيث حدَّد طبيعة الجغرافية التي تقوم عليها المعركة، وقام بتقديم صورة القادة الإفرنج من خلال المعارك التي احتكوا بها مع المسلمين، وتحدَّث عن قادة الجبهة العربية في تلك المرحلة، وكان حريصاً عند حديثه عن كلّ حاكم أن يُصوِّر نتائج حكمه منذ بدء سلوكه، كأن يقول ارتفعت المظالم وانخفضت الأسعار وغيرها، أو يقول عكس ذلك، وبهذه الجمل البسيطة كان يختصر الحديث عن الحركة السياسية في الدويلات العربية[٥٥]، متَّخذاً طابع الإختصار في التسجيل وعدم التكرار مما يجعله متوافقاً مع طابعه في اعتماد الوثيقة[٥٦]، ومعبراً عن رقيه الفكري، فخلا كتابه من خرافات عصره، رغم احتكاكه بالناس وتوليه أمورَهم في ديوان الخراج[٥٧].

واتَّبع طريقة في عرض الأحداث متميزة في عصره، حيث كانت الاهتمامات اللغوية تأخذ أشكالاً مُتعدِّدة، فيها الكثير من صنوف البيان[٥٨]، لكن مؤرخنا اتخذ أسلوباً واضحاً بعيداً عن التكاليف اللغوية، فكانت كتاباته نموذجاً للأدب التاريخيّ في عصره، عبارة واضحة موجزة، وإجمالاً للأحداث، ومداراة للأمور التي يمكن أن تُحرج الأتابك، ما يدل على دبلوماسيته وحسن تدبيره[٥٩]، مدوناً أحداث كلّ سنة بمفردها، متخذاً من الإطار الأدبيّ لوصف الأحداث منهجاً له، سواء أكان ذلك نثراً أم شعراً[٦٠]، مُعبِّراً عن منهجه في الحياة، ويقينه أن المصاعب والأهوال إلى زوال، وبث الأمل في النفوس من مثل قوله:

إياكَ تَقْنَط عند كلّ شديدة فشدائد الأيّام سوف تهونُ
وانْظُر أوائل كلّ أمر حادثٍ أبداً فما هو كائنٌ سيكون[٦١]

ثالثاً_ أثر كتاب تاريخ دمشق:

يُعدّ كتاب ابن القَلانسيّ من أهم الكتب التاريخية التي تُوثِّق أحداث ذلك العصر، ولا يمكن الأخذ برأي أحد الباحثيَن القائل أن شهرة ابن القَلانسيّ لم تتعدَّ مدينة دمشق، وأن الاستعانة بكتابه كانت لسد ثغرات تتعلَّق بتاريخ المدينة في المرحَلة التي عاشها ابن القَلانسيّ[٦٢]، والسبب في ذلك أن النقول عن ابن القَلانسيّ تُظهر اعتمادَ المؤرخين عليه، وأخذهم الكثير من الأخبار والروايات والأحداث والمقتطفات مَن كتابه دون حذف أو زيادة[٦٣]، فالكتاب من المصادر الأصيلة التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين، أمثال سبط ابن الجوزي، وابن الأثير، وأبو شامة، وابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

والدليل على استمرار أهميّة الكتاب وشهرته في الوقت الحاضر أنه لا بد لكلّ باحث وكاتب

(55)تاريخ دمشق: ابن القلانسي (حمزة)، ص299. دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص3.
(56) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص190.
(57) مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، العدد 74/ص69.
(58) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص2.
(59)H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, p12. - التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، ج2/ص239.
(60) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص191.
(61) يذكر ابن تغري بردى أنه نقل نبذة من كتاب ابن القَلانِسيّ في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردى (جمال الدين)، ج5/ص332.
(62) ابن القلانسي وكتابه المذيل لتاريخ دمشق: طه حسن الناصر (صفوان)، ص324.
(63) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص186.

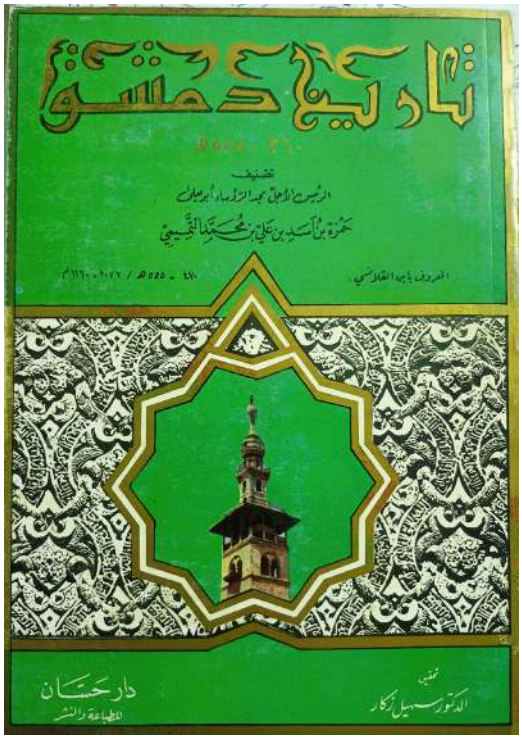

عن مرحلة الصراع القرمطي الفاطمي على دمشق، ومرحلة الحروب الصليبية الحملتين الأولى والثانية، من الاستعانة بكتاب ابن القَلانسيّ، والدليل الثاني ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنكليزية وَالفرنسية، ففي هذه المرحلة وُجدت عدة مصادر أفرنجية كتبت مشاهداتها للحملات الصليبية، لكن لم يوجد ما يوازيها من المؤرخين العرب لنفس المرحلة التاريخية سوى كتاب عميد دمشق ابن القَلانسيّ، فهناك غياب للوثائق والسجلات العربية[٦٤] لولا وَجود كتاب تاريخ دمشق، لأن قدم روايته حول دخول الشام تحت الحكم السلجوقي، والحملتين الصليبيتين الأولى والثانية بشكل منهجي وموضوعي، يُقدِّم من خلاله وجهة النظر العربية في ذلك الوقت التي اتصفت بالصراحة والإنصاف والاعتدال.

النسخة الخطية الوحيدة الموجودة من كتاب ابن القَلانسيّ محفوظة في مكتبة البودليان في أكسفورد برقمَ (Hunt ١٢٥)، بُتر من أولها بضع صفحات، وهذه المخطوطة تحوي الكتاب الأساس والذيل[٦٥]، ثم قام المستشرق أمدروز H.P.Amedroz بتحقيق الكتاب ونشره عام ١٩٠٨م لحساب مؤسسة برل في لايدن بهولندا[٦٦]، وطبعته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، وقامت مكتبة المثنى في بغداد بإعادة طبعه في الستينيات من القرن الماضي، ونفدت نسخ هذه الطبعة، وحقَّقه مؤخراً الدكتور سهيل زكار عام ١٩٨٣م، بينما ترجم (H.A.R.GIBB) ما يتعلق بالحروب الصليبية من فقرات إلى اللغة الإنكليزية، وأورد مقدمة طويلة عرَّف فيها بكتاب ابن القَلانسيّ، وشرح أحوال الشام قبيل الحروب الصليبية في كتابه بعنوان:
(The Damascus chronicle of the crusades).

(64) H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, p710.
(65) ابن القلانسي (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد15/ص490.
(66) مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، العدد74/ص68. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسرى)، ص140.

ـ الخاتمة:

عاش ابن القَلانسيّ في عصر أصبح فيه علم التاريخ علماً مستقلاً، ظهرت فيه التواريخ المحلية، فصبَّ مؤرِّخُنا اهتمامَه على تدوين أحداث مدينته دمشق، ناقداً الحقائق باحثاً عن أسبابها، متحرِّياً الصدق في إثباتها، مبرزاً شخصيته التأريخية وأخلاقه، متَّبعاً أسلوب النقد والاختصار والاقتصار على جزء معين من التاريخ، ما جعل كتابه من أهم الوثائق التاريخية التي تناولَت تاريخ دمشق في عصره، وجاءت أهميّة الكتاب من منهج مؤلِّفه الذي سرد سرداً تاريخيّاً لأحداث جسام مرت بها الدولة العربية، تمثَّلت بسقوط بيت المقدس بيد الصليبيين، حيث كان ابن القَلانسيّ شاهد عيان عاصر مرحلة تلك الحروب، وشهد الحملات الأولى والثانية، ولا تأتي أهميّة عمله من كونه شاهد عيان فقط، وإنما من دقة توثيقه التي اعتمدها في تقديم الحروب الصليبية من وجهة نظر عربيّة[٦٧]، فالأسس المنهجية التي اتبعها ابن القَلانسيّ في مؤلفه التاريخي تميزت برؤيته الخاصة، وإن كانت في إطارها العام متأثرة بالكتابة التَاريخية في ذلك العصر، ما جعلٍ من كتابه مادة علمية مهمة في عصرنا الراهن، مع أنه يذكر مضمونَ الوثائق دون نصِّها أحياناً في كتابه، حتى أصبحت جزءاً أساسياً من منهجه في التأريخ[٦٨]، فهو يُعدّ من المؤرخين القلائل الذين استخدموا الوثيقة بالشكل الذي ذكرناه سابقاً، وتتجلّى روعة الكتاب من الصورة النبيلة التي أرادها العميد ابن القَلانسيّ أن تنطبع للأجيال اللاحقة، حيث لم يذكر التفاصيل المؤلمة، والأحداث التي يَندى لها الجبَين، التي قام بها الصليبيون في الشرق، كان دقيقاً في وصفه للأحداث، لكنه أسقط من كتابه جنون الغرب ووحشيته آنذاك[٦٩].

(67) H.A.R.GIBB,The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932, p910.

(68) ابن القلانسي سيرته ومنهجه في كتابة ذيل تاريخ دمشق: جبلاوي (ندى)، ص141166.

(69) دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القلانسي: خالد (أيمن)، ص6.

مصادر البحث ومراجعه

_ الأعلام: الزركلي (خير الدين)، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م.

_ تاريخ الأدب العربي: بروكلمان (كارل)، تر: السيد يعقوب بكر، مر: رمضان عبد التواب، القاهرة، ط٢، ب.ت.

_ التاريخ العربي والمؤرخون: مصطفى (شاكر)، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

_ التاريخ الكبير: ابن عساكر (علي بن الحسين)، عبد القادر بدران، دمشق، ١٩٢٧م.

_ خطط دمشق: العلبي (أكرم حسن)، دراسة تاريخية شاملة لدور القرآن والحديث والمدارس والبيمارستانات والجوامع الكبرى والخوانق والربط والزوايا والأسواق والخانات والحمامات والدروب من سنة ٤٠٠هـ حتى سنة ١٤٠٠هـ، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

_ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي الدمشقي (عبد القادر)، إعداد وتقديم: عمار محمد النهار، دمشق، ٢٠١٤م.

_ دراسة في كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى القَلانسيّ: خالد (أيمن)، جريدة دنيا الوطن، ٢٠٠٦م.

_ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، الهند، ط٢، ١٩٧٢ .

_ سير أعلام النبلاء: الذهبي (شمس الدين محمد)، حققه: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٦م، ج٢٠ .

_ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي)، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ج٤ .

_ عصر الانحلال تاريخ الأمة العربية: طلس (محمد أسعد)، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م.

_ غوطة دمشق: كرد علي (محمد)، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٤٩م.

_ ابن القَلانسيّ (حمزة بن أسد): الحموي (فايز)، الموسوعة العربية، مجلد١٥ .

_ ابن القَلانسيّ وكتابه المذيل لتاريخ دمشق: طه حسن الناصر (صفوان)، مجلة أبحاث كلية التربيةَ الأساسية، جامعة الموصل، مجلد٩/العدد٤، ٢٠٠٩م.
_ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون (محمد)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مكتبة الدراسات الإسلامية في دمشق، ١٩٤٩م.
_ الكامل في التاريخ: ابن الأثير (عز الدين علي)، بيروت، ج١٠، ١٩٦٦م.
_ مخطوطات ومطبوعات: مجلة المقتبس، محمد كرد علي، العدد٧٤، ١٩١٢م.
_ المدارس التاريخية الصغرى (الشام، اليمن، فارس): بورويس (وليد)، ملخص مقال في مجلة العلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٢٠م.
_ مدرسة بلاد الشام التاريخية ودورها في التدوين: العبدلي (خالد)، ملخص مقال في مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العراق، ٢٠١٧م.
١. معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، بيروت، ج٢، ١٩٥٥م.
٢. معجم دمشق التاريخي: الشهابي (قتيبة)، للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين، دمشق، ١٩٩٩م.
٣. معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة: المنجد (صلاح الدين)، بيروت، ٢٠٠٦م.
٤. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري: عبد الله (يسرى)، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردى (جمال الدين)، القاهرة، ١٩٣٥م، ج٥.
٦. الوافي بالوفيات: الصفدي (صلاح الدين خليل) المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٧.
H.A.R.GIBB, The Damascus chronicle of the crusades, London, 1932.

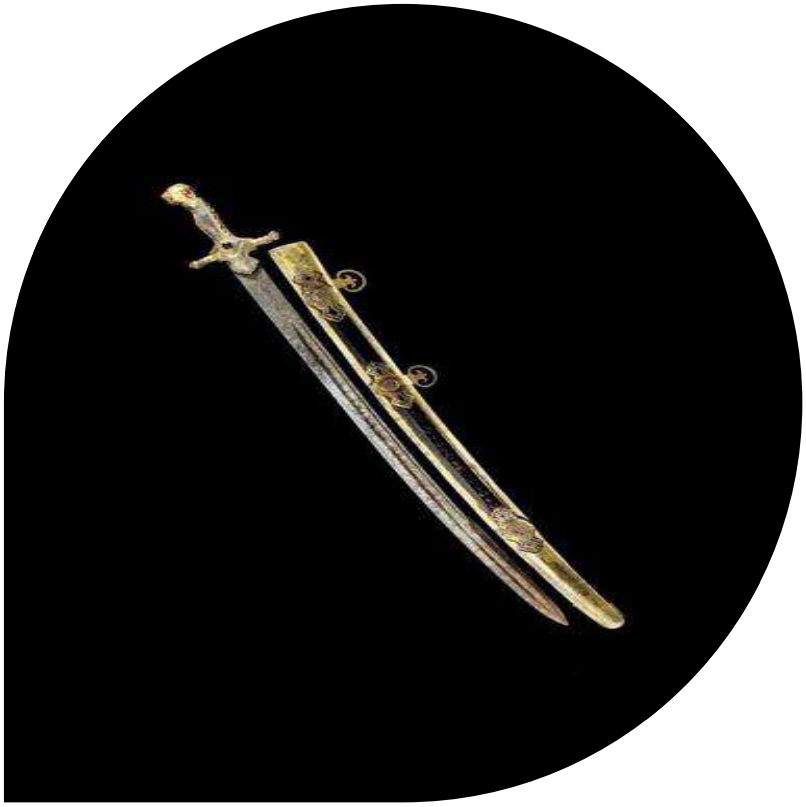

جوهر السَّيف الدِّمشقي
(تقنية النانو في السَّيف الدِّمشقي)

أ.د محمد شعلان الطيار(1)

(1) جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم الآثار.

ملخَّص البحث

يتحدَّث هذا البحث عن السرِّ الكامن في صناعة السَّيف الدمشقي وجوهره، وكيف تميَّز بسبب ظاهرة فنية عُرفت باسم الجوهر، الذي يمنح السَّيف الدِّمشقي الصَّلابة والليونة وخفة الوزن والحدَّ القاطع والنَّصل المقاوم للصدأ، والبصمة الخاصة غير القابلة للتقليد، التي شكلت في مجملها أحدَ أهمِّ خَفايا صناعة السَّيف الدمشقي ذي الحدِّ المُرهَف والمُميَّز. وكيف كانت هذه الصناعة قائمة على نوع من سبائك الفولاذ، فعمل صُنّاع السُّيوف الدِّمشقيون على تطوير تقانة تصنيع أنصال السيوف، بتشكيل الأنابيب الشعرية أو التَّنسيمات، وإنتاج ثلاثة أنواع من الأنصال ذات الجوهر أو التوشيحات المختلفة، وذلك من خلال التحكُّم بنسب الكربون المضاف على الخلطة الفولاذية، وبرز في هذا المجال الكثير من العائلات الدمشقية.

أولاً _ ظهور السيف وتطوره عند الشعوب:

أُطلقت تسميةُ السَّيف على كلِّ أداة قتاليّة ذات نَصل طويل، بغَضِّ النَّظر عن الشَّكل الدَّقيق والتفاصيل العامة التي تَباينَت تَبَعًا لمراكز التَّصنيع والإنتاج أو الاستخدام.

ويَعود استخدام السَّيف بمفهومه البسيط، المُكوَّن من شريحة معدنية ذات نصل حادٍّ ورأس مُدبَّب، إلى الألف الرابع قبلَ الميلاد، عندما اكتشفَ الإنسانُ معدنَ النحاس وتعرَّفَ على خواصِّه، فتخلَّى عن الأدوات الحجرية، واتَّجَه إلى تصنيعها من النُّحاس، ثم من البرونز.

وقد بدأ أولاً بتصنيع النِّصال المعدنية القصيرة ذات الطرف الحادِّ منذ عصر البرونز، قبل أن يقوم مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد بزيادة طول النصل البرونزي إلى الحدِّ الأعلى المسموح به تقنيًا وهو ٩٠ سم. وكان النَّصل طويلاً وحاداً، وذا طرف مُزوَّد بمقبَض مُغلَّف يُساعد على حمل النَّصل الحادِّ واستخدامه في القتال، ثم طوَّر شكلَه فيما بعدُ، فَزوَّدَه بواقيةً اليد الأفقية المُتباينة الأشكال، التي مَكَّنت المقاتلَ من التحكُّم بالسَّيف، ومَنع انزلاق اليَد نحو النَّصل، وصدِّ ضربات الخصم القريبة أثناء الالتحام، مع تأمين أكبرِ قدرٍ من الحماية لقبضَة اليد أثناء القتال من الضَّربات القريبة المُنزلقة على النَّصل.

وقد نجمَ عن اكتشاف الإنسان لمعدن الحديد الأكثر صَلابةً، ووفرة فلزاته وسهولة استخراجها وتصنيعها، إلى اعتماده بديلاً عن البرونز في صناعة الأدوات، لا سيَّما القتالية (نصال، حراب، سيوف..)، وتُشير الدلائل الأثرية على قيام الحثِّيِّين والمسينين وكذلك شعوب السلت (٧٠٠ ق.م) بتصنيع السُّيوف الحديدية، التي أخذت تحتلُّ الصَّدارةَ في مجال تصنيع الأدوات والأسلحة، بعدَ أن أثبتت جدارتَها وكفاءتها القتالية في مقابل سابقتها البرونزية، التي كانت تُشكِّل عمادَ تَسليح الجيوش في عصر البرونز.

وقد حفَّزَ التنافسُ بين الصُّنّاع والحرفيِّين على الخوض في العديد من التجارب لتطوير المُنتَج، فتوصَّلوا إلى تصنيع الفولاذ الصلب، بإضافة القليل من الرَّماد الخشبيِّ إلى مصهور الحديد في مرحلة الصَّهر الأولى، وهو ما أكسبَ المعدنَ نَوعًا من الصَّلابة والمقاومة، وفيما

بعدُ سعى صُنَّاعُ السيوف الفرس والرومان إلى تطويرها، من خلال تنويع الطرائق المعتمدة في تشكيل المعدن، لإكسابه بعضَ الصِّفات الخاصة والمُميَّزة، ولعل أهمَّها وأكثرَها استخداماً التِّقنية التي تعتمد على أسلوب عَجْن الخَلطة المعدنية وتبريدها، وتحويلها إلى نصال بواسطة الطَّرْق، أو باعتماد أسلوب الدَّمج واللِّحام بواسطة الطَّرْق، الذي اعتمده صُنّاع السُّيوف الرومان (١٠٠ ق.م.)، في تصنيع السيوف القصيرة المعروفة باسم الكلاديوس gladios، التي تراوح طولها فيما بين ٦٠-٧٠ سم، حيث استخدَم الصُّناع أسلوبَ جمع الشَّرائط الفولاذية ودَمجِ فِلزاتها بواسطة الطَّرْق.

وبالرَّغم من التطوُّر الجوهريِّ الذي طرأ على مادة صنع السَّيف، خلال العصور، إلا أنَّ التطوُّر الأهمَّ كانَ على يد شعوب الفايكنغ (القرن ٨-١١ م.)، الذين عملوا على تطوير شكل السَّيف، فأصبح يتركَّب من نصل مستقيم وعريض ذي طرفين حادَّين وذؤابة دقيقة مُدبَّبة أو دائرية، بحيث تتوضَّع نقطةُ التَّوازن فيه على بُعد مَعقول من قائم السَّيف، وهذا ضاعفَ من طاقة قوة الضَّرب والقَطع في السَّيف المُحدَّث، يُضافُ إلى ذلك ما تميَّز به من نظام حماية اليَد بتزويده بواقية، على شكل العارضة الأفقية السَّميكة، تفصل بين القبضة والنصل، وتُسهِم في صدِّ الضَّربات المُنزلقة والقريبة من القبضة، ومنع انزلاق قبضة اليد، المحصورة بين العقب البيضوي المنتفخ وواقية اليد، نحو الشفرة الحادة، وتأمين نوع من التوازن للسيف (الذي بلغ طولُه ٧٥سم، وتراوح وزنه بين ١٠٠٠-١٤٠٠ غ)، وهذا أكسَبَه نَوعًا من التوازن والفاعلية أثناء القتال؛ حتى أصبَحَ أداةَ التَّسليح الرئيسة في أوربا قاطبة حتى العصور الوسطى.

ثم قام النورمانديون بتعديل شكل واقية اليد (الشاربان)، إلى الشكل البيضوي المُفرَّغ، والورقة العريضة المُدبَّبة الأطراف التي أخذت شكلَ الخطاف، كذلك تعديل شكل العقب أو القبيعة من النمط البيضوي المنتفخ إلى نمط ذيل السمكة المُتشعِّب، الذي استخدم كأداة دفاع ثانوية أثناء القتال، إلى جانب تطوير الفاعلية القتالية للسيف بزيادة طوله إلى ٨٥ سم، دون إجراء أي تعديل على الوزن، وذلك باللُّجوء إلى التَّخديد الأحاديِّ الطُّولي على صفحتَي النَّصل، لتخفيف وزنه وإكسابه القدر الكافي من المرونة، هذا إلى جانب تعديل شكل الذُّؤابة من النمط الدائري إلى النمط الضيِّق الحادِّ، الذي يأخذ بالاتساع والعرض مع الاقتراب من واقية اليد، فيُسهم في تحول مركز الثِّقل إلى الجزء الأخير من السَّيف، وهذا يُكسبُه قوةً أكبر على الطعن، هذا إلى جانب زيادة طول القائم المنتهي بانتفاخ كروي أو على شكل ذَيل السَّمكة، يُمكِّن المقاتل من استخدام كلتا قبضتَيه في التحكُّم والسيطرة على قائم السَّيف، لتأمين أكبر قدر مُمكن من قوة الضَّرب والقَطع والبَتر بدلاً من الطعن.

غير أنَّ عملية التَّعديل المُحدثة على طول السُّيوف أثَّرَت في مدى قدرة المقاتل الغربي على المناورة السريعة أثناء القتال، بسبب الوزن والطول الزائدَين، على النقيض من السيوف العربية الخفيفة التي تميَّزت بخفّة وزنها ومُرونتها ورهافة حدِّها، المُستمَدِّ من أسلوب تشكيل الفولاذ المُخفَّف الوزن الذي بَقِيَ سِرًّا خَفِيًّا عن صُنّاع السُّيوف الغربيِّين، الذين تابعوا صناعة السيوف الثقيلة الوازنة[٢].

(2) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية عاشور، سعيد عبد الفتاح، وآخرون، أحمد مختار، ص 350.

ثانياً ـ السيف عند العرب:

عُرف السَّيفُ عند العرب على أنه السِّلاحُ الأبرزُ المُعتمَد في القتال، والذي افتخر العربيُّ باقتنائه وحيازته، وأطلق عليه الكثيرَ من التَّسميات التي يُشير مُعظمُها إلى فاعليته أو مكان صُنعه؛ وقد عددَ الكنديُّ في رسالته «السيوف وأجناسها»(٣) ما يَزيد على خمسة وعشرين نوعًا من السُّيوف، صُنِّفت تبعًا لنوع معدنها ومواصفاتها، كالحسام، والصَّمصامَ، والمُهنَّد، والصارم، والفيصل، والبتار، أو تبعًا لمكان تصنيعها كالدِّمشقية، واليَمانية، والقَلعية(٤)، والهندية، والخرسانية، والبصرية، والمصرية، والكوفية، والحيرية ..(٥).

وهذا يدلُّ على تنافس مراكز التَّصنيع، وحرصها على تجويد المُنتَج، الذي تحوَّل إلى قطعة فنيّة، يتفاخر مالكُها باقتنائها وحتى تَسميتها، إلى الحدِّ الذي أضحى معه السَّيف يُنسَب إلى صاحبه كصَمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، ذي الجوهر المُميَّز المائل إلى السَّواد، والنَّصل الصلبَ أحادي الحدِّ، الذي قدر عرضه بثلاث أصابع تامة (٥, ٧ سم). والمُستلب وهو سيف عمرو بن كلثوم التغلبي، والقرين سيف زيد الخير النبهاني الطائي، والمخدوم والرَّسوب المفخم سيف الحارث بن أبي شمر الغساني؛ وذي الوشاح سيف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والأَلوق ذي القرط أو القرطي، وهو سيف خالد بن الوليد، والمَلاء سيف سعد بن أبي وقاص، والصَّد وهو سيف أبي موسى الأشعري، والرَّقراق سيف سعد بن عباده.

ومن السيوف المشهورة ما ذكره ابن قيم الجوزية في كتابه: «زاد المعاد في هدى خير العباد» من أسياف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، منها سيفه المأثور «مأثور الفجار»، وهو أول سيف ملكه، وكان قد ورثه عن أبيه عبد الله بن عبد المطلب، وكذلك العَضْب، والقَلَعي، والبَتّار، والحَتف، التي غنمها من بني قيقناع، والرَّسوب، والمخذَم والقَضيب وذو الفقار[٦].

وتُشير الدلائل الأثرية على أن العرب في مرحلةَ الجاهلية وصدر الإسلام استخدموا أنواعًا مختلفة من السيوف المستقيمة القصيرة والخفيفة، التي بقيت قيد الاستخدام حتى القرن العاشر الهجري، حيث شاع بعدها السَّيفُ المُقوَّس الذي تميز عن سابقه بكونه أسرع حركة في الرَّفع والشَّدِّ والطَّعن، وهو ما تطلَّبَته طبيعةُ الكَرِّ والفَرِّ في المعارك و الحروب، هذا إلى جانب تأثر السَّيف الإسلامي في شكله العام بالعديد من المؤثرات الوافدة إلى المنطقة إثر الغزو المغولي، حيث بدأ الصُّنَّاع بإنتاج نوعية مُميَّزة من السيوف ذات النَّصل العَريض القليل الانحناء، الذي يَحمل حدًّا قاطعًا في ثلثه الأخير، كما قام صُنَّاعُ السيوف بإنتاج أنماطٍ مُعدَّلة منها

(3) رسالة الكندي في عمل السيوف، ص29.
(4) الجماهر في معرفة الجواهر: البيروني، ص106.
(5) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية: عاشور وآخرون، ص 350.
(6) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية، ج1، ص126.

كالياطاغان[٧] والقليج[٨] والشمشير[٩].

ثالثاً _ جوهر السيف الدمشقي وتقنية النانو:

على الرغم من تعدد مراكز تصنيع السيوف في كافة أرجاء العالم، فقد تفاخرت بلاد الشام عامة، ودمشق خاصة، بصناعتها للسيوف المُتميِّزة التي فاقت قرائنَها، وذلك بسبب تملُّكها لخاصية أو ظاهرة فنية عُرفت باسم الجوهر، الفرند، التَّموجات، التَّنسيمات أو البقع المحكمة ذات اللون الوهاج المائلِ إلى البياض، الذي يمنح السَّيف الدِّمشقي الصَّلابةَ واللُّيونة وخفة الوزن والحدَّ القاطع والنَّصل المقاوم للصدأ، والبصمة الخاصة الغير قابلة للتقليد، التي شكلت في مجملها أحدَ أهمِّ خَفايا صناعة السَّيف الدمشقي ذي الحدِّ المُرهَف والمُميَّز، الذي عجز صناع السيوف الصليبيون عن كشف سرِّ صُنعه أو تقليده، إلى أن أقرُّوا بعَجزهم، ونسجوا العديد من الأساطير التي تُقدِّس في مضمَونها سرَّ معدنه الإلهي، الذي ارتبط بأسطورة الإله السوري «حدد» إله الصاعقة.

وممَّا قالوه في ذلك: «إن صُنّاع السلاح الدمشقيين كانوا ينتظرون أن يَشُقَّ البَرقُ رَحمَ الأرض، ويزرع فيها شيئًا من وميضه، مُحدثًا فيها عروقًا معدنية كبيرة، حيث يأخذُها الصُّنَاع ويَعجنُونها ويلقونها في النار ويطرقونها ويضَعونها في خليط من الماء والزيت، ليصنعوا منها تلك السيُوف السِّحرية، التي طافت العالم لبناء صرح الحضارة العربية، التي انتشرت في أصقاع الأرض، وردَّت الأذى والطغيان عن دمشق وكل بلاد الشام، حيث بلغَت من فاعليتها ورهافة حدِّها أن الشَّعرة كانت تنشطرُ إلى نصفين عند سقوطها على حدِّ شفرتها، والتي يعود إليها الفضل في انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في المعارك التي خاضها ضدهم».

وبعد أن أقرَّ الصَّليبيون بعجزهم عن تقليد السُّيوف الدِّمشقية، وكشف أسرار صناعتها، بدأ قادتهم يُرسلون التُّجّارَ إلى بلاد الشام، لشراء إنتاجها من الأدوات الحَربية، ولا سيما السيوف الدمشقية الخفيفة المُرهَفة الحدِّ، التي زُخرفت نصالُها بالآيات الكريمة، والأشعار والدَّعوات، ورُصِّعت مقابضُها بالحجارة الكريمة، وصُنعت لها الأغمادُ المُزخرفة الباهظة الثمن، وكان اقتناؤها مدعاةً للتفاخر في المناسبات، والمبارزات، والمظاهر الاحتفالية المهمة.

---

(7)- الياطاغان: وهو سيف منحنٍ بدون واقية يد، تميز بتملكه لنصل حادٍّ مزدوج الانحناء، بحيث يتَّفق خطُّ انحناء النصل مع حركة معصم اليد نصف الدائرية أثناء الطعن، ويتركز وزن السَّيف في الثلث الأمامي منه، ليُساعد على تنامي قوة الضرب والقطع والبتر والطعن السريع، وتأمين سهولة الارتداد والمناورة، وهذا جعل من الياطاغان السلاح الأكثر انتشارًا في تسليح الجيوش الإسلامية، نظرًا لفعاليته في المعارك، قبل أن يَشيع استخدامه في أوربا، لاسيما في المناطق التي كانت تخضع للنفوذ العثماني.

(8) القليج: تسمية عثمانية تعني القاطع، أُطلقت على نوع من السيوف التي شاع استخدامها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وتميَّزت بشكلها الخليط بين السَّيف المغولي الكالاتشوري والياطاغان، وبطولها الكلي المقدر بنحو (101 سم)، وبنصلها ذي الحدين الذي يبلغ طوله 85 سم.، ذي التشكيل الرفيع في الثلث الأول، ثم يأخذ بالاتساع التدريجي، ليشكل عند نقطة التلاقي زاوية منفرجة واضحة المعالم تؤمن عملية قطع ممتازة، غير أن الطول الزائد للقليج، وما رافقه من صعوبة في الحمل والحركة أثناء القتال، لم تجعل منه السلاح المثالي للمقاتلين، وهذا ما دفع بالصُّناع إلى إنتاج نموذج آخر من سيف القليج الذي تميَّز بطوله المعتدل.

(9)- الشمشير: وهو سيف سميك ضيق النصل، ذو شفرة سفلية أحادية، وقائم خفيف بسيط الشكل يتوضع بين الشاربين (واقية اليد الأفقية)، والقبيعة ذات التركيب المنحني أو المنكسر نحو الأسفل على شكل قبضة المسدس، والتي تُسهِّل عملية التحكم بالسَّيف، وتمنع انزلاقه من قبضة اليد خلال المناورات القتالية. هذا ويشكل العصر الصَّفوي الفترةَ الذهبية لصناعة الشمشير في بلاد فارس، حيث برز اسمُ أسد الله الأصفهاني وابنُه عبد عليفي في مجال صناعة الشمشير، التي بلغت غاية الكمال والروعة والإتقان على يديه، وتضاءلت بوفاته، حيث تراجعت مكانة فارس وشهرتها كمركز هام لصناعة الشمشير.

- انظر عن ما مضى من تعريفات: السيوف الإسلامية وصناعتها: أونصال يوجل، ص44.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن صُنّاع السُّيوف الدِّمشقيين كانوا قد اعتمدوا في صناعة السيوف على نوع من سبائك الفولاذ الهندي، المعروف باسم الووتز wootz[10]، المُركّب من فلزات الحديد المُضاف إليه نسبة ١,٢ – ١,٨٪ من الفحم، وكذلك القليل من السيليسيوم، والمنغنير، والفوسفور، والكبريت، ونسبة قليلة من معدن الفاناديوم، التي تُسهم في تشكُّل الفولاذ الصلب، بعد أن يمرَّ تحضيره بسلسلة من عمليات التسخين heating والطرق forging وفق تقنية معقدة، تُسهم في إكساب صفحات السُّيوف المُصنَّعة نوعًا من الجمال المَصبوغ بالغموض، الذي يُحيط بسرِّ هذه الحرفة؛ حيث كان صناع الفولاذ الهنود يقومون بصهر فلزات الحديد المضاف إليها نسبة محددة مَن فحم الخشب النقي ضمن فرن حجري تحت درجة حرارة ١٢٠٠ دْ، فيُؤدِّي ذلك إلى قطع الحديد الإسفنجي (المسامي) الخشن، الذي يتم تكسيره وضغط مساماته بواسطة الطرق، ثم يُوضع الناتجُ مع نسبة من كربون الخشب النقي ضمن إناء فخاري محكم الإغلاق داخل فرن حجري، حيث يتمُّ صهرُه، ومن ثم سكبه في قوالب على شكل قطع فولاذية دائرية، يتم تبريدها بشكل تدريجي، لإعداد أقراص الووتز الفولاذية، المُعدّة للتصدير الخارجي، والتي يعاود الصناع تسخينها مرة أخرى إلى درجة الاحمرار، وتشكيلها بواسطة الطَّرْق على شكل نصال وسيوف فولاذية ملساء وصلبة، وهي السمة العامة للسيوف قاطبة الخالية من التنسيمات، على النقيض من السيوف الدمشقية التي تميَّزت بجوهرها وتنسيماتها السطحية، المُشكَّلة وفقَ تقانة تصنيع معقدة، هدفت إلى إكساب السَّيف الدمشقي سماته الخاصة.

وقد عمل صُنّاع السُّيوف الدِّمشقيون في العصور الوسطى على تطوير تقانة تصنيع أنصال السيوف، وإكسابها الصلابة والليونة والحدَّ المرهف[11]، وذلك من خلال التغلُّب على ضعف المادة الصلبة، بتشكيل أنابيب شعرية متناهية الصغر، تعمل على تخفيف وزن السَّيف وزيادة مرونته، وامتصاص نسبة من قوة الضرب أثناء المبارزة، مما يساعد على احتفاظ المقاتل العربي بلياقته لوقت أطول من المقاتل الغربي، الذي اعتمد السَّيف الثقيل في معاركة.

ويتم تشكيل الأنابيب الشعرية أو التَّنسيمات، في السَّيف الدمشقي، من خلال زيادة نسبة الكربون الداخلة في خلطة العجينة الفولاذية، المصنعة من فولاذ ووتز المستورد، الذي يتم تسخينه وتشكيله بالطرق، ليأخذ شكل النصل المطلوب، قبل أن يُعاد تسخينه مرة أخرى تحت درجة حرارة تصل إلى ١٢٠٠ دْ، حتى تتجانس حُبيبات المعدن المُشكِّلة للنَّصل، ومن ثم العمل على تبريد النصل ببطء شديد خلال عدة ساعات، بهدف تشكيل شبكة عنكبوتية من الخطوط والشُّعيرات الكربونية ضمن حبيبات الفولاذ المُشكِّلة للنَّصل، والتي يعمل الصانع على حرقها وتفريغها بمعاودة تسخين النَّصل حتى درجة الاحمرار الدموي أو الرمادي، تحت درجة حرارة ٦٥٠ – ٧٥٠ دْ، والتي تعمل على حرق شبكة الكربون وتلاشيها، مُخلِّفةً مجموعةً من الأنابيب والخطوط الشعرية والتموُّجات الدقيقة المُفرغة التي تُكسب النَّصلَ الرَّهافة والمُرونة[12].

(10) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: الإدريسي، ص67

(11) سر السيوف الدمشقية: فرهوفن، د. جون: مجلة العلوم، مج 17.

(12) تُحدَّد نسبةُ مرونة السَّيف بحسب نسبة الكربون الداخلة في الخلطة المعدنية، ففي حال انخفضت نسبة الكربون في الخلطة تقلُّ نسبة مرونة المعدن، وفي حال زادت نسبة الكربون إلى 4% ارتفعت نسبة مرونة الفولاذ، وهذا ما دفع الصُّناع إلى التحكُّم في نسب المرونة من خلال التحكُّم بنسب الكربون الداخلة في التركيبة.

ومع أن فولاذ ووتز المستورد قد شكّل المادةَ الخامَ الرئيسةَ لمُعظَم صُنّاع السُّيوف في العالم، فقد عمل الصُّناع الدِّمشقيون على تصنيع فولاذهم المَحليِّ الخَاصِّ، سواء من فلزات الحديد المُستخرَجة من مناجم المَنطقة أو عبر إعادة تدوير المُخلَّفات المعدنية وصهرها وتصنيعها مرةً أخرى، والتي دَوَّنها الجلدكي الطرسوسي الذي عاش في بلاد الشام في شرحه لكتاب «الحديد لجابر بن حيان»، موضِّحًا مراحلَ صناعة الفولاذ المحليِّ، وكذلك أبو الريحان البيروني في مؤلَّفه «الجماهر في معرفة الجواهر»، الذيَ شرح بوضوح طريقةَ صناعة الفولاذ الدمشقيِّ، نقلاً عن كتاب ألَّفَه حَدّادٌ دمشقيٌّ، قائلاً: «إن السَّيف الدِّمشقيَّ كان يُصنع من الحدَيد الدِّمشقيِّ المَحليِّ المُستخرج من مناجم بلاد الشام أو المستورد من الهند، أو من خلال صهر نفايات الحديد كالحدوات، والمسامير...، في كُور الصَّهر، وسكبه في البواتق، ومن ثم إضافة مادة المنغنيز إلى المَصهور الحديدي، لزيادة لمعانه ومنع أكسدته، هذا إلى جانب إضافة بعض المواد العضوية النباتية كالإهليلج، قشر الرمان، قشّ الأرز، الخشب أو أوراق الأشجار، التي تقوم بعملية تَفحيم الخليط، وذلك من خلال تحويل المواد العضوية إلى فحم يَختلط بالحديد الذي يتحول إلى فولاذ، يحمل على صفحاته التنسيمات والتمشيحات، أو الوشي الدِّمشقي الذي يُعرف بجوهر السَّيف أو الفرند، والذي يظهر على شكل مجموعة من الخطوط الحمرة ذات الألوان القزحية، أو على شكل خَطوط وبقع دائرية ومُتعرِّجة، أو تموُّجات وغيوم لَونية، أُطلق عليها تسمياتٌ مختلفة مثل التَّنسيمات، السَّفسفة أو ماء السَّيف.

وهذا التنوُّع والتشكيل يُكوِّن في طبيعته السِّمة والبصمة الخاصة لكل سيف، والتي تكون غير قابلة للتقليد، نظرًا لارتباطها بنسب العناصر الشائبة الداخلة في التركيب elements impurity كالكربون، والسليسيوم، والكبريت، والفوسفور، والمواد العضوية النباتية، وكذلك درجات الحرارة عند الإسقاء والإحماء، وهي الطريقة الأولى في التصنيع.

أما الطريقة الثانية فتقوم على مبدأ خلط فلزات لمعدنين فولاذيين، الأول طريٌّ والآخر صلبٌ جدًّا، ويُضاف إلى الخليط نسبةٌ من المواد العضوية، ويُصهر الخليط ضمن بوتقة يتمُّ تَسخينُها بواسطة الفحم الخشبي النقي، لتحويل المصهور إلى قضبان فولاذية بيضاء رفيعة، يقوم الصانع بجدلها معًا، لتأخذ شكل الحبل الفولاذي المضفور، الذي يتم إحماؤه وطرقه عدّةَ مرات، بهدف إعادة التحام واندماج الجدائل الفولاذية فيما بينها، لتشكيل نصل السَّيف الأملس، المُزدانِ بالتموُّجات والتنسيمات الصغيرة والدقيقة والمميزة، الناجمة عن عملية الدَّمج بالطَّرق، وكذلك التجمع العشوائي لحُبيبات الكربون الناعمة، ذاتِ اللون الرمادي المائل للبياضِ والمتقاربة المسافات، التي أخذت تُشكل البصمة الخاصة بنصل كلِّ سيف على حدة، وذلك طبقًا لتشكيل المعدن، (جدل القضبان، الطرق، الدمج...)، حيث كانت عملية تشكيل المعدن المستخدم في صناعة النصال الدمشقية تمرُّ بمجموعة من العمليات الميكانيكية كالإحماء والتشكيل بواسطة الطرق على السندان، التي تُعطي السَّيفَ شكلَه النهائيَّ المستقيم أو المقوس، بلونه الأبيض المائل للسواد، ومن ثم الشَّحذ بواسطة حجر الجلخ والمبرد، لتشكيل الشفرة أو الطرف القاطع الأحادي أو الثنائي، ومن ثم تنفيذ مجموعة الرسوم والنقوش والكتابات على صفحات السَّيف على قاعدة من التَّنسيمات أو التَّمشيحات التي تُزيِّنُ جوهرَ السَّيف؛ وذلك قبل أن يقوم الصانع بتنظيف

النصل بواسطة الأحماض، ودهنه بمادة الشحيرة، لتثبيت لون المعدن وحمايته من الصدأ، ومن ثم تسخين نصل السَّيف ثانية وسقايته وتبريده بالماء، إذا كان من الحديد، ليكتسب صلابة الفولاذ، أو سقايته بالماء والزيت بنسب متكافئة، إذا كان النصل من الفولاذ أصلاً، ليكتسب الصلابةَ في الحدِّ والمرونةَ في البنيان.

وقد تستغرق صناعةُ نصل السَّيف ما لا يقل عن ثلاثة أيام، لا يستطيع خلالها الصانعُ مغادرةَ ورشته والابتعاد كثيرًا عن كور النار، لمراقبة المعدن وطرقه وسقايته، بهدف الحصول على جوهر مَتميِّز ذي لون مائل للسواد، تُوضع عليه الرُّسوم والنقوش، وتُكتب الأسماء بإشراق مائل إلى البياض، وفي بعض الأحيان يتمُّ تكفيتُ السَّيف بخيوط النحاس، أو الفضة، أو الذهب، في حين تُشكَّل القبضة في الغالب من العاج، أما الغِمد فَيتمُّ تَطعيمه بالصَّدف، والعاج، والعَظم، والأحجار الكريمة.

وقد عملت ورشاتُ تَصنيع السَّيف الدِّمشقي على إنتاج ثلاثة أنواع من الأنصال ذات الجوهر أو التوشيحات المختلفة، وذلك من خلال التحكُّم بنسب الكربون المضاف على الخلطة الفولاذية:

الأول وهو الفولاذ الدمشقي ذو العلامات السطحية، المُصنَّع من المصهور المعدني المضاف إليه نسبة من الكربون (١-٢٪)، حيث يقوم الحدادون بتسخين المصهور وخلطه أو عجنه وهو ساخن عدة مرات مع التبريد، وهذا يساعد على تشكل الطبقات الفولاذية المُكوِّنة للنصل، ويُسهِّل تشكيلَ الحدِّ المرهف للسيف مع التَّنسيمات السَّطحية.

الثاني وهو الفولاذ الدمشقي غيرُ المُعلَم سَطحيًّا، الذي يُصنع بنفس الطريقة السابقة، غير أن نسبة الكربون فيه تكون مرتفعة بشكل أكبر، والتنسيمات أرفع وأدق وأكثر انتظامًا وبساطة، قياسًا إلى النَّمط السابق، ولا تظهر بالعين المجردة.

الثالث وهو الفولاذ الدِّمشقيُّ العسكريُّ أو الحربيُّ، ويتميَّز بعلاماته السَّطحية الواضحة، ويتشابه بعلاماته السطحية مع النوع الأول.

هذا إلى جانب إمكانية الحصول على اللِّيونة في الأنواع الثلاثة عن طريق التَّحكُّم في نسب الكربون الداخلة في الخلطة، وعملية التسقية والتبريد[١٣].

وبالرغم من حيازة دمشق مكان الصدارة في صناعة السيوف، فقد انتقلت هذه الحرفة من دمشق إلى حلب، ثم إلى مصر والأندلس[١٤]. إلا أنه مع شيوع هذه الحرفة في أقاليم وأصقاع مختلفة من العالم فقد حافظت دمشق على كونها الأهم والأبرز في مجال إنتاج النماذج الراقية من السيوف، ولا سيَّما في العصر المملوكي، حيث كانت تمدُّ أسواقَ القاهرة وغيرها من

(13) تعدَّدت أنواع الجواهر في صناعة السيوف من فارسي وهندي، حيث برزت عدة أنواع من جوهر السَّيف الفارسي، منها جوهر كير كنيردبان وهو جوهر الأربعين درجة، وجوهر قرة خراسان، ويظهر على النصل في هيئة خطوط رقيقة رمادية أو سوداء اللون تبدو كشبكة الصيد الملقاة على سطح الماء، وجوهر قرة طبان ويتميز بلونه الأسمر وبتموُّجاته غير المنتظمة، وفي بعض الأحيان تتشابك مع هذه التموُّجات خطوطٌ على شكل ألياف مُبعثَرة؛ في حين يتشابه الجوهر الهندي مع الجوهر الدمشقي والفارسي غير أن شكل تشبيكاته تأخذ شكل الخيوط والأسلاك في العقد، وخاناته أرق وأرفع . ويتميز جوهر السَّيف الهندي بصلابته بحيث لا يعمل فيه المبرد إلا بعد عناء.

(14) أولى عبد الرحمن الثاني (822-852 م.) هذه الصناعة عناية خاصة، وقام بتشجيع صناعة السيوف في طليطلة Toledo والمرية Almeria، التي قطنهما الدمشقيون خاصة، وتحدث عن سيوفها المقري، حيث صنف مدينة المرية وأشبيلية خلال القرن الثاني كأحد أهم وأشهر المدن الأندلسية في صناعة السيوف والأسلحة، هذا وقد تعرف الأوربيون على السيوف الدمشقية عبر الصليبيين الذين اقتنوها ونقلوها إلى أوربا حيث عرفت هناك باسم Damascening التي كانت تعني السَّيف الدمشقي.

المناطق والأقاليم بحاجتها من السيوف الدمشقية، التي حرص الأمراء والأثرياء وكبار رجالات الدولة من المماليك على حيازتها لشهرتها وجمالها، وبراعة مُعلّمي الحرفة في التفنُّن بزخرفتها وتزيينها باستخدام تقانة التكفيت والتنزيل والترصيع، التي حوَّلت السَّيف الدمشقي إلى تحفة فنية تُعدُّ من مكملات اللباس والمظهر العام للأمراء وكبار رجالات الدولة.

وبرز في هذا المجال الكثير من العائلات وورشات التصنيع، التي اختصَّت بصناعة السيوف الدمشقية، كآل السيوفي، وجوهر، والجوهري، والمسابكي، والحداد، والنحاس، والحفار، والطبّاع، وغيرهم؛ غير أن قصب السبق والشهرة كانا من نصيب ورشة أسد الله الدِّمشقي، الذي أضحى اسمُه مقترنًا بنوعية السيوف المنزلة والمكفتة والمرصعة التي كان يُنتجها، وكذلك إبراهيم المالكي الذي كان من أشهر مُعلّمي وصناع السَّيف الدمشقي في نهاية العصر المملوكي، حيث صنع عدداً من السيوف الدمشقية الخاصة بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري، وغيره من رجالات الدولة، ونقش اسمَه على أنصال هذه السيوف، ووضع ختمَه على سيلاناتها؛ كما برز في هذا المجال المُعلِّم المملوكيُّ يوسف صنقر، الذي اعتُبرت ورشتُه من أهم ورش تصنيع السيوف في دمشق، حيث تمَّ إحصاءُ أكثر من أربعين سيفًا دمشقيًّا كانت تحمل اسمَه، منها السَّيف الذي صنعه للسلطان المملوكي قانصوه الغوري، وذلك قبل أن يقوم بنقل ورشته من دمشق إلى إسطنبول، إثر سيطرة العثمانيين على بلاد الشام، ونقل معلِّمي الحرف إلى عاصمة السلطنة العثمانية، حيث اشتهر هناك باسم الحاجي صونقور، واحتلت ورشتُه مكان الرِّيادة في تصنيع السيوف الخاصة بالأمراء والسلاطين العثمانيين، الذين أغدقوا عليه المكافآت والهبات والخلع[15]، غير أنه وعلى الرغم من شهرته التي أطبقت الأفاق، لم يكن اسم الحاجي صونقور مُسجَّلاً ضمن قوائم الصناع العثمانيين الأتراك الأصل، بدلالة عدم تدوين اسمه في سجلات الأرشيف العثماني، على الرغم من الشهرة والمكانة التي وصل إليها، والتي دفعتَ ببعض ورشات التصنيع إلى تقليد مُنتَجه، ونقش توقيع حاجي صونقور «المزيف» عليها، بهدف ترويجها كمنتَج أصيل.

ولم يتوقَّفَ إنتاج السَّيف الدمشقي بوفاة حاجي صونقور، بل تابع عملَه من بعده ابنُه ومن ثم حفيدُه يوسف سنقر (صونقور) في إنتاج السَّيف الدمشقي، حيث صنع في العَام ١٥٨٥م سيفًا من الفولاذ الدمشقي، قُدِّمَ هدية للسلطان العثماني بايزيد الثاني، هذا إلى جانب عشرة سيوف أخرى وأربعة خناجر قُدِّمَت للسلطان نفسه في اثنتي عشرة مناسبة مختلفة.

وعلى الرغم من المكانة التي وصلت إليها صناعة السَّيف الدمشقي فقد أخذت هذه الحرفة بالتراجع والتدهور بدءًا من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك بفعل عوامل عدة، منها قيام القائد المغولي تيمورلنك إثر غزوه لبلاد الشام بإلزام أكثر من خمسة عشر ألفًا من أرباب المهَن ومُعلِّمي الحرَف ومهرة الصناع السوريين والدمشقيين خاصة على الهجرة إلى عاصمته سَمرقند[16]، ولا سَيما كبارُ معلِّمي الحرفة في صناعة السَّيف الدمشقي، الذين استقرُّوا في سمرقند وغيرها من المدن، حيث أسَّسوا ورشاتهم، وأنتجوا السُّيوف المُدَمشقة، التي كانت تُعرَف في شرق آسيا باسم «الإزيميني» ومعناها « العجمي»، وكذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول

(15) بلغت قيمة ونوعية بعض الهبات التي أغدقها السلطان العثماني على حاجي صونقور بين 1500-2000 أقجة فضية، كما خلع عليه السلطان في أحد المناسبات قفطانًا مصنوعًا من قطيفة بورصة.

(16) السَّيف في العالم الإسلامي: زكي، عبد الرحمن، ص 106.

بعد ذلك بإلزام من تبقَّى من أرباب ومعلِّمي الحرف المُبدعين، ومنهم صناع السيوف الدمشقية، على الهجرة إلى عاصمة السلطنة العثمانية، لتأسيس ورشاتهم فيها، وتصنيع السيوف الدمشقية، التي أضحت السلاح المُفضَّل لدى فرسان الجيش العثماني، حيث عمل مُعلمو الحرفة الدمشقيون على تطوير وتصنيع أشكال جديدة من السيوف الدمشقية المزخرفة، المصنعة لرجالات السلطنة، كالبالا والياطقان وغيرها من السيوف التي ازدانت بالنقوش والكتابات القرآنية، وزُخرفَت بأقلام الخطاطين المعروفين، والتي ما زالت تتصدَّر مَعروضات العديد من المتاحف العالمية[17].

غير أنه وبالرغم من انتشار ورشات تصنيع السَّيف الدمشقي في مناطق مختلفة، فقد حافظ الصناع على أسرار صناعة السَّيف الدمشقي، الذي بقي خافيًا على ورشات التصنيع الغربية، التي اعتمدت في إنتاجها على تصنيع السيوف الثقيلة غير المعلمة، المُصنَّعة من فولاذ ووتز المستورد أو الفولاذ المُصنَّع محليًّا، دون التمكُّن من معرفة سرِّ جوهر وفرند السَّيف الدمشقي المُتميِّز، وهذا ما دفعهم إلى استيراد هذه السيوف دون القدَرة على إنتاجها.

هذا وقد جهد كثيرٌ من الباحثين والعلماء المعاصرين إلى الخوض في غمار البحث والتحرِّي لكشف هذا السرِّ الغامض الذي أكسب السَّيفَ الدِّمشقيَّ جوهرَهُ المُميِّزَ[18]، ومنهم جان روبرت بريانت Jaen Robert Breant، الذي نشر دراسة علمية تحت عنوان «وصف طريقة للحصول بواسطتها على نوع من فولاذ السُّيوف الشرقية المُدمشقة»؛ تتلخَّص في خلط نسبة من الحديد مع نسبة منخفضة من الكربون ١٪، يكون لها تأثيرٌ بارز في ميكانيكية تشكيل الفولاذ، وإكسابه الصلابة اللازمة مع سهولة التشكيل بالطُّرق.

كما قام الباحث بيلانو في العام ١٩١٨ م بعدّة أبحاث توصل فيها إلى أن صناعة السيوف الدمشقية، ذات الجوهر المتميِّز، كانت تقوم على مبادئ خاصة في التصنيع؛ ولكنه لم يتمكَّن من اكتشافها كاملة، لأنه لم يطلع على المصادر العربية في هذا المجال؛ غير أن العمل الدؤوب في هذا المجال مكَّنَ أخيرًا عالمَين أمريكيَّين من جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة الأمريكية، هما أوليغ شيربي الذي كان يعمل أستاذًا في علم المعادن والهندسة في جامعة ستانفورد، وهيفري واد سورث الذي كان يعمل في مختبرات شركة لوكهيد للصناعة الحربية في بالوالتو، من التوصل إلى معرفة سرِّ السَّيف الدمشقي، بعد أن بذلا جهدًا مضنيًا خلال عدّة سنوات من العمل المخبري[19]، حيث اتَّبعا أسلوبًا علميًّا جديدًا، مكَّنَهما من تحقيق الغرض المطلوب في حل لغز

---

(17) يفتخر كثيرٌ من المتاحف وجامعي التحف باقتنائهم ضمن مجموعاتهم العديد من السيوف الدمشقية أو المدمشقة القديمة والمحدثة، منها متحف طوب كابي في إسطنبول الذي يحتفظ بمجموعة من السيوف الدمشقية التقليدية القديمة والمطورة منها:
- سيف الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وهو سيف مستقيم النصل.
- سيف الصحابي سعد بن عبادة، وهو سيف مستقيم نُقش على نصله اسم الصحابي الجليل، مع بعض النقوش الكتابية والدمشقية المتأخرة.
- سيف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز المؤرخ في العام 100هـ، وقد نُقش عليه اسم الخليفة واسم الصانع.
- سيف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي حمل اسمَه ونقشًا تأريخيًّا في العام 105 هـ.
- سيف الخليفة العباسي هارون الرشيد.
- سيف السلطان المملوكي قايتباي ذي التكفيت الذهبي.
- سيف السلطان المملوكي الظاهر قانصوه الغوري الدمشقي الصنع، الذي تميز بنصله الفولاذي المقوس ومقبضه الحلزوني وواقيته الفضية المتعامدة الشكل والمطلية بالذهب، ونصله الذي حمل على وجهيه مجموعة من الرسوم الميتافيزيقية الخرافية والنباتية المحفورة والمكفتة بخيوط بالذهب.

(18) قام الجنرال الروسي انوسوف بالعديد من التجارب قبل أن يعلن في العام 1837 م اكتشافه أسرار صناعة السَّيف الدمشقي؛ كما حاول العديد من العلماء الأوربيين العمل على كشف سر الفولاذ الدمشقي، منهم ميشيل فراداي Michael Fraday، وهو ابن أحد الحدادين، الذي توصَّل إلى أن السر الكامن وراء جودة وتميز السَّيف الدمشقي هو وجود نسبة قليلة من السيليكا والألومنيوم في الفولاذ، في حين توصَّل العالم الفرنسي جان روبرت بريانت Jean Robert Breant إلى أن السرَّ يكمن في وجود نسبة مرتفعة من الكربون في الخلطة الفولاذية.

(19) سر السيوف الدمشقية: فرهوفن، د. جون، ص42.

صناعة جوهر السَّيف الدمشقي، وذلك عندما قاما برفع درجة حرارة المعدن وتقليبه بشكل مستمرٍّ تحت درجة حرارة ٢٠٥٠ دْ، ومن ثم العمل على خفض درجة الحرارة إلى ١٢٠٠ دْ، والمحافظة على هذه الدرجة أثناء تشكيل الخليط المعدني؛ وهذه العملية تُشبه إلى حدٍّ كبير عملية تصنع العجينة الخزفية التي كانت تُعجَن بأسلوب اللَّف والجَدْل المُستمرِّ، والتي أدت عند تطبيقها على عجينة معدن الفولاذ، المُسخَّن إلى مرحلة ما قبل الانصهار، إلى تشكيل مركَّب «كربيد الحديد»[٢٠]، الغير مستقرّ في تركيبته الهشّة، حيث إن استمرار اللَّف والعَجْن تفرض تركيبة المعدن، مع البقاء ضمن الحدود الضيقة التي تسمح للمعدن فقط بملء مكان الحبيبات الفارغة في التشكيل، والتي تهدف إلى إنتاج الأدوات الفولاذية المصنَّعة من المعدن الشديد الليونة، وهو في حالة السخونة والصلابة الشديدة بعد القيام بتبريده.

هذا وقد توصَّل فريق بحث علميٍّ آخر من جامعة دريسدن للتكنولوجيا بألمانيا في العام ١٩٩١ م، برئاسة الدكتور بيتر بوفلر Peter Paufler، أستاذ «الكريستالوجرافيا»، إلى السرِّ الكامن في صناعة السَّيف الدمشقي[٢١]، عبر التدقيق في عينة مأخوذة من سيف دمشقي من صنع المعلم الحداد أسد اللّه الفارسي (القرن ١٦ م)، وفحصها بواسطة المجهر الإلكتروني، حيث اكتشف فريق البحث وجودَ نانو الأنابيب، وهي أنابيب شعرية بالأبعاد النانومترية[٢٢]، وأضاف بوفلر أن تلك الأنابيب المتناهية في الصغر، المصنوعة من كربيد الحديد c_3fe، التي يتراوح قطرها بين ٦-٩ ميكرونات، وتتباعد فيها شرائط الجسيمات بعضها عن بعض بمقدار ٣٠-٧٠ ميكرونًا، قد أضحت اليوم قمة تكنولوجيا النانو أو علم المواد متناهية الصغر، وهي التي أعطت السَّيف الدمشقي مقاومته وليونته غير الطبيعية وشكله الأخاذ، وأكسبته ميزاته الفائقة، من حيث الرهافة والمتانة وخفة الوزن، التي مكنت المقاتل العربي من التحكُّم بحركة السَّيف والسيطرة عليه أثناء النِّزال، على النقيض من السَّيف الأوربي الذي اعتمد في قوته وشدة ضربه على الوزن، مما جعل حركة المقاتل مقيَّدة بوزن السَّيف.

وبالرغم من تضارب الآراء حول أصل ونشأة السَّيف الدمشقي وتسمياته، وتوارد بعض الآراء التي تقول بأن صناعة السيوف لم تُوجد في دمشق، بل إن الصناع الدمشقيين قد اقتصر دورهم على عملية التزيين والزخرفة والتكفيت والتطعيم، التي عُرفت باسم الدمشقة Damascening، كما ذهبت بعض الآراء إلى أن هذه التسمية لا تعني صناعة السيوف، بل تجارتها، لأن دمشق كانت ممرًّا للقوافل بين الشرق والغرب، وكان يتم فيها شراء الأنواع الجيدة من السيوف الفارسية والهندية، التي تُنقل وتُباع في البلاد الأخرى، حيث أُطلق عليها هذا الاسم دلالة على مكان شرائها، ودليل أصحاب هذا الرأي عدم التمكن من الحصول على أي سيف يحمل اسم أحد الصناع الدمشقيين، بلغ من الشهرة ما بلغه أسدُ اللّه الأصفهاني، وغيره من صناع السلاح الأتراك أو الفرس؛ ويأتي الردُّ على هذا الرأي عبر مخطوط هندي محفوظ في متحف لندن،

(20) سر السيوف الدمشقية: فرهوفن، د. جون، ص44.

(21) صناعة الفولاذ الدمشقي: الحسن، أحمد يوسف: محاضرة في حلب، 1972. بحث علمي نشرته مجلة «نيتشر» في العام 1972، العدد 444 لنتائج أبحاث الفريق الألماني الذي ضم 6 باحثين في عددها 444 تحت عنوان: «الأنابيب الكربونية النانوية في السيوف الدمشقية القديمة».

(22) النانومتر: النانو الواحد يساوي جزءًا من ألف مليون جزء من المتر. مراجعة الأدب العلمي حول تحضير وتشخيص وتوصيف المواد النانوية العضوية المبنية على المركبات المعدنية: طواهر فاطمة وطواهر صبرينه، ص9.

يتضمَّن شرحًا عن حياة أسد الله الأصفهاني، حيث يذكر أن اسمه الحقيقي أسد اللّه، وأنه استعار هذا الاسم من صانع سلاح دمشقي هو أسد اللّه الدمشقي، كرمز لعلامة الجود في صناعة السيوف.

وكذلك يأتي الردُّ على هذا الرأي عبر المعلومات والأخبار التي ورد ذكرُها في بعض الكتابات لمؤرخي العصور الوسطى في أوربة، الذين أبدَوا إعجابَ الغرب بالسيوف الدمشقية ورهافتها، وانبهارَهم بمزاياها، ونقلوا إلينا محاولات الأوربيِّين للكشف عن التقنية التي اعتمدها الصناع الدمشقيون في صناعة الفولاذ الدمشقي، وَتمييزهم بينه وبين الفولاذ الهندي المعتمد في تصنيع السيوف الأوربية.

هذا إلى جانب تأكيد تلك المراجع على قيام الصُنَّاع الدمشقيين باستيراد الفولاذ الهندي، إضافة إلى استثمارهم لخامات الحديد المستخرج من المناجم في بلاد الشام (دمشق، الزبداني، بيروت، بشري، وعجلون)، في حين أكد الباحث غودال وآخرون أن النصال الدمشقية كانت تُصنع من الحديد المستخرج من مناجم كومو ساموندروم في جيد أباد، وكان التجار الفرس ينقلونه إلى دمشق، ومهما كان مصدر المعدن فإن العمليات التصنيعية اللاحقة هي التي كانت تُضفي على الفولاذ الدمشقي خواصه وسماته، حيث كانت تُنتقى الخامة الجيدة، ويتمُّ غسلُها وصهرُها مرة أخرى ضمن بواتق حجرية، باستخدام الفحم الخشبي، ومن ثم تُبرَّد ببطء، ويُعاد صَهرُها مرة أخرى بعد إضافة الكربون، وتُترك لتَتبرَّد ببطء للمرة الرابعة، قبل أن تؤخذ الخامةُ وتُحمى، حيث يتمُّ تشكيلها بالطَّرق وتُبرَّد بالتَسقية والتسخين المُتكرِّر، بهدف الحصول على النِّصال ذات التَّنسيمات المُميَّزة، التي أكسبتها شهرتَها التاريخية.

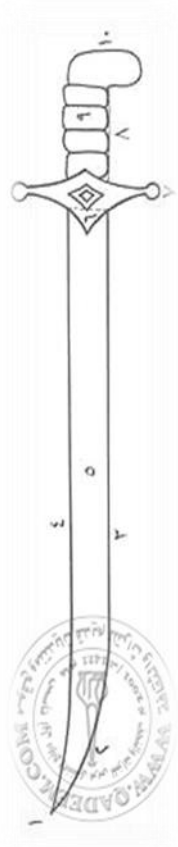

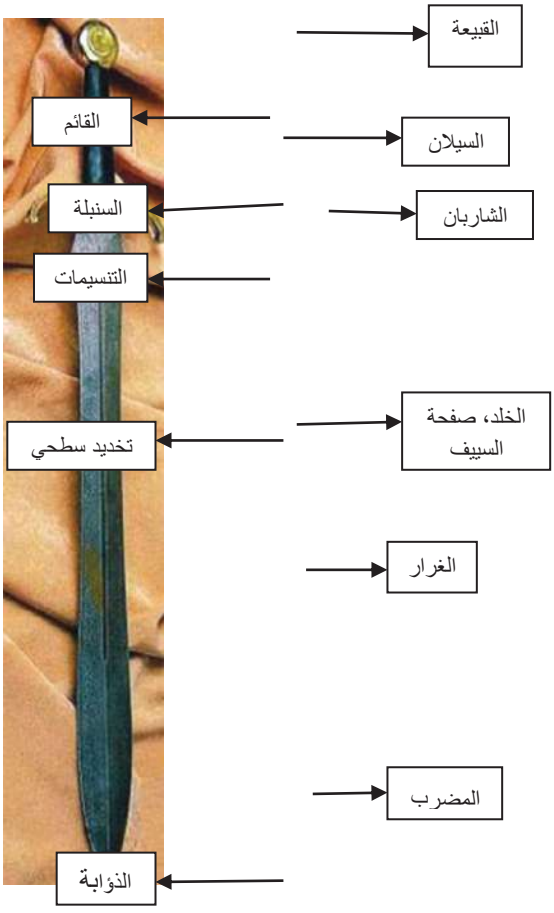

سيف دمشقي ذو تشكيل منحنٍ مع غمده

سيف من الطراز الدمشقي يحمل اسم الصانع أسد الله الدمشقي وتظهر على صفحته التنسيمات واسم الصانع

سيف دمشقي مع غمده صنع عام 1550م.

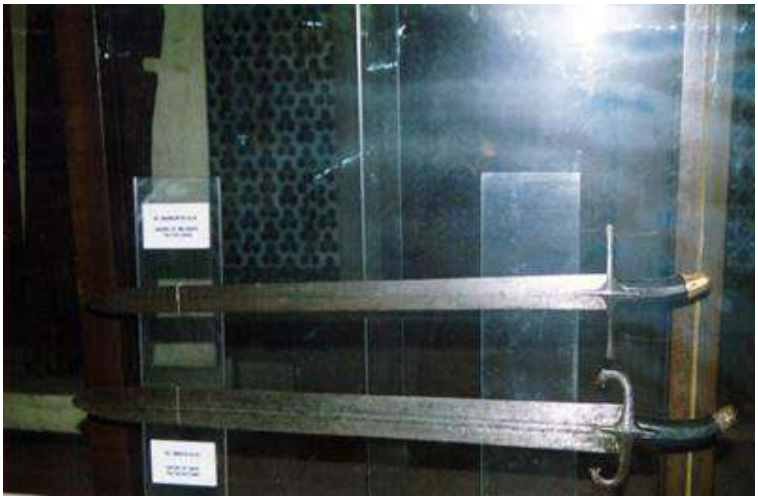

سيف الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب المعروف بذي الوشاح

مصادر البحث ومراجعه

- الجماهر في معرفة الجواهر: البيروني، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.
- السَّيف في العالم الإسلامي: زكي، عبد الرحمن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧ .
- السيوف الإسلامية وصناعتها : أونصال يوجل، نشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول. ترجمة تحسين عمر طه أوغلي الكويت ١٩٨٨م.
- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية: عاشور، سعيد عبد الفتاح عاشور، عبد الحميد، سعد زغلول والعبادي، أحمد مختار، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية القاهرة ١٩٩٦ .
- رسالة الكندي في عمل السيوف: دبدوب، فيصل، مطبعة العاني ٢٠١٦ .
- زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن قيم الجوزية: تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. ج١ ، ط ٣. مؤسسة الرسالة ١٩٩٨ .
- سر السيوف الدمشقية: فرهوفن، د . جون. مجلة العلوم، الكويت، مجلد ١٧ ، أغسطس- سبتمبر ٢٠٠١ .
- صناعة الفولاذ الدمشقي: الحسن، أحمد يوسف، محاضرة في حلب ١٩٧٢ .
- مراجعة الأدب العلمي حول تحضير وتشخيص وتوصيف المواد النانوية العضوية المبنية على المركبات المعدنية: طواهر فاطمة وطواهر صبرينه، ماستر أكاديمي جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الرياضيات وعلوم المادة- قسم الكيمياء ٢٠٢٢ .
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: الإدريسي، م١ ، القاهرة ٢٠٠٢ .

المعالم العلمية الكبرى في صالحية دمشق وأثرها على المدينة

الدكتور أسامة شحادة(١)

(1) طبيب وباحث في التاريخ والتراث الدمشقي.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحثُ جوانب من قصة مدينة صالحية دمشق، ولا سيَّما الجانبان العلمي والاجتماعي، إذ انتشرت في هذه المدينة مراكز العلم بكثرة، وفي كل مكان، ورافق ذلك ظهور علماء على أعلى المستويات، أغنَوا هذه المدينة بنشاطاتهم العلمية، وقد ركَّز البحث على أهم المعالم الكبرى في الصالحية، وما دار فيها من أنشطة علمية، وهي: المسجد المظفريُّ، والمدرسة العمرية، ودار الحديث الضيائية، ومدرسة الصاحبة، ودار الحديث الأشرفية، والبيمارستان القَيمريُّ.

تمهيد:

يجزم كثير من الباحثين أنَّ نشوء الصالحية وشهرتها إنما قام على العلم، فغدت الصالحية (مدينة للعلم)[٢]، ولعلَّ الكثير ممن كتب عن الصالحية ركَّز على دور المدرسة العمرية، وبحث في جهود الرعيل الأول من المؤسِّسين، ولكنَّ الباحث سيبسط جوانبَ من العلم ومسائله امتدَّت من أقصى غربها عند منطقة العَفيف، إلى أقصى شرقها عند منطقة ركن الدين حاليّاً.

ويُشير الباحث إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي ما ذهب إليه الباحثون من نسبة حي المدارس للعصر المملوكي، إذ شاع تحديدُهم له بالجهة الغربية من جامع الشيخ محيي الدين بن عربي، وهي المنطقة المعروفة اليوم بالشركسية، فالبحث سيُري منطقة جغرافية أوسع من هذا التحديد، وسيُقدِّم لنا حقائقَ عن قِدَم هذا الحي ليشمل العصرين الزنكي والأيوبي.

ويربط الكثير من الباحثين الازدهار الفكري في دمشق بدخول نور الدين إليها (٥٤٩هـ/١١٥٤م)، ومع أنَّ نور الدين ترك بصمته وأثمرت جهودُه، ولكن لا بدَّ من الإشارة إلى صحوة علمية عاشتها دمشق في العصر السابق لهذه المرحلة، نتلمَّس ذلك من تراجم ابن عساكر في تاريخ دمشق، كذلك تاريخ داريا[٣]، ومعه الذيل لابن الأكفاني – شيخ ابن عساكر- وهذه الحركة شهدتها المساجد، ثم تكلَّلت بالشيوع والانتشار من خلال بناء المدارس، ومن أهم مظاهر ازدهار الحياة العلمية في دمشق زمن نور الدين (٥٤٩- ٥٦٩هـ/١١٥٤-١٢٠٠م):

- قام السلطان نور الدين بترميم المساجد، وبناء الجديد منها، وذلك لإصلاح ما أفسدته الحروبُ المتتالية التي تعرَّضت لها دمشق وضواحيها، وقد أسهم العلماء في تنبيه نور الدين إلى أهمية المسجد، ورعايته للعلم وبثِّ الأمن في المجتمع، وعلى رأس هؤلاء خطيب داريا محمد بن محرز الوهراني، الذي نبَّه نورَ الدِّين من خلال رقعته عن المساجد[٤]، وفعلاً قام نور الدين بأعمال جليلة أعادت الحياة لهذه المساجد.
- لعلَّ من أهم المظاهر التي رافقت ازدهار الحركة العلمية، وكانت عنوانها، بناء المدارس والمؤسسات وتنوُّع اختصاصاتها، وهو الذي شاع ليشمل البلد وخارجَها ولاسيَّما الصالحية، ومن أهم هذه المدارس داخل

(2) هذا ما عَنون الدكتور شاكر مصطفى كتابه عن الصالحية وآل قدامة.
(3) تاريخ داريا: الخولاني عبد الجبار.
(4) والرقعة جزء من كتابه (جليس كل أنيس)، وقد نشرها المنجد في مجلة مجمع اللغة العربية.

دمشق:

– دار الحديث النُّورية: أنشأ هذه الدار السلطان نورُ الدين، وهي تختصُّ بعلم الحديث – روايةً ودارية – وتُعَدُّ هذه الدارُ أولَ دار للحديث الشريف في دمشق[٥].

ويؤكد ابن الأثير هذه الحقيقة بقوله: ((وهو أوَّلُ مَن بنى داراً للحديث فيما علمناه))[٦]، وقد ترافق وجود هذه المدرسة بتولية التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ ابن عساكر، مُؤرِّخ الشام، وأحد أبرز علماء النهضة فيها.

ويضاف إلى المدارس نوعٌ آخر جمع العلم والعبادة، وهذا النوع هو الخوانق والرُّبُط، ومن أهمها في دمشق:

– الخانقاه السُّميساطية: وسُمِّيت بذلك نسبة لأبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السليمي السُّميساطي (ت٤٥٣هـ/١٠٦١م)، تولَّى مشيختها زمن نور الدين الوزيرُ أبو المظفر الفلكيُّ[٧].

– خانقاه القصر: وقد وصفها ابنُ جبير في رحلته، وأنَّها من أعظم ما شاهدَ للصُّوفية[٨].

وإضافة إلى المدارس والخوانق والرُّبط وُجدت مراكزُ لتعليم الصغار اليافعين، وهذا ينمُّ عن العناية بالتربية وتنشئة الجيل، وعُرفت هذه المراكز بـ(الكتاتيب)، وبعضُهم أخذ حيِّزاً من طرف المسجد أو غُرَفاً مُلاصقة، ومنها الحلقة الكوثرية والمجتمع السُّبعي، وهذان المركزان في المسجد الأموي، بل إن بعضَ هَذه الكتاتيب خُصَّ بها المحتاجون والأيتام، فعُرِفَت بـ(مكاتب الأيتام) أو (مكاتب السبيل).

يقول ابن عساكر: ((ونصَّب جماعةً من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاقَ على معلميهم وعليهم بقدر ما يكفيه)).

- المظهر الآخر من مظاهر ازدهار الحركة العلمية هو انتشار المكتبات، ولا يخفى ما لأهمية هذا الجانب الذي يُعَدُّ بحقٍّ مقياساً لتطوُّر المجتمع، ولا سيَّما في عصر كان النَّسخُ هو السبيل الوحيد لنشر المعرفة، وعُرفت هذه المراكز بـ(خزائن الكتب أو المكتبات)، وكانت سياسة نور الدين تزويد كلِّ مؤسسة ومركز بمكتبة قيمة، وأوقف عليها الأوقاف، ولهذا ألمع ابن عساكر: ((إنّه حصَّلَ الكثيرَ من كتب العلوم، ووقفَها على طلابها، وأقام عليها الحفظةَ)).
- رعاية العلم والمعلّمين بدءاً من المؤدِّب – وهو المختص بتعليم الصغار – وانتهاءً بالمدرسَين في المدارس والمعيدين المساعدين لهم، ورعاية الشخصيات البارزة من العلماء، وفتح المراكز العلمية لهم.
- من هذه المظاهر الجَليّة ظاهرةُ نشر العلم عند المرأة، فقد أسهمت

(5) خطط دمشق: أكرم العلبي، ص90.
(6) التاريخ الباهر: ابن الأثير، ص 172، وينظر عنها: منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص-58 ص60.
(7) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج15، ص224.
(8) ابن جبير: الرحلة، ص257.

المرأة في عصر نور الدين بدفع الحياة العلمية وبنائها، وقد أمدَّتنا المصادر بأسماء الكثيرات ممَّن برعْنَ في العلوم المختلفة، وحصَلْنَ على الإجازات، حتى إنَّ ابن عساكر العالم الكبير (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) أخذ العلم من كثير من الشيوخ، وكان عداد شيوخه من النساء (بضعًا وثمانين) امرأة[٩]، ومن أشهر النساء ستُّ العجم فاطمة بنت علي، المعروفة بالعالمة الصغيرة.

- ولم تقتصر العناية على العلوم الشرعية فقط، بل امتدَّت حتى شملت العلوم الكونية والإنسانية، ومن أهم هذه العلوم الرياضيات والفلك، وقد برزَت الموصِل فيهما، وكان تأثيرُها في العاصمة دمشق كبيراً، وكذلك ازدهر علمُ الطبِّ والصيدلة، ومن أهم هذه المراكز: البيمارستان النوري الذي برز فيه الطبيب أفضَلُ الدولة أبو المجدِ محمد بن أبي الحكم (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م)[١٠]، وجعل على الصيادلة نقيباً عُرف بـ(رئيس العشَّابين).
- استقبلت دمشقُ خلال هذا العصر العلماءَ من كل أقطاب الدنيا، وأدَّى ذلك لتنوُّع الأفكار والمشارب، ومن أشهر هؤلاء العلماء الحافظ السمعاني والحافظ أبو طاهر الأصبهاني السِّلفي.
- ومن أهم المظاهر رعايةُ الأوقاف والأحباس، وهو يمثل عاملاً مهمّاً في ازدهار الحياة في العصر الزنكي وغيره من العصور، فبعد أن ضاعت وسُلبت حُوفظ عليها، وتمَّ تنميتُها والتدقيق في طرق صرفها، فأثَّر ذلك في ازدهار المجتمع عامة.

حاول الباحث في هذه الخلاصة تلمُّسَ مظاهر ازدهار الحياة الفكرية في هذا العصر، وهو ما سيبسطه تفصيلاً ويُخصِّصُه في الصالحية، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الباحث ركَّز على العصر الزنكي بدمشق؛ لأنه النواة والانطلاقة، ولا سيَّما عند مجيء المقادسة وبنائهم للصالحية، ولكنْ لا بدَّ من الإشارة إلى أن هذه المظاهر بقي جُلُّها مرعيًّا في العصر الأيوبي، ولم يتمَّ استقصاء كل جوانب الازدهار، لأنَّ أحوال دمشق ليست من صميم البحث وإنما توطئة له.

ويُلخِّص الباحثُ أسباب هذا الازدهار في العصرين الزنكي والأيوبي:

١- التشجيع الكبير الذي لقيته الحركة العلمية من قادة دمشق، ولا سيَّما نور الدين، ثم صلاح الدين ومن بعض السلاطين الذين حكموا بعد صلاح الدين.

٢- كان هؤلاء السلاطين علماء أيضاً جلسوا في مجالس العلم، وتلقَّوا العلوم، وقد جلس نور الدين لتلقي العلم، وكذلك صلاح الدين، ومن أخبار البيت الأيوبي نجد كثيراً من الملوك علماء، ومن أشهرهم الملك المعظَّم عيسى.

٣- تنافس بعضُ الوزراء والقادة والأغنياء في تلقِّي العلم، وفي الإنفاق على بناء المدارس والمراكز العلمية الأخرى، ورعاية أهل العلم.

(9) معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج13، ص76.
(10) ينظر حول البيمارستانات: بيمارستان نور الدين: صلاح الدين المنجد. والبيمارستانات في دمشق: إلهام محفوض.

٤- توجيه قدرات الوقف في رعاية المؤسسات التعليمية، ونشر هذه الثقافة بين العامة.

٥- توجُّه أساطين العلم الكبار إلى دمشق للإقامة فيها أو للرحلة لطلب العلم ثم العودة لبلادهم، وهذه الظاهرة تحتاج إلى بحث مستقل، فدمشق في العصرين الزنكي والأيوبي شهدت وجود المئات من الأعلام من المقادسة إلى جانب العلماء القادمين الذين أثَّروا في حياة دمشق وتأثَّروا بها من أمثال: الحافظ الأصبهاني السِّلفي - نسبة إلى بني سِلفة -، وقد عُمِّر قرناً من الزمان، وقدم دمشق سنة (٥٠٠هـ/١١٠٧م)، وروى عنه العلماء.

ومن هؤلاء العلماء الأديب والمحدِّث والطبيب والفلكي والرياضي والفرائضي، ومنهم المناظر والفيلسوف، وكل ذلك جعل من دمشق واحدةً من أهم مراكز العلم في ذلك العصر.

أولاً - المسجد المظفري:

هذا الجامع هو المؤسسة العلمية الكبيرة، وهناك خلاف بين الباحثين هل هو أقدم أم المدرسة العمرية، وقد نتج هذا الخلاف عن الخلط بينه وبين المسجد العتيق، أما العمرية فهي أقدم من الجامع المظفري، وقد عُرف بأسماء أربعة هي:

١_ الجامع المظفري: نسبة لبانيه السلطان مظفر الدين كوكبوري، وهذه التسمية هي أقدم تسمية للجامع وأكثرها استعمالاً عند المؤرخين، كالبرزالي وابن كثير والذهبي والنعيمي[١١]، وهذه التسمية كانت شائعة عند أهل الصالحية، إذ تُبيِّن السماعات على الكتب المقروءة في الجامع هذه التسمية أكثر من غيرها[١٢].

٢_ جامع الجبل: وذلك نسبة للموقع، حيث يقع في سفح جبل قاسيون، وهذه التسمية وردت عند المؤرخ ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) في الأعلاق الخطيرة[١٣]، ثم وردت عند النعيمي[١٤]، ونقل أبو شامة

الجامع المظفري (الحنابلة)

(11) الجامع المظفري: أحمد فائز الحمصي، مجلة الحوليات الأثرية، مجلد 35، ص256.
(12) ينظر: جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، ص21.
(13) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد، قسم دمشق، ص86.
(14) الدارس: النعيمي، ج2، ص335.

المعاصر لبناء هذا المسجد من سبط ابن الجوزي قوله: ((وفيها - أي سنة ٥٩٨هـ - شرع الشيخ أبو عمر بن أحمد بن قدامة شيخ المقادسة - رحمه الله - في بناء المسجد الجامع بالجبل))[١٥].

٣_ جامع الحنابلة: وهو الاسم الشائع اليوم لمن يزور الصالحية، وسُمِّي كذلك حسب تخصيص الوقف.

٤_ جامع الصالحين: نسبة لمؤسِّسيه وما عرفوا به من صلاح في سيرتهم.

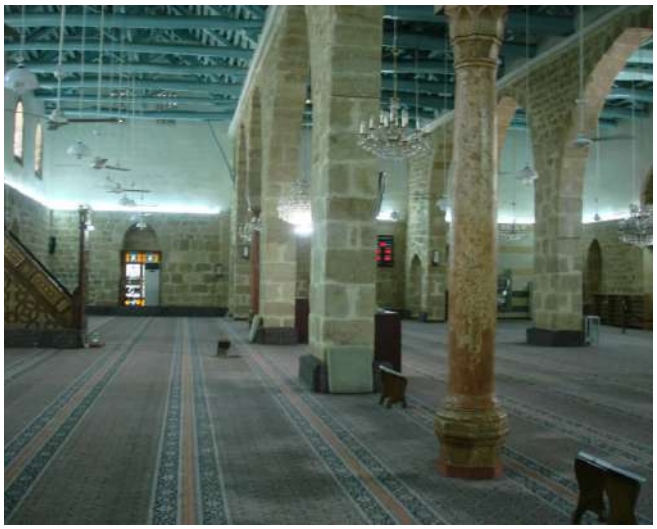

حرم الجامع المظفري (الحنابلة)

يقع الجامع اليوم في الصالحية، في حيٍّ عُرف بأبي جرش - زقاق الحنابلة - إلى الشمال فيما يُسمَّى اليوم بسوق الجمعة.

ومثَّل بناء الجامع المظفري (الحنابلة) بُعداً عمرانيّاً واجتماعيّاً، فتَذكر الروايات القريبة من عصر بناء هذا المسجد - ولا سيَّما أبو شامة[١٦] وابن كثير[١٧] - أنَّ العمل به بدأ سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، إذ شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة في بناء المسجد الجامع بالسفح، وتذكر الرواياتُ أنَّ بانيه الذي أنفق المال لبنائه هو أبو داود محاسن الفامي، وتفرَّد ابن شدّاد بتسميته فقال: ((أوَّلُ مَن خطَّهُ الحاج علي الفامي من محلة مسجد القصب خارج باب السلامة))[١٨].

ونُركِّز الآن على حركته العلمية المتمثِّلة بدور الخطيب والإمام والمدرسِّين واستقبال طلبة العلم، وهي كما يأتي:

_ تولَّى الإمامُ أبو عمر المقدسي - المشرف على بنائه - الخطابةَ والإمامةَ معاً، وكان الخطيب هو الموجِّه والمؤدِّب والمدرِّس، مع وجود مركز آخر له هو المدرسة العمرية، وقد وصفت المصادر حال أبي عمر في الجامع، فقد كان يصعد المنبر، وعليه ثوب خام مهدول الجيب وفي يده العصا، والمنبر يومئذ ثلاث مراق[١٩]، وكان إذا خطب تَرِقُّ القلوب، ويبكي بعضُ الناس بكاءً كثيراً، وكان ربما أنشأ الخطبةَ وخطب بها[٢٠]، وخلفه أخوه المُوفَّق في خطابة الجامع، وخطب في هذا الجامع بعد الموفق: ابنه عيسى بن الموفق (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، وسمع بدمشق وبغداد ومصر، كان خطيباً محبوباً إلى الناس، ولي الخطابة والإمامة بالجامع، وسعى في مصالحه وحافظ على أوقافه[٢١].

(15) المذيل على الروضتين: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، ج1، ص117.
(16) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص117.
(17) البداية والنهاية: ابن كثير، ج 13، ص32.
(18) الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، قسم دمشق، ص 86.
(19) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص215، جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، ص64، والمقصود بالمراقي الدرجات، وهو ما تغير فيما بعد.
(20) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج22، ص8.
(21) التكملة لوفيات النقلة: المنذري، ج 2، ص449، تاريخ الإسلام: الذهبي، ص254.

ـ شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ أبي عمر (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[٢٢]، خطيب جامع الجبل، ورحل في طلب العلم، قال عنه الحافظ الضياء: ((كان فقيهاً فاضلاً، ديِّناً ثقة)) والضياء أرَّخ له ولوفاته ثم مات بعده بأسبوع (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

ـ عزُّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، خطيب الجامع المظفري، الإمام الزاهد الصالح القدوة، قال عنه ابنُ الخباز: ((كان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه، وتذلُّله وانكساره، وله أدعية تُحفظ عنه، وكان أمَّاراً بالمعروف ونهّاءً عن المنكر))[٢٣].

ـ عبد الرحمن بن أبي عمر (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) الزاهد الخطيب، قاضي القضاة، وُلد بدير المقادسة، وقال عنه الإمام النووي: ((هو أجل شيوخي))[٢٤].

ـ ومن خطباء جامع الحنابلة ابنُ الشيخ أبي عمر الخطيب شمس الدين عبد الله بن محمد المقدسيُّ الصالحي[٢٥]، وتفقَّه على والده وعمه الموفق، وخرَّج له الحافظ الضياءُ جزءاً عن جماعة من شيوخه، وخطب بجامع الجبل مدّةً، وكان شيخاً حسناً يُشار إليه بالعلم والدِّين، والورع والزهد وحُسن الطريقة وقلّة الكلام، وتوفِّي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

نستطيع تلمُّس الدَّور العلمي لهذا المسجد من خلال تراجم خطبائه وأئمته والمدرسين فيه، ومن خلال السَّماعات الَتي رافقت الكتب والمجاميع التي وصلت إلينا[٢٦].

وفي هذه السماعات سمع الصغار من الكبار- والكبار من الصغار - وسمع الأب مع ابنه أو ابنته.

وفي هذا الجامع صلَّى الحنابلة وغيرُهم، ووفد العلماء ممَّن هم على مذهبهم أو من غير المذهب، وهنا يظهر من محتوى هذا السماع أسماءُ مَن استمع لهذا المجلس، ويُقدِّم السَّماعُ معلوماتٍ مُهمّةً عن أعمارهم وأنسابهم واسم كاتب هذا السماع.

وهناك ظاهرة علمية رائعة هي تعدد الشيوخ، فجزء فيه حديث الحوراني سُمِع على ستة شيوخ في عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م في الجامع المظفري[٢٧].

ومن مظاهر التدريس في هذا الجامع وجود المعيد الذي يقرأ على الشيخ والشيخ يشرح، وهناك من يدوِّن السماع.

وثمة ظاهرة علمية أرَّختها الحركةُ العلمية في هذا المسجد، وهي تحوُّل التلميذ إلى أستاذ، فالإمام عبد الرحمن بن أبي عمر سمع مجالس ابن سمعون على الإمام زيد الكندي بهذا الجامع

(22) ترجمته في: المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج2، ص74.
(23) الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج 2، ص277.
(24) تاريخ الإسلام: الذهبي، ترجمة 106-113.
(25) ترجمته في: الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج 3، ص 510.
(26) قام محمد مطيع الحافظ بنشر الكثير من هذه السماعات، ولكن ما نشره لا يتعلق جميعه بالجامع المظفري، وإنما ذكر أغلبه أنه في جبل قاسيون، ينظر جامع الحنابلة: الحافظ، ص 77- 89-101، وغيرها.
(27) الظاهرية مجموع (87، ق، 74)، نقلًا عن جامع الحنابلة: الحافظ، ص101-102.

سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، ثم عاد هذا الإمام ودرَّس هذا الكتاب سماعاً سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، أي بعد (٧٥سنة)[٢٨].

وفيما يأتي نموذج لأحد المجالس العلمية في جامع الحنابلة:

(سماع الإمام أبي عمر وغيره للفوائد الحسان العوالي من حديث أبي عمر السمرقندي على الشيخ عمر بن طبرزد بالجامع المظفري سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م)[٢٩]:

سمع هذا الجزء على أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد، بقراءة شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح: الإمامُ الزاهدُ أبو محمد بن أحمد بن قدامة، وولداه أحمد وعبد الرحمن، وأحمد بن الفقيه الإمام الحافظ أبي الفتح محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد، وأبو العباس أحمد بن عبد الواحد، ووالده علي، ومحمد بن عبد الملك بن يوسف، وابنا أخيه محمد وعبد الرحيم ابنا عبد الملك، ومحمد وعبد العزيز وعبد الله بنو عبد الملك بن عثمان، وأبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن عبد الله، وأخوه أحمد، ومحمد بن أحمد بن سالم، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار، وابناه فاطمة وحضر أحمد في السنة الرابعة، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الجبار، وأولاده أحمد وإسماعيل وإبراهيم وهو في السنة الثانية، وأحمد بن كامل بن عمر وولده عبد الله، وعبد الله بن عبد الهادي بن يوسف، وأخوه عبد الرحمن المقدسيون، وبيان بن عثمان بن محمد الحنبلي، ومحمد بن شيبان بن تغلب، وغازي بن إبراهيم بن مبادر العرضي، وبراق بن مشعل بن برق، وأخوه خضر وابن عبد الله عتيق الحاج يوسف بن حسان، ونصر بن موسى بن عياش المصري، وأبو الفتح عثمان بن أسعد بن المنجي التنوخي، وابنه أبو الفتح أسعد وأحمد بن كتائب بن مهدي، ومحمد بن عباد بن خفاجة، ومحمد بن عبد الحق بن خلف، وإبراهيم بن محاسن بن عبد الملك التنوخي وهو في السنة الثالثة، ومحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، وأحمد بن عبد الملك المقدسي ،والخط له في الأصل في يوم الجمعة ثاني عشرين.

ويمكن الأخذ من هذا السماع:

١- العالم الذي سُمع عليه الجزء هو ابن طبرزد.
٢- القارئ في المجلس هو الشهاب محمد بن خلف بن راجح قريب آل قدامة.
٣- سمع في هذا المجلس الكثير من العلماء، ذُكر منهم في هذا السماع أكثر من أربعين طالب علمٍ بأعمار مختلطة وبقرابات مختلفة متنوعة.
٤- ذُكر في السماع حضور الأخ مع أخيه، والأب مع ولده أو مع أولاده، والعم مع أبناء أخيه.
٥- ذُكر في السماع وجود طلاب علم من آل المنجا التنوخيين، وهو إشارة مبكرة لعلاقتهم بالصالحية نزولاً وسكناً وتملُّكاً.
٦- دلَّ السماع على وجود طلاب علم من غير آل قدامة، وقد يكون من غير المقادسة الجماعيليين، وهذا يدلُّ على التنوُّع السكاني المبكر كوجود المصري والعرضي وغيرهما.

(28) يُراجع الظاهرية المجموع (117ق 180، وق 167). السماع في: جامع الحنابلة: الحافظ، ص113.
(29) الظاهرية مجموع 10(3747)، (ق 66-75). وقد نُشر في: جامع الحنابلة: الحافظ، ص77.

صحن الجامع المظفري (الحنابلة)

٧- أشار السماع إلى وجود الأطفال ممن عمره أربع سنوات، ومنهم مَن كان عمره سنتين، وآخر عمره ثلاث سنوات، وهذه الظاهرة تستحق الدراسة الخاصة، وكان لها تأثيرها في أجيال قادمة من سكان الصالحية.

٨- دلَّ السماع على وجود نساء أو بنات في هذا المجلس.

٩- أشار هذا السماع إلى تملُّك لهذا الجزء، وهو نسخة بخط أحمد بن عبد المَلك المقدسي، وهنا يدلنا هذا السماع وغيره على أسماء قد لا ترد في كتب التراجم وهي تحتاج إلى دراسة خاصة.

١٠- كان هذا المجلس سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) في هذا الجامع.

_ من مجالس العلم الدورية في هذا المسجد الدرس الذي اعتاده الإمام محمد بن خلف بن راجح المقدسي (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م)، إذ خصَّص درسَه قبل صلاة الجمعة، وقد شهده أبو شامة ووصفه قائلاً: ((كنتُ آراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر بجامع الجبل، وبيده كتاب من كتب الحديث أو أخبار الصالحين يقرؤه على الناس إلى أن يُؤذِّنَ المُؤذِّنُ للجمعة))[٣٠].

أما العلماء الذين درَّسوا في هذا الجامع فهم لا يُحصَون عدداً، وقد ذكرت السَّماعاتُ الكثيرَ من أسمائهم ومجالسهم.

_ ومن المظاهر الرائعة في هذا الجامع وجودُ مجالس السماع الجماعي على الشيوخ والشيخات، وذلك باشتراك عدد من الشيوخ أو الشيخات في مجلس واحد لإسماع كتاب في الحديث الشريف وغيره، وهي طريقة فريدة تميَّزت بها الحركة العلمية في الصالحية، وتدلُّ على الانفتاح لدى العلماء والبعد عن التعصُّب والأنانية، وتُعطي الباحثَ صفةَ الموسوعية والتعدُّدية، ويتمُّ ذلك بأن يقرأ أحد الطلبة والبقية تحضر سواء من الطلاب أو العلماء، ووجود الشيخات ينمُّ على حالة من الوعي بعد أن كانت الرواية عنهنَّ في البيوت، ومثال عليه السماعُ لكتاب (مجلس البطاقة من أمالي حمزة الكناني)، وكان على ثلاثة عشر شيخاً وشيخة[٣١].

_ كانت مجالس العلم في الجامع المظفري تُشبه محاضرات علم في الجامعات اليوم، أو تُشبه ما تعارف عليه العلماء اليوم من الطريقة (الأزهرية)، من وجود قارئ على الشيخ الذي يكون من أهل الصالحية، أو من الذين نزلوها مدة طويلة، أو ممَّن ارتادَها للتدريس أو التلقِّي، ويمكن تفصيل هذه المجالس على الشكل التالي[٣٢]:

(30) المذيل على الروضتين: أبو شامة، ج1، ص346.
(31) الظاهرية (955)، (ق 184، صأ). وينظر: الحافظ: جامع الحنابلة: الحافظ، ص440.
(32) مصادر هذه الملحوظات هي مئات السماعات التي وُجدت على المخطوطات والأجزاء قام بنشرها محمد مطيع الحافظ في كتابه: جامع الحنابلة، وقد نشر أكثر من (200) سماع تمثل مادة غنية للحياة العلمية.

ـ تفاوت عدد الحضور بين بضع أفراد أحياناً ومئات الحاضرين في أوقات أخرى.

ـ تنوُّع الشيوخ بأصولهم واهتماماتهم.

ـ ظهر الكثير من القُرَّاء والكُتَّاب.

ـ سَمع في هذه المجالس الكبارُ من أهل العلم، وهذا يدل على تواضع العلماء.

ـ حضر الأطفال الصغار ممن هم دون سن الخامسة، ويُسمَّى تلقِّيهم (حضوراً) لا (سماعاً).

ـ كان للمرأة دور كبير على صعيد التلقِّي والتدريس.

ثانياً- المدارس:

وافقَت الصالحيةُ بتأسيسها ظاهرةَ انتشار المدارس في العالم الإسلامي عامة ودمشق خاصة، ولا سيَّما على يد السلطان نور الدين محمود بن زنكي، ثم على يد السلطان صلاح الدين، وكذلك على يد الأمراء والسلاطين الزنكيين والأيوبيين ومَنْ عاصرهم.

إذ ضمَّت دمشق خلال العصرين الزنكي والأيوبي عشرات المدارس، التي اختصَّ بعضُها بالحديث، وبعضُها الآخر بالفقه، إما على مذهب واحد أو على المذاهب الفقهية الأربعة أو بعضها[٣٣].

وبدهيٌّ أن تتأثَّر الصالحية التي قامت على أساس العلم بهذا الواقع، فبرعت ببناء هذه الصروح العلمية، ومنها:

١- المدرسة العمرية:

عُرفت بالمدرسة العمرية نسبة لبانيها وواقفها الشيخ أبي عمر، وعُرفت كذلك بالشَّيخية أو الشيخة، فالشَّيخية نسبة إلى لقب المؤسِّس الذي عرف بـ(شيخ الإسلام)، والشَّيخة: لأنها شيخة المدراس وأعظمها من حيث السَّعة والحركة العلمية.

ضمَّت العمرية أقساماً عديدة للحديث والفقه والقرآن، وما قيل في فضلها ومكانتها نابع من دورها العلمي والاجتماعي، وهنا سنبرز دورَها العلمي.

وصفَها العلماء ومنهم: ابن عبد الهادي الصالحي: ((هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها))[٣٤].

أ_ ترجمة بانيها وواقفها(٣٥):

بنى هذه المدرسة وأوقف لها الإمامُ العالم الفقيه المقرئ المحدِّث أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجمّاعيلي (٥٢٨ – ٦٠٧هـ/١١٣٤-١٢١٠م)،

(33) إضافة لكتب التاريخ والتراجم التي أرَّخت لمثل هذه المراكز هناك كتب اختصَّت بذكر المدارس، ومن أهم المصادر في ذلك: الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، الدارس: النعيمي، منادمة الأطلال: عبد القادر بدران.

(34) الدارس: النعيمي، ج2، ص111، وابن عبد الهادي أحد أحفاد المقادسة، وهو مدرس من متأخِّري علمائها زمناً (ت 909هـ)، وهو شيخ ابن طولون مؤرخ الصالحية.

(35) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج 22، ص 5، وينظر: الذيل: ابن رجب، ج3، ص 108، المذيل: أبو شامة، ج1، ص213، البداية والنهاية: ابن كثير، ج13، ص58، وله مصادر كثيرة، وكثير منها نقل عن الضياء، فقد ترجم له سيرته ومناقبه.

من بقايا المدرسة العمرية

لَقَّبه الذهبيُّ بـ (البركة) و(وشيخ الإسلام) و(الزاهد)، وهذه الألقاب تُشير لمكانته وعلمه، وُلد أبو عمر سنة (٥٢٨هـ) بقرية جمَّاعيل من أعمال نابلس، وهاجر مع أبيه كما مرَّ، وأسهم معه في بناء الصالحية، وكان قدوةً صالحاً عابداً، وكان مرجعاً في الصالحية ودمشق، قال الموفَّق: ((ربانا أخي، وعلَّمنا، وحرص علينا))، وأخباره ومواقفه الاجتماعية وتأثيره في مجتمع الصالحية تناثرت في ثنايا كتب التراجم.

توفِّي عشية الإثنين في ٢٨/ربيع الأول سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) وكانت جنازته كبيرة.

ب ـ دور المدرسة العلمي:

مثَّلت المدرسة العمرية دور المؤسسة العلمية المتكاملة، ولم تقتصر على الدور العلمي، وإنما تعدَّته لتشمل جوانب اجتماعية أخرى، ولأهمية مكانتها ذُكر في فضلها الكثير نثراً وشعراً، فما أورده ابن طولون بقوله ومما يُنقل في ترجمتها من الفضل: ((أنها تنفي الخبثَ، فلا تدع فيها مفسداً إلا نفته وأخرجته، وأنه لا يدخلُها أحد إلا بشفاعة، ولا يخرج منها أحد إلا بذنب، وأنها لا تخلو من الصالحين))[٣٦].

وممَّا يدل على قيمتها العلمية، قيام الشعراء بوصفها شعراً، ومن ذلك ما نقله ابن طولون[٣٧].

وأما دورها العلمي فمثَّلت العمريةُ دورَ الجامعة أو الأكاديمية بكل ما فيها من أقسام وأهمها:

(36) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمد بن طولون، ص270
(37) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 514-516

– مكان التدريس.
– غُرف السكن الجامعي للطلاب القادمين من خارج الصالحية.
– المرافق العامة كالمطبخ والحمام والمياضئ.
– المكتبة الضخمة التي تلبِّي هذه الحركة العلمية.
– الأوقاف التي ترعى سير العملية التعليمية.
– الهيئة الإدارية التي تُنظِّم سير العملية التعليمية.
– الأنشطة والتفاعل مع البيئة والمجتمع.
– استقبلت المدرسة المئات من طلاب العلم، واحتضنت العلماء، ونظمَّت الدروس في جوٍّ يُعَدُّ من الأجواء الفريدة في الحضارة العربية الإسلامية[٣٨].
– سخَّان الماء.

ج ـ مناهج المدرسة:

المقصود بهذه المسألة سيرُ العملية التعليمية، فتنفيذ المناهج (methods) يعتمد على الطالب والأستاذ والمقرِّر أو المادة العلمية التي يتمُّ تلقيها أو مناقشتُها.

– أما المُدرِّس، فالبحث في أسماء الشيوخ وأعمارهم وانتماءاتهم البلدانية والفكرية يحتاج إلى دراسة مستفيضة، ولاسيَّما أن كتب التراجم والسماعات على المخطوطات التي وصلت إلينا تُقدِّم لنا مادةً ثرّة.

وبالإجمال يمكن القول إنَّ كل مقدسي نزل الصالحية زائراً أو مقيماً نال حظّاً من التلقِّي بوصفه تلميذاً، أو مارس العمل بوصفه أستاذاً، وفي هذه المدرسة أيضًا حلَّ الكثير من العلماء الذين قدموا دمشق أو كانوا دمشقيِّين، فنرى في كتب التراجم عبارة (روى في البلد وفي الصالحية).

ومن أشهر مُدرِّسيها وأقدمهم:

الحافظ العلامة الشيخ عبد الغني المقدسي، فقد أرَّخ ابنُ شداد لتدريسه فيها بقوله: ((أول مَن ذكر بها الدرس: الشيخ تقيُّ الدين ثم من بعده ولده عزُّ الدين))[٣٩]

والذي يُتوقَّف عنده من هذا النص هو السؤال: لمَ لمْ يكن أبو عمر أول المُدرِّسين فيها، ولاسيَّما أنَّه هو المؤسِّس؟ ولعل الجواب عن ذلك يكون من وجهين:

الأول: أنَّ من ذكر مُدرِّسيها لم يذكرهم على صعيد الاستقصاء، ولاسيَّما أنَّ الشيخ كان عالماً بالفقه والفرائض والنحو[٤٠].

والثاني: ربما شغله ارتباطه الاجتماعي والرسمي عن القيام بمهمة التدريس، فهو الذي قام بشؤون المقادسة، وكان مرجعَهم، وشارك في جهاد الفرنج، وبعد التحرير حمل همَّ الصالحية وهمَّ بلده جماعيل[٤١].

(38) المدرسة العمرية: محمد مطيع الحافظ، ص 342، وقد قدَّر ما استوعبته من طلاب بألفي طالب.
(39) الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، ص259.
(40) مناقب أبي عمر للضياء المقدسي (نُشر ضمن المدرسة العمرية) لمطيع الحافظ، ص62.
(41) مناقب أبي عمر: الضياء المقدسي، ص63.

ومن مسؤولياته التي شغلته تولّيه نظر أوقاف هذه المسؤولية والإشراف عليها، وهي مهمة تشبه مهمة مدير المدرسة التربوية والمالية.

ومن مدرسي العمرية الفقيه عزُّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان المقدسي[٤٢](ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) الذي سمع من عمر بن طبرزد وتفقّه في المذهب، ودَرَّس بمدرسة الشيخ أبي عمر مدَّة، وحَدَّث، وهو تلميذ الموفق بن قدامة، وقد نقل الذهبي من خط الضياء تدريسه في العمرية، وقال عنه الضياء: ((وكان ديِّناً خيِّراً ودُفن بتربة خال أمه الشيخ الموفق)).

وتولَّى التدريس في هذه المدرسة علماء من غير أسرة آل قدامة، منهم الفقيه عزُّ الدين عبد العزيز بن عبد الملك المقدسي، الحنبلي، تلميذ الموفق، (ت ٦٣٤هـ)، وقال عنه الضياء: ((وكان إماماً عالماً فطناً، ذكيّاً، وقد ألقى الدرس مدةً بمدرسة شيخنا أبي عمر وكان ديِّناً خيِّراً))[٤٣]، وتولَّى التدريس في هذه المدرسة فقيه حنبليٌّ شافعي هو نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي، وهو سبط الإمام أبي عمر، لأن والدته آمنة هي ابنة الشيخ (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، وقد دَرَّس هذا العالمُ في عدّة مدارس بدمشق وبالجبل[٤٤].

ومن المُدرِّسين الأكفاء في هذه المدرسة قاضي الجبل الإمام شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) – ابن مؤسس المدرسة –، وقد لُقِّب بـ(شيخ الإسلام)، وكان عالماً بالفقه، شرح كتاب (المقنع) لعمِّه الموفق بعشر مجلدات، وقد تناثرت سيرته في هذه الدراسة ولا سيَّما في القضاء والنتاج العلمي.

أما الطلاب فقد تمتَّعوا برعاية كبيرة على الصعيد المادي والعلمي والنفسي.

ـ الجانب المادي؛ فقد تجلَّى من خلال تخصيص الأوقاف والرعاية والطعام والمبيت والكتب المنسوخة لهم وأحياناً النفقة.

ـ أما الجانب العلمي فقد تجلَّى تأمين المدرسين الأكفاء لهم، ومن خلال المكتبة الضخمة التي ضمَّتها المدرسة.

ـ وتمَّ الجانب النفسي: من خلال التَّرحاب الذي لقيه كلُّ من دخل الصالحية وافداً، ومن خلال الاهتمام بالصغار وتحمل لعبهم والحرص على حضورهم لمجالس العلم، وبعضُهم لم يُتِمَّ الثالثة من العمر.

تمحورت المادة العلمية المدروسة حول ما حمله العلماء من علوم ومصنفات، ويرى بعضهم: ((أنّ أبا عمر أسَّس مدرستَه لتعليم القرآن والفقه الحنبلي))[٤٥]، إلّا أنَّ الواقع العمليَّ لا يتوقَّف عند هذا الأمر، بل إنَّ هذه المدرسة اعتنَت بكل فنون العلم، ولاسيَّما الشرعي منه، ولم تكن هذه التقسيمات في هذه المرحلة، ولعلَّه من الإنصاف التأكيد على أن المنحى المتَّبع في قراءة الفقه

(42) تاريخ الإسلام: الذهبي، 198، الذيل: ابن رجب، ج3، ص463.
(43) الذيل: ابن رجب، ج 2، 216، تاريخ الإسلام: الذهبي، (وفيات 634هـ)، الدارس: النعيمي، ج2، ص106.
(44) الدارس: النعيمي، ج1، 318.
(45) المدرسة العمرية: الحافظ، ص 228 والفكرة أُخذت عن النعيمي في الدارس، ج2، ص78.

هو كتب الحنابلة ولا سيَّما (مختصر الخرقي)، الذي حفظه كبار المقادسة[٤٦] قبل مجيئهم إلى دمشق وبعد تأسيس الصالحية، حتى غدا حفظ هذا المختصر علامة على التَّفقُّه، وبعد ذلك توالت العناية به وشرحُه، إذ تكلَّلت بكتاب (المغني) للموفَّق، فأصبحت نتاجات الموفق بن قدامة مصدرَ الدراسة في هذه المدرسة.

هذا على صعيد الفقه، أما بالشكل العام، فتعود هذه المناهج إلى عدَّة اعتبارات، منها:

ـ حرص المقادسة على تعليم صغارهم القرآن الكريم، فكان هناك متخصِّصون بالإقراء، ومنهم من أقرأ بالقراءات السبع كالحافظ الشيخ العماد الذي حفظ عليه أكثر أهل الصالحية.

ـ كان لتوجُّه الشيوخ وعلومهم وإجازاتهم دوراً في تحديد المادة العلمية المقروءة أو التي كانت محلاً للبحث.

ـ هناك عامل مهمٌّ، وهو ما تلقّاه علماءُ الصالحية المرتحلون لطلب العلم، إذ قدموا الصالحية ورَوَوه لأقاربهم.

كل هذا أدَّى لتنوُّع العلوم كالحديث والرجال والسير والقصص واللغة ومجالس الأشعار وكتب وأجزاء العقيدة ومجالس النظر.

إذن: كان القرآن والفقه والحديث أكثرَ العلوم تدريساً في هذه المدرسة، وإضافة لما حمله الشيوخ النازلون بها.

فعلى صعيد القرآن الكريم، أرَّخ أبو شامة المعاصر (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، وهو أحد كبار القُرَّاء واقع تحفيظ القرآن في هذه المدرسة فيما نقله عن ابن طولون: ((وقد حفظ القرآنَ بها أممٌ لا يُحصَون))[٤٧]، أمَّا الفقه والحديث فإنَّ مؤلَّفات المقادسة، ولاسيَّما الموسوعات الضخمة في الفقه الحنبلي، قد قُرئت في هذه المدرسة، ويمكن تتبُّع الكتب التي سُمعت على الشيوخ، وهي من اختصاصات متنوعة، وأسوق مثالاً على ما ذهبتُ إليه السماعَ الذي تلقاه الشيخ أبو عمر- المؤسس - ومعه ولداه أحمد وعبد الرحمن على ابن طبرزد المؤدِّب لجزء فيه (الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي) رواية البزاز الحافظ، إذ كان السماع سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٩م) بمدرسة الصالحية بجبل قاسيون[٤٨].

وختاماً: قدَّمت المدرسة العمرية تراثاً زاخراً للحضارة العربية الإسلامية، على صعيد مناهجها وعلمائها، وينبغي إعادة إحيائها للحياة قبل ضياع مكانها، كما حدث لكثير من مخطوطاتها ونتاجها العلمي.

٢- دار الحديث الضيائية:

مثَّلت دار الحديث الضيائية مَعلَماً مُهمّاً من معالم الصالحية، وكان لها دورٌ كبيرٌ ومدلولات اجتماعية وفكرية، ولاسيَّما أنَّ هذه الدار قد تنفرد بأسبقية قلما نجد مثيلاً لها، وهي أنَّها

(46) حفظه مؤسس الصالحية أبو العباس أحمد وابناه أبو عمر والموفق وغيرهم.
(47) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص263، ولم أعثر على هذا النص عند أبي شامة.
(48) المدرسة العمرية: الحافظ، ص177.

أُسِّست على مُلك خاصٍّ وبجهود خاصة وبكتب تعود ملكيتها لشخصية واحدة، كلُّ هذا كان على يد الحافظ الضياء، ثم ما لبثت أن تحوَّلت لمركز علمي عظيم قدَّم للحضارة الكثير، وتُشير السماعات التي أوردها محمد مطيع الحافظ[٤٩] لتأكيد نسبة الدار وإنشائها للضياء، وتُشير كذلك لغنى مجالس العلم وحضور العشرات من العلماء والطلاب لهذه المجالس في هذه الدار التي غدت معلماً نافس المدرسة العمرية، ويرى الباحثُ أنَّ هناك فارقاً بين المؤسَّستين العمرية والضيائية، إذ اشتركتا في أشياء وتفردت كلٌ واحدة بأمور، وتمكن المقارنة من عدة وجوه:

_ كانت العمرية أكاديمية ركَّزت على تعدُّد العلوم واستقطاب النازلين بها وتأمين متطلباتهم، في حين كانت الضيائية لحضور مجالس السماع، ولاسيَّما علوم الحديث.

_ مارست العمرية دوراً اجتماعيّاً لأهل الصالحية ولمن نزلها، ولم يكن ذلك للضيائية.

_ كانت العمرية مركزاً عموميّاً، أما الضيائية فتُشبه مركزاً علميّاً خاصّاً، إذ كان أكثرُ الكتب المسموعة إنَّما سُمع على الضياء صاحب هذا المحضَن التربوي العلمي، ويغلب على الحاضرين المقادسة وأقاربهم، فمن خلال تتبُّع مُدرِّسي الضيائية الذين تولَّوا التدريس فيها بعد وفاة الضياء، نجد أنَّ الأوائل منهم كانوا من المقادسة، ويكاد ينحصر النشاط بآل قدامة.

فعندما أرَّخَ ابنُ شداد لهذه المدرسة كان المُدرِّس فيها شمس الدين ابن أبي عمر-قاضي القضاة - خطيب جبل الصالحية، إذ قال عنه: ((وهو مستمرٌ بها إلى الآن))[٥٠]، وهو ما يؤكد أهمية هذه الدار، فتدريس القاضي بها يَعني تدريسَه بمركز كبير، وكذلك من جاء بعده كالشمس الآخر محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسي المعروف بابن الكمال (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وتميَّز هذا الرجل بعلمه، ولاسيَّما بالفقه، إذ أتمَّ كتابَ الأحكام الذي بدأه عمُّه الضياء، وتخرَّج على يده في هذه المدرسة ابنُ تيمية والحافظ المزّي والبرزالي وغيرهم من علماء دمشق الكبار[٥١].

_ يفيد أحد السماعات أنَّه تمَّ سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، وأنَّه صحَّ وثبت بمنزله - أي بمنزل الضياء -، ولعلَّ المقصود بمنزله هو هذه الدار، وهو ما يؤكد صفتها الخاصة وهو ما ميَّزها عن العمرية.

_ كان التدريس فيها مقتصراً على الحافظ الضياء، ثم تولَّى التدريسَ علماءُ المقادسة كالقاضي شمس الدين بن أبي عمر.

_ ضمَّت الضيائيةُ كالعمرية مناصبَ كالإمام والناظر ومُلقِّن القرآن الكريم.

٣- مدرسة الصاحبة وبدايات التنوُّع الفكري في الصالحية:

جاء ذكر هذه المدرسة وقصتها في دراسة الحياة الاجتماعية، وما طرأ على الصالحية من تغيُّرات عمرانية وسكانية، إذ إنَّ واقفة هذه المدرسة ومُنشئتَها هي الصاحبة ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين، التي دُفنت بمدرستها هذه (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، أما الوقفةُ العلمية عند هذه المدرسة

(49) دار الحديث الضيائية: محمد مطيع الحافظ.
(50) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص134.
(51) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج3، ص 247، الذيل: ابن رجب، ج4، ص224.

فتتمثل بفكرة البناء وانتماء أصحاب الفكرة، ونشاطات المدرسة:

أ ـ بنو الشيرازي الحنابلة وامتدادهم الفكري إلى الصالحية:

كان بنو الشيرازي يمثلون المذهب الحنبلي في دمشق، ونزل عندهم آل قدامة عند هجرتهم، وكان لبني الشيرازي حظوةٌ عند البيت الأيوبي، ومن صور هذه المكانة التقارب بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية على صعيد النساء، وقد مثَّل هذا التقارب العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي في صحبتها للخاتون ربيعة، وهذا دعا ابن كثير لتأصيل هذه العلاقة بقوله: ((وكان في خدمة الواقفة الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة لها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة الصاحبة على الحنابلة، ثم صُودرت لأجلها))[٥٢].

واجهة مدرسة الصاحبة

وللعالمة هذه قصص أخرى تتعلَّق بالبيت الأيوبي، أما سيرتها فقد نقل بدران بعض أخبارها عن ابن شقدة في (مختصر الشذرات)، ومما نقل: ((وفي تربة بني الشيرازي دُفنت أمة اللطيف صاحبة التصانيف، ومن جملتها: كتاب (التسديد في شهادة التوحيد) وكتاب (بر الوالدين) ...))[٥٣].

ويذكر بدران أنَّ العالمة أنشأت داراً للحديث في منطقة ما يُسمَّى اليوم (المهاجرين)، ولكنّ بدران يذكر أنَّ ترجمة هذه المرآة لم يأت عليها أحد سوى ابن شقدة، في حين نجد أنَّ البحث يقودنا إلى الوقوف على كثير من المؤرخَين كالسبط والذهبي وابن كثير وغيرهم[٥٤].

توفِّيت العالمة سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، والغرض من الوقفة عندها هو أنَّ بناء هذه المدرسة يُبيِّن مدى تأثير النساء في الحياة العامة، وامتداد توجُّه آخر من أطياف الحنابلة إلى الصالحية بعد أن كانت حكراً على آل قدامة، على صعيد المؤسسات على الأقل.

ب ـ نشاطات المدرسة:

بدأ التدريس في هذه المدرسة سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م)، وكان المُدرِّس الناصح - والد العالمة ، وكان يوم الافتتاح يوماً مشهوداً، وحضرت الواقفة من وراء ستر[٥٥].

وقد نقل ابن طولون عن ابن شداد طبيعة النشاط العلمي بعد تأسيسها بقوله: ((أول من

(52) البداية والنهاية: ابن كثير، ج 13، ص170.
(53) منادمة الأطلال: بدران، ص238.
٥٤ () تاريخ الإسلام: الذهبي، ص ١٤٥، البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٣، ص١٧٠، الدراس: النعيمي، ج٢، ص٦٣، ٨٧.
(55) الذيل: ابن رجب، ج 3، ص427.

مدرسة الصاحبة من الداخل

ذكر بها الدَّرسَ ناصحُ الدين الحنبلي، ثم من بعده ولدُه سيف الدين يحيى إلى أن توفِّي، وناب عنه صفيُّ الدين خليل المراغي حين توجَّه إلى بغداد وابن أخيه شرف الدين محمد بن عبد الله بن الشيخ ناصح الدين، وبقيت على أولاده وينوب عنهم فيها الشيخ تقيُّ الدين المعروف بابن الواسطي، وهو مستمرٌّ بها إلى الآن))[٥٦].

ومن خلال تتبُّع المُدرِّسين في هذه المدرسة أجد أنَّ هذه المدرسة استُبعدَ من التدريس فيها أعلامُ الصالحية الكبار من المقادسة، مع أنّها حُدِّدت للحنابلة، والمقادسةُ كانوا كذلك، وتعليل هذا الأمر هو التنافس بين الأسرتين الحنبليَّتَين (آل الشيرازي) و(آل قدامة)، والعامل الآخر هو وجود مراكز خاصة للمقادسة في الصالحية.

ونجد ظاهرة أخرى، هي اشتراك مُدرِّس كبير بالتدريس في مدارس هاتين الأسرتين، وهو العلامة الزاهد تقيُّ الدين إبراهيم بن علي المعروف بابن الواسطي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، وكان هذا العالم حنبليّاً من أهل الصالحية، وكانت إمامتُه الأولى بدمشق، وعن شيوخها نال علومه، وجاء في ترجمته: ((ثم رحل إلى الشام ودرَّس بالصاحبة عشرين سنة، وبمدرسة أبي عمر،

(56) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 239.

ووَلِيَ في آخر عمره مشيخةَ الحديث بالظاهرية...))[٥٧]، ثم تنوَّعَ المُدرِّسون، فقد درَّس فيها من المقادسة ومن غيرهم، وواضح أنَّ نشاطها تمحور حول الفقه، ولاسيَّما الحنبلي.

٤ _ دار الحديث الأشرفية:

تقع على حافة نهر يزيد، تجاه تربة الوزير تقيِّ الدين توبة بن علي التكريتي، وقد ذكر ابن طولون مدرستين بجوارها.

أنشأ هذه المدرسة الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، الذي سمع صحيح البخاري على الزبيدي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وتوفِّي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)، وقد خصَّص الأشرفُ هذه المدرسة للحافظ جمال الدين عبد الله بن الحافظ عبد الغني من آل سرور المقادسة، وهذا العالم تتلمذ على يد مشاهير علماء عصره بدمشق، وارتحل إلى بغداد وأصبهان، ((وكتب بخطه الكثير وجمع وصنَّف وأفاد ...))[٥٨]، وتنوَّعت معارفُه، فقد تلقَّى القراءات عن عمِّه العماد، والفقه عن الموفَّق، وقال عنه الضياء: ((كان علاَّمة وقته))، ونقل ابن طولون عن الذهبي: ((روى عنه الضياء وابن أبي عمر وابن البخاري ... وبنى له الملك الأشرف دارَ الحديث بالسَّفح وجعله شيخَها وقرَّر له معلوماً، فمات قبل فراغها، إذ توفِّي في رمضان ٦٢٩هـ))[٥٩].

وبوفاة هذا العلم تولَّى التدريس في هذه الدار شيخُ المقادسة وقاضي القضاة وخطيب الجبل الشمس بن أبي عمر (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، وسيرته تناثرت في ثنايا هذا البحث.

وقد مات وعمره خمس وثمانون سنة، وتولَّى التدريس فيها من بعده الإمام الشمس بن الكمال، الذي تولى الضيائية أيضاً، وقد مرَّت سيرته وعلمه وتخرج العلماء على يديه.

وبعده الحسن بن عبد الله - حفيد أبي عمر - وبعده القاضي سليمان بن حمزة - ابن حفيد أبي عمر، وبقيت هذه المدرسة بيد المقادسة إلى مراحل متأخِّرة، فأصابها ما أصاب المدارس الأخرى من إهمال، إذ تولاها مَن تولَّى قضاء الحنابلة، وإن لم يكن أهلاً للتدريس[٦٠].

ثالثاً _ البيمارستان القيمري:

يُعد هذا البيمارستان من مفاخر الصالحية، ويشير لوجود الاهتمام بالطب في دمشق عامة، والصالحية خاصة.

ذكر ابن طولون موقعه وسط الصالحية[٦١]، ومكان هذا البيمارستان معروف اليوم، وهو بجوار مسجد محيي الدين بن عربي، ولكنَّه مغلق، ولا ندري لماذا؟ فيما يتعلَّق بموقع هذا البيمارستان فقد نقل ابن طولون عن ابن عبد الهادي قوله: ((فهو من أحاسن الدنيا، يقال إنه ليس ثَمَّ في الدنيا بيمارستان أحسن منه، ولا أشرح، فإن فيه هذا الإيوان المعظَّم والقاعتان المعظمتان القبليات بهذه الشبابيك المشرفة على الدنيا، وتحت الشبابيك هذا الحوض النارنج لا

(57) القلائد الجوهرية: ابن طولون، 241.
(58) ابن رجب: الذيل، ج3، ص 396.
(59) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 156، نقلًا عن ابن مفلح الذي نقل عن الذهبي.
(60) منادمة الأطلال: بدران، ص33.
(61) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 346.

البيمارستان القيمري

سيما في أيام زهره تفوح منه هذه الرائحة الزكية، فتنعش النفوس وتزكي الأرواح))[٦٢].

ويتابع ابن طولون وصفَه، ويذكر فيه قاعتان، ويذكر أقساماً له تتعلَّق بالشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف الخاصة بالعين، وهناك بجواره مطبخ، وفي غربيِّه قاعة للمجانين، والشيء اللافت للنظر بركة معظمة بوسطه يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد.

وعن أطبائه ذكر ابن طولون أنَّ فيه فريقاً طبياً كاملاً، أوقف هذا البيمارستان وأنشأه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القيمري (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، قبره في تربة مقابل هذا البيمارستان.

يُعد هذا المشفى مَعلمةً عمرانية رائعة، ومركزاً طبيّاً متطوِّراً، ميَّزه عن غيره وقوعُه في بيئة نقيّةٍ في مرتفع من الأرض.

ازدادت العناية به في العصر المملوكي، ويمكن معرفة أهميته من خلال الوقفيات المتعلِّقة به، وهي تفوق أيَّ مؤسسة أخرى[٦٣]، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن بناءه كان نتيجة لتطوُّر علم الطب في دمشق بوجود الرعاية الطبية من الحكام وأهل الخير فيها.

(62) ابن القلائد الجوهرية: ابن طولون، ص 346-347.
(63) منادمة الأطلال: بدران، ص 260.

البيمارستان القيمري

وهنا لابد من الإشارة لما يُعتقد أنه نواة لبناء هذا البيمارستان، وهو وجود الأطباء الكبار، وكان لأحدهم علاقة بالصالحية، وهو شيخ الطب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي[٦٤] (وُلد سنة نيِّف وستين وخمسمئة).

قال عنه الذهبي: ((وله تصانيف في الاستفراغ، انتهت إليه رئاسة الصناعة وحظي عند الملوك، ونال دنيا عريضة، ونسخ بخطه المنسوب أزيَدَ من مئة مجلد، وأخذ العربية عن الكندي، والعلاج عن الرضي الرحبي، والموفق ابن المطران والفخر المارديني...))[٦٥]، توفِّي في صفر(٦٢٨هـ/١٢٣١م)، ودُفن بقاسيون.

ولا بدَّ من الوقوف عند ترجمة الدخوار بنقاط عدّة:

ـ وجود أساتذة من المختصين بالطب تلمذ عليهم، وهم يمثلون جانباً من واقع الطب في العصر الزنكي وما قبله.

ـ للدخوار الطبيب يدٌ بيضاء في تطوُّر الطِّبِّ، فقد وقف داره التي في درب العميد لتصبح مدرسة للطب بدمشق.

ـ لم تكن الصالحية بعيدةً عن الدخوار، بل كان على علاقة وطيدة مع أهلها، وقد تملَّك بستاناً في سفوحها، ولعلَّه كان مركزاً علميّاً يجمع فيه العلماء والأطباء، وهو النواة لاهتمام الصالحية بالطب.

ـ وختاماً:

أرجو أن يكون هذا البحث قد أسهم بإظهار جوانب من تاريخ مدينة دمشق، هذه المدينة العظيمة التي عشقها مَن عرفها، وتعلَّق بها من عايشها، وقد أكّد هذا البحث حيويتها وتجدُّدَ الحياة فيها، لتكون حقّاً مهدَ الحضارة وقلبَ العروبة النابض.

(64) ترجمته في: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي، ج8، ص672.
(65)سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج22، ص316-317.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المصادر:

ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد محمد بن علي، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٣م.

ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل بن عمر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: ابن الأثير علي بن محمد، تحقيق: عبد القادر طليمات، مكتبة المثنى، ١٩٦٣م.

ـ تاريخ الإسلام: الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

ـ تاريخ داريا: الخولاني عبد الجبار، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق.

ـ تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، أو رحلة ابن جبير: ابن جبير محمد بن أحمد، دار التحرير المصرية. ١٩٦٨م.

ـ التكملة لوفيات النقلة: المنذري عبد العظيم، تحقيق: بشار عواد، بيروت، ١٩٨١م.

ـ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي عبد القادر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.

ـ الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب عبد الرحمن بن أحمد، العثيمين، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٥م.

ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمد بن طولون، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط٢، دمشق, ١٩٨٠م.

ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قز أوغلي، حيدر آباد، ١٩٥١م.

ـ المذيل على الروضتين: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، دار الجيل، بيروت.

ـ الوافي بالوفيات: الصفدي خليل بن أيبك، نشر: ديدرينغ، شتاير، ١٩٨٠م.

ـ معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، دمشق, ١٩٨٥م.

ـ المراجع:

ـ البيمارستانات في دمشق: إلهام محفوض، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠م.

ـ بيمارستان نور الدين: صلاح الدين المنجد، دمشق.

ـ الجامع المظفري: أحمد فائز الحمصي، مجلة الحوليات الأثرية، دمشق ١٩٨٥م.

ـ جامع الحنابلة المظفري: مطيع الحافظ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

ـ خطط دمشق: أكرم العلبي، دمشق، ١٩٨٩م.

ـ دار الحديث الضيائية: محمد مطيع الحافظ، دار البيروتي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

ـ المدرسة العمرية: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م.

عمار النهار

فريد الزَّمان ابن الشَّاطر الدمشقي الفلكي _ الميكانيكي السَّاعاتي _ الجغرافي
مُفجِّر الثورة الفلكية الأوروبية
(الجزء الثاني)

أ.د عمار محمد النهار(1)

(1) الأستاذ في قسم التاريخ، جامعة دمشق، المدير ورئيس التحرير.

ملخَّص البحث

يُغطِّي هذا البحث ـ في قسمين ـ سيرة عالم الفلك العالمي ابن الشَّاطر الدمشقي، ويشرح إبداعاته اللافتة: الفلكية والميكانيكية والجغرافية، وقيمتها العلمية، وصناعته للساعات، وأثر هذه الإبداعات في العلوم وتطورها، وتأثيرها في الفَلَك الأوروبي وأبرز أعلامه: كوبرنيكوس، ومناقشة مدى مصداقية هذا العالم الغربي في التعامل مع إنجازات ابن الشَّاطر، وخاصة اكتشافه للنظام الشمسي، وبيان مؤلفات عالمنا الدمشقي ومضمونها والثراء العلمي فيها.

وسيشتمل الجزء الثاني هنا، على الحديث عن تخصص لابن الشاطر ندرٍ من انتبه إليه، وهو كونه جغرافياً، ثم كيف استند علماء الغرب على أبحاثه، وكان ذلك مفجِّراً لثورة فلكية أوروبية، وعلاقة كل ذلك بكوبرنيكوس، ومدى مصداقية اكتشافاته، بالإضافة إلى مؤلَّفات عالمنا العظيمة، وأهميتها، وبعض تفاصيلها، ثم الحديث عن عصره، وأقرانه من العلماء الذين عاصروه في علوم الرياضيات والفلك والهندسة الميكانيكية والجغرافية، وستكون النهاية مع وفاته.

وكان الجزء الأول قد اشتمل على الحديث عن اسمه نشأته وإبداعه، وعن الممهدين له من علماء الحضارة العربية الإسلامية، وإبداعاته الفلكية والميكانيكية، وخاصة صناعة الساعات، وبراعته بإبداع الإسطرلابات وصناعاتها وتعليمها.

وفيما يأتي استكمال لإبداعاته الأخرى اللافتة، والتي كان لها نصيب كبير في تطور العلوم، بما يصبُّ في خدمة الإنسانية، ويُحقِّق حلقات غاية في الأهمية في مسيرة الإنجازات الكبرى.

أولاً ـ ابن الشَّاطر الجغرافي:

لم أجد من قدَّم عالمَنا الدمشقيَّ ابنَ الشَّاطر كعالم جغرافي، مع أنه أبدع إنجازات جغرافية عالمية ومؤثرة في تاريخ تطور هذا العلم، قلَّ من انتبه إليها، وندر من قام بتوثيقها، وهذا أمر يدفعنا إلى التأكيد عليها مراراً وتكراراً.

وأذكر هنا أبرز هذه الإنجازات الجغرافية:

فلقد قدَّر ابن الشَّاطر اليابس بربع الأرض والمياه بثلاثة أرباعها؛ فقام بتقسيم الأرض إلى أربعة أرباع باستخدام دائرة الأفق القطبية وخط الاستواء وسطح معدل النهار بالشكل الآتي:

حدَّد البحار ذات الأهمية الكبيرة الموجودة ضمن الربع الشمالي المعمور بـ:

البحر المتصل بالمحيط الواقع بين المغرب والأندلس (يمثل الجزء الغربي من البحر المتوسط). البحر الواقع بين الأندلس والشام (يمثل الجزء الأوسط والشرقي من البحر المتوسط). البحر الجنوبي (المحيط الهندي) المتصل بالجانب الشرقي والذي خرج منه أربعة خلجان: الخليج البربري وهو أقربها إلى المغرب. الخليج الأحمر (البحر الأحمر). خليج فارس (الخليج العربي). الخليج الأخضر (خليج البنغال). بحر وزتك من جانب الشمال (بحر أخوتسك). البحار المغلقة غير المفتوحة على المحيط: بحر طبرستان (قزوين). بحيرة خوارزم (آرال).

ويبدو أنَّ ابن الشَّاطر كان مطَّلعًا بشكل جيد على الانتشار الجغرافي لمناطق الاستقرار البشري

في الجزء الشمالي، فقد بيَّن بأنَّ معظم العمارة تقع بين ما يجاوز عشر درجات في العرض إلى حدود الخمسين (بين ١٠ – ٥٠ درجة عرض)، وبيَّن أقاليمها كما كان دارجًا في تلك الأوقات.

بيَّن أنَّ الزمن يتبدَّل بمقدار السرعة، وهذا بحد ذاته يُعد اكتشافًا عظيمًا، فقد أكَّد بأنَّ مقدار الزمن المتبدل (بقدر حركة المتحرك)[٢].

كان ابن الشَّاطر ديناميكيًّا في فهمه للزمان والمكان ولثبات الشمس بالنسبة للأرض، وأنَّ حركة قبة السماء نتيجة لحركة الأرض وأنَّ الحركة هي من الغرب إلى الشرق.

تمكَّن لأول مرة من معرفة سبب ارتفاع درجة حرارة النصف الجنوبي أكثر من النصف الشمالي، من خلال فهمه بدقة لوضع الأرض في حركتها ودورانها حول الشمس في مدارها، حيث يكون الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية خلال مدة الحضيض باتجاه الشمس فيتلقى كمية أكبر من الإشعاعات الشمسية.

مخطوطة لابن الشاطر في إحدى دراساته عن الشمس

قام بتقدير مساحة اليابس بنحو ربع مساحة الكرة الأرضية، والباقي من المياه التي تحيط باليابس من كل الجهات.

تمكَّن ابن الشَّاطر من ربط انتشار العمارة والنشاط البشري على سطح الأرض بدرجات الحرارة، وحدَّد بدقة الامتداد الجغرافي للمناطق المأهولة، والتي تمتدُّ لنحو ٨٢ درجة عرض من ١٥, ١٦ درجة جنوب خط الاستواء إلى ٦٦ درجة شمالا (حيث ارتفاع القطب ٦٦ درجة وما بعده لا يمكن أن يُسكن فيه لشدة البرد).

كما ربط ابن الشَّاطر بين درجة الحرارة وزاوية سقوط الأشعة الشمسية؛ عندما بيَّن بوضوح في قوله عن انتشار العمارة حتى الدائرة القطبية: «وما بعده (يقصد ٦٦ درجة) لا يمكن أن يُسكن فيه لشدة البرد اللازم من بُعد الشمس عن سمت الرأس هناك».

(2) دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، ص140 _ 143. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص513، 514.

تمكَّن ولأول مرة في التاريخ من دمج ثلاثة عناصر، بعضها مع بعض، في قراءة الانتشار الجغرافي للسكان، حيث استخدم قبة السماء وخط الاستواء وانتشار العمران في علاقة جدلية.

تمكَّن ابن الشَّاطر، عند تحديده لامتداد المعمور على خط الطول، من أن يشمل معظم المناطق الجغرافية المأهولة من خلال قوس الامتداد على ١٧٧ جزءًا، والتي تتوافق مع الامتداد من خط طول ٢٠ غربًا وحتى ١٦٧ خط طول شرقًا، شاملة لقارات آسيا وأوروبا وأفريقيا (وأستراليا) والجزر الكبرى في الجزء الغربي من المحيط الهادي.

قرن بداية التقسيم الجغرافي للأقاليم مع جهة حركة الأرض من الغرب إلى الشرق وبيَّن اتجاه حركة توالي البروج[٣].

اعتمد في دراسته للأقاليم الجغرافية على مبادئ عدة بشكل مبدع، وأهمها: طول النهار. الموقع الفلكي. عدد الجبال والأنّهار المهمة. لون السكان في الإقليم. إظهار أهم المراكز العمرانية في كل إقليم.

استطاع ابن الشَّاطر حساب تبدُّل الزمن وطول النهار مع تبدُّل العروض الجغرافية، وتمكَّن من فهم العلاقة بدقة كبيرة بين زاوية سقوط الأشعة على الأرض وبين كرويتها وتبدُّل طول النهار على تلك العروض، وفهم أنَّ القطبين لا يوجد فيهما إلا نهار مدَّته ستة أشهر أو ليل مدَّته ستة أشهر[٤].

ثانياً _ على أكتاف ابن الشَّاطر! أوروبة والثورة الفلكية، وقضية كوبرنيكوس:

من أبرز القضايا التي تُثار اليوم بحثيًّا في الغرب؛ قضية ابن الشَّاطر الدمشقي، وأثره على علم الفلك الأوروبي والعالمي، وأثره على من ترى أوروبة أنَّه أعظم فلكي في تاريخها.

لذلك سأُمحور هذه الفقرة _ خصوصًا _ حول قضية هذا العالم الفلكي الغربي؛ إذ نُسبت كثير من إنجازات ابن الشَّاطر إلى غيره، فادَّعى الفلكي البولوني كوبرنيكوس (ت ٩٥٠هـ = ١٥٤٣م) لنفسه السبق في نظريات هي في الأصل لابن الشَّاطر، وقد كُشف أمره عند العثور على مخطوطات عربية تُثبت حقيقة الأمر، ففي عام ١٩٧٠م اكتشف الباحث ديفيد كنج أن كوبرنيكوس سرق معظم أفكاره من العالم ابن الشَّاطر، وفي عام ١٩٧٣ عُثر على مخطوطات عربية نادرة، من بينها معادلات ابن الشَّاطر، في جامعة كراكوف التي درَّس فيها كوبرنيكوس.

وفي ذلك يقول ديفيد كنج في إحدى مقالاته: «لقد عُثر في بولونيا موطن كوبرنيكوس على مخطوطات عربية عام ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م تُثبت أنَّ كوبرنيكوس كان يأخذ عنها ويدَّعي لنفسه ما يأخذ»، ثم يتابع كنج القول: «ولقد ثبت منذ عام ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م أنَّ نظريات كوبرنيكوس في الفلك هي أصلها مأخوذة عن ابن الشَّاطر الفلكي العربي المشهور، ادَّعاها كوبرنيكوس لنفسه».

(3) دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، ص143 _ 145. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص514.

(4) انظر الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية، بحث الدكتور إبراهيم أحمد سعيد: هل كان ابن الشَّاطر جغرافيًّا؟ وانظر دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار محمد النهار، ص131 – 151.

ويقول العالم توبي هف بعد دراسات مستفيضة: «إنَّ نماذج كوبرنيكوس الفلكية لخطوط الطول في كتابه (الشرح المختصر) مستمدَّة من نماذج ابن الشَّاطر»[٥].

وبذلك يكون ابن الشَّاطر قد سبق كوبرنيكوس بقرون في وضع نظريته عن حركة الكواكب ودورانها حول الشمس، أو ما يُسمَّى اليوم بالنظام الشمسي[٦].

مزولة ابن الشاطر الأصلية

فلقد وضع أفلاطون القواعد لعلم الفلك الإغريقي، ووضع أرسطو وفيثاغورس نظريات مركزية الأرض، وحوالي سنة ١٤٠ بعد الميلاد اقترح بطليموس الفلكي الإسكندراني في كتابه المجسطي تمثيلاً شاملاً للكون، وهو تمثيل هندسي في طبيعته، قال فيه بثبوت الأرض مركزًا للكون، وبجعل القمر والشمس والكواكب والنجوم ثابتة خلف الكل، وكان علماء الحضارة العربية الإسلامية يُشككون في هذه النظرية، ويعلمون أنَّ هذا القول فيه أخطاء كبيرة، لكنَّهم لم يجدوا لها تعليلات مقنعة، وتتمثَّل هذه التعقيدات في اختلاف حركة الكواكب السَّيَّارة.

ولمَّا جاء ابن الشَّاطر الدمشقي، وأجرى تجاربه، وسجَّل مشاهداته، واستنتج خطأ هذه النظرية؛ قام بتعديلها، ثم وضع نظرية حركة الكواكب، وتمكن من تحديد مداري (عطارد) و(القمر)، ووضع لحركتيهما نموذجين، ثم جاء الفلكي البولندي كوبرنيكوس بعده بنحو قرنين من الزمان، وانتحل هذه النظرية، أو الفكرة، أو النموذجين لنفسه، واشتهر هذا فيما بعد (بالنظام الكوبرنيكي)، وصار المشهور عند علماء الفلك أنَّ أول من قال بنظرية مركزية الشمس هو كوبرنيكوس، وبسبب ذلك ذاع صيتُه بين العلماء، وللأسف الشديد مازال فضل اكتشاف هذه النظرية ملتصقًا باسمه في جميع المصادر والمراجع بجميع دول العالم الحديث[٧].

(5) فجر العلم الحديث: توبي هف، ص70. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص512، 513. مصر وبلاد الشام في عصر المماليك: عمار النهار، ص293، 294. مجلة الفيصل: العدد (24)، ص 61، والعدد (267)، ص94، 95.

(6) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص83، 84، وانظر تاريخ علم الفلك في العراق: العزاوي، ص35، 36، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص221، ابن الشَّاطر: غانم، ص14 - 31، وانظر:
Ibn Alshater; Kennedy. p 14.

(7) انظر رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، ص4. وانظر تاريخ المماليك: عمار النهار، ص512، 513. تراث الإسلام: شاخت، بوزورث، ج2، ص208 - 214. موسوعة تاريخ العلوم العربية: رشدي راشد، ص331 _ 333.

وقد بيَّن البحث الحديث مؤخرًا، أنَّ كوبرنيكوس كان يعرف نظريات ابن الشَّاطر وأسلافه ومعاصريه، وتأثَّر بها تأثُّرًا كبيرًا، وأنَّ الآلات الرياضية التي ابتكرها العلماء العرب المسلمون، ومن بينهم ابن الشَّاطر، يُعبَّر عنها حديثًا بأنَّها صلات بين نواظم ثابتة الطول تدور بسرعات زاويَّة ثابتة، وهذه الأدوات هي بالضبط تلك التي استعملها كوبرنيكوس الذي عاش بعد ابن الشَّاطر بقرون، إذ يتماثل نموذج كوبرنيكوس للقمر مع نموذج ابن الشَّاطر، وكلاهما يختلفان في الأبعاد عن بطلميوس اختلافًا جوهريًّا، وبالتالي فإنَّ النماذج الرياضية التي اعتمدها كوبرنيكوس، والتي عُدَّت بها نظريته جديدة وانقلابية، تكاد تكون هي ذاتها النماذج التي اكتشفها بعض الفلكيين العرب المسلمين وخاصة ابن الشَّاطر.

ورأى العلماء أنَّ نموذج ابن الشَّاطر لعطارد لا يختلف عن نموذج كوبرنيكوس إلا باختلافات صغيرة في أطوال الموجة، واستعمل كوبرنيكوس ميكانيكية مزدوجة الطوسي في فلك التدوير في نموذج كوكب عطارد، وكذلك استعمل ابن الشَّاطر الميكانيكية ذاتها في نموذج عطارد أيضًا.

وبحسب نتائج آخر الأبحاث؛ فإنَّها بيَّنت أنَّ أحدث هذه النظريات قد وصلت إلى كوبرنيكوس ليس عن طريق الترجمات اللاتينية، وإنَّما عن طريق تبريز ومراغة[٨]. وسنتكلم على طرق أخرى بعد قليل.

وقد شكَّك العالم الكبير الدكتور جورج صليبا بمصدر معلومات كوبرنيكوس، ثم أكَّد أنَّها أُخذت من علماء الحضارة العربية الإسلامية، وخاصة من ابن الشَّاطر، وقد دار كتابه (العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية) حول هذه القضايا، وقال إنَّ علماء الحضارة العربية الإسلامية تعاملوا مع نصوص بطليموس بنظرة نقدية، وأضافوا إليها وطوَّروها، أما المنجزات الأوروبية في علم الفلك، فقامت على إنجازات علماء هذه الحضارة أمثال ابن الشَّاطر الدمشقي.

لقد نقد صليبا السرد الكلاسيكي للتفاعل العربي الإسلامي مع العلوم اليونانية، وعاد إلى مراحل تطور علم الفلك عند العرب المسلمين، ثم جاء على تأثير العلوم العربية الإسلامية الواضح في النهضة الأوروبية، ثم أوصلنا إلى صدمة علمية تتعلق بكوبرنيكوس، مُوثِّقًا أنَّ هيئة ابن الشَّاطر الدمشقي لحركات القمر كانت مطابقة تمامًا لهيئة كوبرنيكوس للكوكب عينه، وهذا ما أدى إلى نقاشات بين أهل الاختصاص في أوروبة، وإلى وضع دراسات، من بينها ما نُشر في مجلة (إيزيس)، بقلم فيكتور روبرتس، تحت عنوان: «نظرية ابن الشَّاطر لحركات الشمس والقمر: هيئة كوبرنيكية سابقة لكوبرنيك»، وهنا وضع الكاتب مجموعة من الفرضيات المفتوحة، من بينها أنَّ عددًا من مستعربي عصر النهضة ساعد كوبرنيكوس في الاطلاع على علم الفلك العربي الإسلامي، ومن بينهم المستعرب الفرنسي غيوم بوستيل.

وبهذا، فإنَّ علم الفلك العربي الإسلامي ساعد على دعم الثورة العلمية في أوروبة، ليس فقط من ناحية العودة إلى المصادر العربية الإسلامية التي لا يعترف بها الأوروبيون غالبًا، بل أيضًا

(8) انظر: الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر: سامي شلهوب. الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط: أ.ت غرغوريان، م.م روجانسكايا، ص229، 230. دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، ص137، 138. أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، ص382 _ 384. ابن الشَّاطر مكتشف النظام الشمسي: صالح السعيدي.

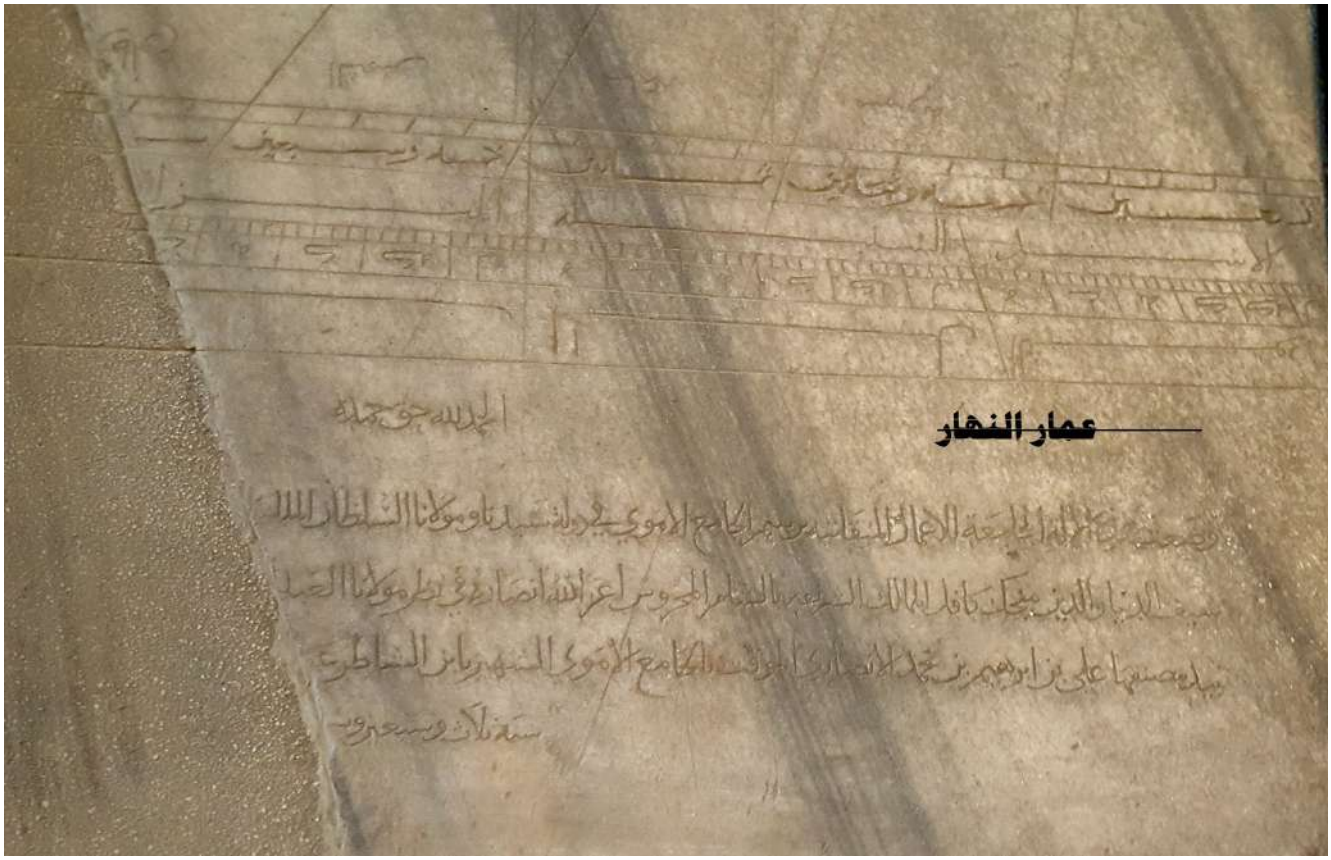

حديث ابن الشاطر على مزولته

عبر آلات رصد اخترعها علماء الحضارة العربية الإسلامية[٩].

وقد وقفتُ على بحث مهم في مؤتمر: الترجمة وإشكالات المثاقفة (منتدى العلاقات العربية والدولية)، للباحث يوسف بن عثمان، وهو بعنوان: الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنَّه يُزيل الكثير من علامات الاستفهام التي تتعلق بابن الشَّاطر وكوبرنيكوس، إذ أشار هذا البحث إلى أنَّ سنة ١٩٥٧ تُمثِّل حدثًا فاصلاً في تاريخ كتابة تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فهي السنة التي اكتشف فيها إدوارد كينيدي كتاب (نهاية السُّول في تصحيح الأصول) لابن الشَّاطر الدمشقي، وكان أوتو نوغاباور قد جلب الانتباه في السنة نفسها إلى أعمال الفلكيين العرب المسلمين عندما وقعت يده على نص يُترجم لأول مرة إلى الفرنسية، وهو فصل من كتاب الطوسي (التذكرة في علم الهيئة) عنونه ناشره (الأكر السماوية عند نصير الدين الطوسي).

وهكذا كان اكتشاف إدوارد كينيدي لكتاب ابن الشَّاطر (نهاية السُّول في تصحيح الأصول)، واكتشاف أوتو نوغابور لكتاب الطوسي (التذكرة في علم الهيئة)، حدثين مُحفِّزين لانطلاق

(9) انظر مجمل كتاب: العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية: جورج صليبا. وانظر التفوق العلمي في الإسلام: جعفر الأرشدي، ص104 _ 111. عمالقة منسيون: عمار النهار، ص33، 34.

دراسات وبحوث جديدة، كشفت عن الدور الحقيقي لعلم الفلك العربي الإسلامي، والأهم علاقته بالفلك الكوبرنيكي بعد الوقوف على التشابه الكبير إلى حد التماثل، وخاصة مع نماذج الطوسي وابن الشَّاطر الفلكية من جهة، ونماذج كوبرنيكوس من جهة ثانية.

وكثيرة هي قائمة المؤلفات والمسائل التي اكتشفها الغربيون ودرسوها في النصف الثاني من القرن العشرين، ليتبيَّنوا هذه الحقائق، نكتفي بذكر أربعة منها، وهي:

ـ كتاب (نهاية السُّول) لابن الشَّاطر، وسائر النماذج التفسيرية للحركات الكوكبية بين سنة ١٩٥٧ وسنة ١٩٦٦.

ـ كتاب (التذكرة في علم الهيئة) للطوسي، والفصل فيه حول نموذج حركة القمر وحركة الكواكب العلوية.

ـ كتاب قطب الدين الشيرازي (نهاية الإدراك والتحفة الشهية ونماذج حركات الكواكب العلوية وحركة القمر وعطارد).

ـ كتاب (الهيئة) لمؤيد الدين العرضي، ونماذج حركات الكواكب العلوية وحركة القمر.

وإذا فتحنا كتاب (نهاية السُّول في تصحيح الأصول)، فسنجد ابن الشَّاطر يقول: «وقد تقدم بطلميوس وغيره من المتقدمين والمتأخرين بوضع أصول، إلا أنها لا تفي بالمطلوب، لأنها مخالفة لما قد تقرَّر من الأصول الهندسية والطبيعية، وقد أورد جماعة من محققي هذا العلم على تلك الأصول شكوكًا يقينية، وأوردنا نحن شكوكًا أخرى، وقفنا عليها بالرصد وغيره».

ويُقدِّم ابن الشَّاطر نفسه على أنَّه أوج ما وصلت إليه مرحلة الشكوك والتحقيق في الأصول، فالأمور «المحالة» و«المخالفة لدقيق الرصد» أو «المخالفة لما تقرَّر من الأصول الهندسية والطبيعية» كثيرة، سواء عند الجماعة الأولى ذات الدور التأسيسي والمضطلعة بمهمة «وضع الأصول»، أو عند الجماعة الثانية ذات الدور النقدي والمضطلعة بمهمة «التشكيك في الأصول».

ويورد ابن الشَّاطر ـ في إحالة لما استفاض فيه القول في كتابه المفقود الموسوم بـ (تعليق الأرصاد) ـ كتاب (الاقتصاص) لبطلميوس بالنسبة إلى الجماعة الأولى، ومؤلفات شهيرة أخرى بالنسبة إلى الجماعة الثانية، وهي: نصير الدين الطوسي في (التذكرة)، والمؤيد العرضي في كتاب (إصلاح هيئة أفلاك القمر)، والمجريطي والزرقالي وابن أفلح وغيرهم[١٠].

وجاءت نتيجة أبحاث علماء الغرب المعاصرين المتخصصين بعلم الفلك، وهم ممن يُعدون حجة في هذا الحقل من الدراسات، لتثبت أنَّ أعمال علماء فلك الشرق العربي الإسلامي، وعلى رأسهم ابن الشَّاطر، الذين ينتمون إلى (مدرسة مراغة) الفلكية، وكذلك علماء الفلك من الغرب العربي الإسلامي الذين عاشوا في المغرب والأندلس، كان لها دور جوهري في قيام الثورة الفلكية، وذلك خلافًا لما ذهب إليه مؤرخو العلم عمومًا إلى حدود القرن التاسع عشر، وممن لا يزال إلى

(10) الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية: يوسف بن عثمان، ص2 ـ 4. وانظر التفوق العلمي في الإسلام: جعفر الأرشدي، ص104 ـ 111.

اليوم يسلك مسلكهم بضرب من العناد الإيديولوجي القاصر على إنتاج قراءة موضوعية غير متحيزة لتاريخ العلوم، ومن اللافت أن جميع الدراسات حديثة العهد للتراث العلمي الفلكي العربي الإسلامي تنتهي إلى البحث عن أشكال العلاقة الممكنة بين أعمال مدرسة مراغة وعلماء الأندلس من جهة، وأعمال كوبرنيكوس من جهة أخرى، والتساؤل ليس فقط عن إمكان، وإنما كذلك عن كيفية تلقي كوبرنيكوس لنتائج أعمال سلفه من الفلكيين الغربيين والعرب المسلمين.

لقد خلص معظم المؤرخين الجدد للفلك العربي الإسلامي إلى تأكيد تلقي كوبرنيكوس الفلك العربي الإسلامي وخاصة عن ابن الشَّاطر، وبقي البحث قائمًا حول شكل هذا التلقي بالاطلاع على نص أصلي، أو عن طريق شرح، أو نص مترجم إلى اللاتينية أو العبرية أو الإيطالية أو الإسبانية، أو بالسماع والرواية.

المزولة المثبتة على مأذنة العروس في الجامع الأموي من صنع الطنطاوي بديلاً لمزولة ابن الشاطر

ووَجدتْ دراسة قيِّمة حول مصدر نظرية الكواكب الكوبرنيكية ومسودتها الأولى (ترجمة الشرح الصغير)، مع تعليق كشف فيه سواردلو أهمية الاعتراض على نظرية بطلميوس ونماذجه الفلكية من قبل فلكيي (مدرسة مراغة)، وجدت أنَّ دراسة الأثر الكوبرنيكي من جهة تكوينه وبنائه قد اتخذت اتجاهًا جديدًا ومثيرًا بعد اكتشاف أعمال هذه المدرسة.

غير أنَّ الأسئلة التي طرحتها هذه الاكتشافات أكثر من الأجوبة، لغياب المعرفة الدقيقة بالعلماء الذين نقلوا أو ترجموا أو ألهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فكر كوبرنيكوس بما توصل إليه علماء (مدرسة مراغة) من نتائج مغايرة للعلم السائد البطلمي آنذاك.

والطريق الذي يسلكه سواردلو في تعقُّب هذا الاستلهام من علماء (مدرسة مراغة)، أو التلقي للإرث الفلكي العربي الإسلامي (زوج الطوسي)، هو إيطاليًا، وتحديدًا في (رسالة حول نظرية الكواكب (لأميكو، إذ نجد استعمالا لهذا (الزوج)، ذلك أن كوبرنيكوس قد عاش في إيطاليا ما

بين ١٤٩٦ و١٥٠٣م، ويرجح أنه كان على دراية بما نُقل من نظرية الكواكب لمدرسة مراغة.

لذلك كتب أوتو نيغاباور: «لقد كان في متناول كوبرنيكوس، لحسن حظه، زوج الطوسي»، وذلك عند مناقشته الطريقة التي توصل بها كوبرنيكوس في نظرية عطارد إلى تركيب حركتين في حركة واحدة.

بينما يصرح كينيدي بشكل واضح بقوله: «نموذج حركة القمر عند كوبرنيكوس الذي كان متفوقًا كليًّا عن نموذج بطليموس هو نموذج ابن الشَّاطر».

وانطلاقًا من هذين الإقرارين تحديدًا، بدأت الباحثة غرازينا روزينسكا مقالها المعنون (نصير الدين الطوسي وابن الشَّاطر في كراكوفيا؟)، فالعنوان هنا ذو دلالة أمام مسألة تلقي الإرث العربي الفلكي في البلد المنشأ لكوبرنيكوس، أي مدينة كراكوف البولندية، مبينة على أن فلكيي مدينة كراكوف آنذاك، أي في القرن الخامس عشر، كانوا أكثر اهتمامًا بأعمال الفلكيين العرب المسلمين من اهتمامهم بمصنفات فلكيي الغرب الأوروبي.

ولا شك أن الميل إلى الاعتقاد باطلاع كوبرنيكوس على أعمال فلكيي (مدرسة مراغة) وما انتقل منها من نصوص أو آراء أو نماذج تفسيرية، أو رسوم بيانية بالترجمة والقراءة مباشرة، أو بالسماع والرواية عبر علماء الأندلس والغرب الإسلامي عربًا أو غير عرب، مسلمين أو يهودًا أو مسيحيين، عمومًا، بدل الاكتفاء بالتسليم بالالتقاء في الاكتشاف على سبيل المصادفة على نحو ما يسميه العرب «وقوع الحافر على الحافر»، يدعونا إلى بلورة برنامج بحث متكامل وواسع المدى في جرد آلاف النصوص والمخطوطات العلمية العربية المودعة في مختلف مكتبات العالم، ومنها أهم المدن الألمانية والإسبانية والإيطالية والفرنسية والتركية والإيرانية والهندية وغيرها، التي لا تزال مجهولة إلى اليوم، ولم يطلع عليها المؤرخون والعلماء، والأولى بالعرب المسلمين النهوض إلى هذا المشروع قبل غيرهم، عساهم يستنهضون هممهم بما أنجز أسلافهم، ويستعيدون دورهم الحضاري الذي كان لهم من قبل[11].

ثالثاً _ مؤلفات ابن الشاطر:

كانت مؤلَّفات ابن الشَّاطر تقوم على مرجعية علمية صحيحة، إذ كان يقوم عند قيامه في كل عمل بتدوين الجداول الفلكية في كُتيِّب صغير، وكان يُسجِّل ما وصل إليه العلماء المتقدمين، ثم ينتهي بجداوله الفلكية المُثبتة لنظرياته.

لقد وردت إبداعات ابن الشَّاطر التي تحدثنا عنها في هذا البحث، وغيرها ممَّا لم نذكر، في كتبه الفلكية الرياضية الكثيرة، التي تدلُّ على تفوُّقه في هذا العلم، وجلُّها ما يزال مخطوطًا، وتنتظر من يخرجها إلى النور، وأحصيتُ منها ما يأتي:

_ (نهاية السُّول بتصحيح الأصول): وفيه يقول: «سألت اللّه العظيم أن يلهمني ابتكار أصول تفي بالمقصود، فوفقني اللّه تعالى لوضع جامعة الحركات الطولية والعرضية، وقد أوردتها

(11) الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية: يوسف بن عثمان، ص7 _ 9. وانظر ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين: كارم السيد غنيم، ص139.

في كتابي: تعليق الأرصاد، ولخَّصتها في كتابي المسمى: نهاية السُّول في تصحيح الأصول».

ـ (الربع التام لمواقيت الإسلام)، و(رسالة في الربع التام)، و(رسالة في الربع الهلالي)، واخترع من خلالها آلة لحساب المواقيت سمَّاها (الربع التام)، وألَّف كتابًا في طريقة استعمالها باسم (النفع العام في العمل بالربع التام لمواقيت الإسلام).

ـ (نزهة السامع في العمل بالربع الجامع)، وتناول فيه نظريته الكوكبية، وهذا الكتاب الأصيل ونسخه متوفرة حاليًا.

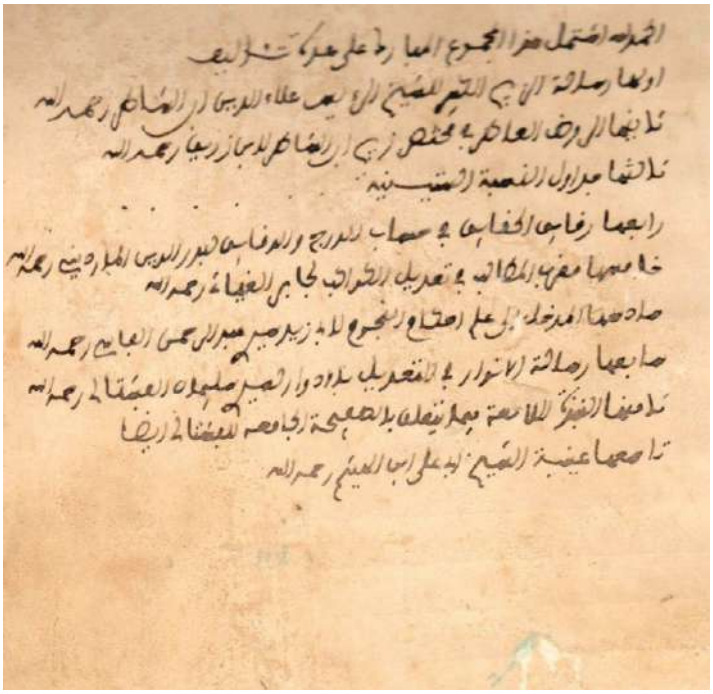

من مخطوط زيج ابن الشاطر – مكتبة عمار النهار

ـ (كشف المغيب في العمل بالربع المجيب)، و(الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات)، و(رسالة في الإسطرلاب)، و(مختصر العمل بالإسطرلاب)، و(تحفة الأحباب في الضروري والأصل في علم الإسطرلاب)، و(أرجوزة في الكواكب)، و(رسالة تعليق الأرصاد)، و(الزيج الجديد)، و(زيج ابن الشَّاطر)، و(الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة)، و(الربع الكامل)، و(الزند الموري في العمل بالربع المجيب)، و(جداول التعاديل للكواكب الخمسة السَّيَّارة)، و(جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها)، و(ربع الأوتار)، و(رسالة في العمل بالربع المجيب)[١٢].

ولو حاولنا تصنيف مؤلَّفات ابن الشَّاطر هذه، لوجدناها تندرج تحت عدَّة علوم فلكية، فمنها ما يندرج تحت علم الفلك الوصفي، كمؤلَّفيه (جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيَّارة)[١٣]، و(زيج ابن الشَّاطر) الذي قال في مقدِّمته: «قال الشيخ: الحمد لله مُقدِّر حركات الأفلاك ... أمَّا بعد فاعلم أنَّ فوائد علم الفلك عديدة، سألت الله العظيم أن يلهمني ابتكار أصول تفي بالمقصود»[١٤].

ومن مؤلَّفاته ما يندرج تحت علم الميقات، ومنها: (نزهة السامع في العمل بالربع الجامع)[١٥]،

(12) انظر عن مؤلفات ابن الشَّاطر المصادر والمراجع الآتية: رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، ص3. تاريخ علم الفلك في العراق: العزاوي، ص35، 36. الأعلام: الزركلي، ج4، ص251. تاريخ الحضارة: عمار النهار، إبراهيم زعرور، ص251 _ 253. معجم المؤلفين: عمر بن رضا كحالة، ج7، ص8. العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص458 _ 461. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص514، 515. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج4، ص82، 88. دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، ص146 _ 151. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص221.ابن الشَّاطر: غانم، ص14-31. ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين: كارم السيد غنيم، ص139. مصر وبلاد الشام في عصر المماليك: عمار النهار، ص294، 295.

(13) جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيّارة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 5158.

(14) زيج ابن الشَّاطر: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 69.

(15) نزهة السامع في العمل بالربع الجامع: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.

و(الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة)، وقال في مقدِّمتها: «هذه رسالة في تلخيص العمل المُسمَّاة بالجامعة في علم المواقيت، ورتَّبتها على مقدمة وستين بابًا»[16]. و(الربع التام لمواقيت الإسلام)، وجاء فيه: «أمَّا بعد فإنِّي أمعنتُ النظر في الآلات الفلكية فوجدتها ليس فيها ما يُعنى بجميع الأعمال الفلكية، فوفَّق الله تعالى لاستنباط هذه الآلة التي سميتها بالربع التام»[17].

وقدَّم ابن الشَّاطر (رسالة في الإسطرلاب) وقال في مقدِّمتها: «إنِّي رأيت أن أختصر رسالة في الإسطرلاب، وجعلتُها تحوي مقدمة واثني عشر بابًا»[18]، وصنَّف كتابًا عن هيئة أفلاك الكواكب سمَّاه (نهاية السُّول في تصحيح الأصول) وبدأه بقوله: «غرضنا أن نورد في هذه المقالة هيئة أفلاك الكواكب، وجعلتها تشتمل على مقدِّمة وخاتمة»[19]. وقدَّم كتابًا عن ميل الشمس وكوكب الأرض، وسمَّاه (جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها)[20].

ومن مؤلَّفاته في فنِّ أدوات علم الفلك: (ربع الأوتار)، وبدأه بقوله: «وبعد فهذه أبواب مختارة من كلام المولى في العمل بالربع العالي»[21]، وله كذلك في هذا العلم (الربع الكامل)، وقدَّم له بقوله: «الحمد لله حقَّ حمده، أمَّا بعد فصورة هذا الربع دائرة مقسوم قوسها أقساماً متساوية مكتوب على تلك الأقسام أعدادها»[22]، وله (الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات)، وذكر في بدايته: «وبعد فإنَّه لما كان علم الوقت مندوبًا إليه وجب شرح التوصُّل إليه بأسهل الآلات وهو ربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات»[23]، وله من المؤلَّفات في هذا العلم (رسالة في العمل بالربع المجيب)[24].

ولأهمية مؤلَّفات ابن الشَّاطر، عمل عليها كثير من العلماء بعده، واستفادوا منها، وبنَوا عليها إبداعاتهم الجديدة، ومنهم:

ـ عبد الرحمن الصالحي الدمشقي، زين الدين الجوهري (ت ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤ م)، فلكي من أهل الصالحية بدمشق، ألَّف كتابًا بعنوان (الدر النظيم في تسهيل التقويم)، اختصره في ١٩٨ صفحة من زيج ألوغ بك وبعض كتب ابن الشَّاطر وغيره، وما يزال مخطوطًا في المكتبة الظاهرية بدمشق[25].

ـ محمد بن عبد الرحيم بن علي بن عبد الله الرحيباني الأصل، ثم الدمشقي، المعروف بالمخللاتي (ت ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ م)، فرضي، عالم بالميقات، مولده ووفاته في دمشق، ألَّف كتابًا بعنوان (النشر العاطر في حل زيج ابن الشَّاطر)، ما يزال مخطوطًا أيضًا في المكتبة الظاهرية بدمشق[26].

(16) الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 11053.
(17) الربع التام لمواقيت الإسلام: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.
(18) رسالة في الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 5816.
(19) نهاية السُّول في تصحيح الأصول: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م/680 ت أ.
(20) جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 15566.
(21) ربع الأوتار: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 97 ت 17.
(22) الربع الكامل: ابن الشَّاطر ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم أ ف م 97 ت 19.
(23) الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 14497.
(24) رسالة في العمل بالربع المجيب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 9367.
(25) الأعلام: الزركلي، ج3، ص208.
(26) الأعلام: الزركلي، ج6، ص201.

ـ محمد بن علي بن إبراهيم الخيري الجبرتي، ابن زريق (ت ٩٧٧ هـ = ١٥٦٩ م)، مؤقت بالجامع الأموي، عالم بالفلك، توفي في دمشق. صنَّف كتبًا، منها (الروض العاطر في تلخيص زيج ابن الشَّاطر)، ما يزال مخطوطًا في دير الشرفة بلبنان[٢٧].

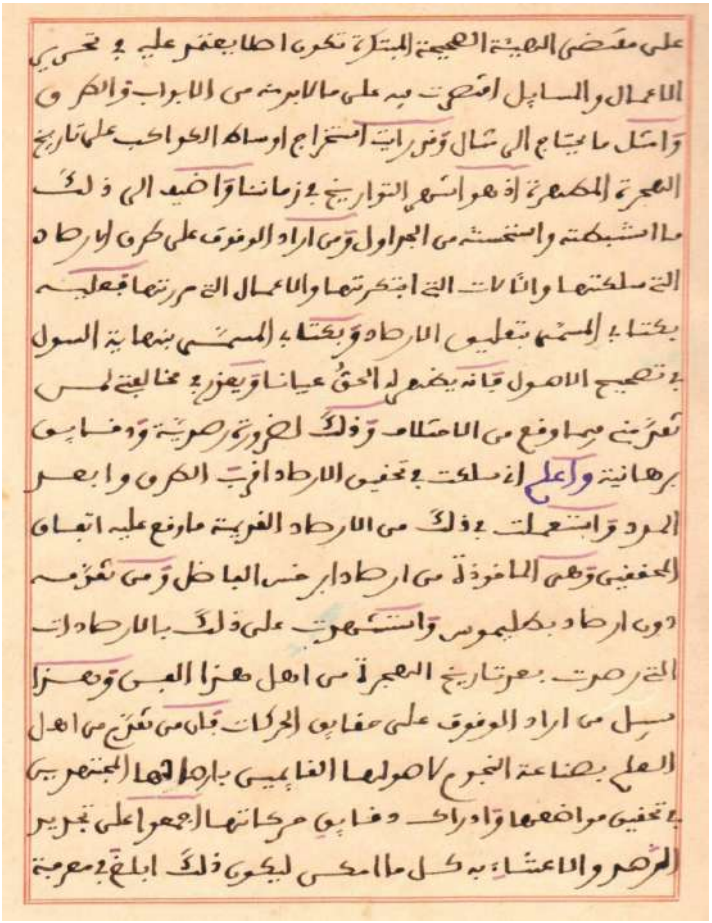

من مخطوط زيج ابن الشاطر - مكتبة عمار النهار

رابعاً ـ عصر ابن الشَّاطر، عصر المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ = ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م):

عاش ابن الشَّاطر في عصر رائع جدًّا، يشكل حلقة مهمة ورئيسية من حلقات التطور والتقدم في الحضارة العربية الإسلامية، إذ قامت دولة المماليك بعد الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ = ١٢٥٠ م، وانتهت هذه الدولة على يد العثمانيين سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م، وخلال ذلك انقسمت إلى دولتين: الدولة البحرية ومؤسسها عز الدين أيبك، وحكمت نحو (١٣٥) عامًا بين سنتي ٦٤٨-٧٨٤هـ = ١٢٥٠-١٣٨٢م، والدولة الثانية هي دولة المماليك الجركسية، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي؛ لذلك سُمُّوا بهذا الاسم، وسموا باسم آخر هو البرجية، لأن المنصور قلاوون عندما أكثر من شرائهم حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعمئة أسكنهم في أبراج قلعة الجبل، وقد استمرَّت هذه الدولة قرابة (١٣٩) عامًا، ويعد مؤسسها الظاهر برقوق العثماني الجركسي، وحكمت بين عامي ٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ = ١٣٨٢م - ١٥١٧م[٢٨].

١ـ دمشق المملوكية (٦٥٨ ـ ٩٢٣هـ = ١٢٦٠ ـ ١٥١٧م):

الحديث عن دمشق في عصر المماليك يحتاج منَّا إلى عشرات المجلدات، على نمط تاريخ دمشق لابن عساكر، وإنما حاولت هنا أن أتلمَّس تاريخ هذه المدينة تلمُّسًا.

فبعد انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت (٦٥٨هـ = ١٢٦٠م) توجَّه السلطان قطز مباشرة نحو دمشق ودخلها وحرَّرها، ثم سيطر على سائر بلاد الشام من الفرات إلى حدود مصر. ثم استناب نوابه على كل من دمشق وحلب وحماة والمعرة والسلمية والساحل وغزة، مُحقِّقًا وحدة بلاد الشام ومصر[٢٩].

(27) الأعلام: الزركلي، ج6، ص292. معجم المؤلفين: كحالة، ج10، ص299.
(28) انظر تفاصيل هذه الدولة في مؤلَّفاتي: تاريخ المماليك. العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية. مصر وبلاد الشام في عصر المماليك.
(29) المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء إسماعيل، مج2، ج6، ص 112 وما بعد. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي

ثم كانت دمشق تشكل بالنسبة للمماليك أهم نياباتها، فكان للشام أجمعه رئيس يُسمَّى: نائب الشام، يقيم في دمشق أو حلب، ويُشرف على جميع أمورها وموظفيها وأموالها[٣٠]. وبالنسبة لنيابة دمشق: فتسمى أيضًا الشام، كما قال بذلك القلقشندي[٣١].

وكانت نيابة دمشق تختصُّ بمواجهة الصليبيِّين، الذين كانوا يحتلُّون الشريط الساحلي لشرقي البحر المتوسط، وكان عليها الاستعداد الدائم لصد هجماتهم، ومنع توسُّعهم، ورد غزواتهم، والاستعداد لتحرير الأرض منهم في الوقت نفسه[٣٢].

وأما علميًّا: فظنَّ كثيرون أنَّ الإبداع العلمي كانت نهايته مع اجتياح المغول لبغداد وإسقاطهم للدولة العباسية سنة ٦٥٨هـ = ١٢٦٠م، وإحراقهم وإغراقهم لمخطوطات الحضارة العربية الإسلامية، لكنَّهم لم ينتبهوا إلى أنَّ دولة كانت تتأسَّس قبل هذا الحدث الجلل بعشر سنوات (وهي دولة المماليك)، قادت مسيرة تطور العلوم، وعاش في كنفها علماء اشتُهروا شهرة واسعة بما قدموه من مؤلَّفات وبما أنجزوه من إبداعات.

وإنَّ من أجمل ما تبقَّى في بلاد الشام من آثار - وخاصة دمشق - هي تلك المساجد والمدارس، التي تحكي قصة المماليك فيها، وتشهد على إنجازاتهم العلمية، وهي بحاجة إلى عناية عاجلة منَّا جميعًا، إذ بدأ بعضها يندثر.

لذلك فإنَّ عصر المماليك عصر ذهبيٌّ ضمن سلسلة الحضارة العربية الإسلامية، زادت فيه أعداد المؤسسات العلمية والتربوية زيادة لم تكن في أي عصر من العصور العربية الإسلامية في مصر والشام، وكذلك المساجد التي نشأت مع ظهور الدين الإسلامي، زادت أعدادها في عصر المماليك بشكل لافت، وازدهرت باقي المؤسسات كالمكتبات والبيمارستانات والرُّبُط والزوايا والخوانق.

وليس أدل على تلك النهضة العلمية من شهادات عمالقة ذلك العصر من العلماء الذين اشتُهروا حتى اليوم على كل لسان؛ كابن فضل الله العمري[٣٣]، والقلقشندي[٣٤]، والمقريزي[٣٥]، وابن شاهين الظاهري[٣٦]، وابن تغري بردي[٣٧]، وابن أيبك الدواداري[٣٨]، وابن دقماق[٣٩]. وشهد الرَّحَّالة ابن بطوطة على ذلك[٤٠]، وكذلك صرَّح المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون[٤١].

يوسف، ج7، ص 67 - 72. السلوك: المقريزي، ج1، ق2، ص427 – 433. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: طقوش، ص 77.

(30) نظم دولة سلاطين المماليك: عبد المنعم ماجد، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1982م، ج1، ص90.

(31) تاريخ المماليك البحرية: علي حسن، ص219. التعريف بالمصطلح الشريف: ابن فضل الله العمري، ص225، 226. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: العلبي، ص45 - 47.

(32) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: سعيد عاشور، ص310. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: العلبي، ص331، 332.

(33) التعريف بالمصطلح الشريف: العمري، ص247.

(34) صبح الأعشى: القلقشندي، ج3، ص413، 417.

(35) الخطط: المقريزي، ج2، ص245، 369 _ 403.

(36) زبدة كشف الممالك: ابن شاهين، ص31.

(37) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج9، ص144، 145.

(38) كنز الدرر وجامع الغرر: الدواداري، ج9 (وهذا الجزء بعنوان: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) ص388- 390.

(39) انظر الانتصار: ابن دقماق، ق1، ص79- 92.

(40) تحفة النظار: ابن بطوطة، ج١، ص٢٠٣.

(41) المقدمة: ابن خلدون: (شحادة)، ص٥٤٨، ٥٤٩، ٦٤٩، ٧٤٩.

الاسطرلاب من مخترعات ابن الشاطر

وكما أن المقريزي في خططه قد أرَّخ للنهضة العلمية في عصر المماليك في القاهرة وما حولها، فإن النعيمي (ت ٩٢٧ هـ = ١٥٢٠م) قد أرَّخ للنهضة العلمية في دمشق وما حولها من خلال كتابين رائعين، الأول هو (الدارس في تاريخ المدارس)، والثاني هو(تنبيه الطالب والدارس في أحول دور القرآن والحديث والمدارس)، هذان الكتابان يصوران الحياة العلمية والثقافية في دمشق من القرن الخامس وحتى العاشر الهجريين = الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين(٤٢).

ولعل دمشق قد تفردت في ذلك الزمن بعدد المدارس الذي زاد على مئة وخمسين مدرسة، وفاق بذلك مدارس بغداد والقاهرة وبيت المقدس وجميع مدن العالم الإسلامي، ونظرة في كتابي النعيمي (الدارس في تاريخ المدارس) و(تنبيه الطالب) تُبيِّن أننا لا نبالغ فيما نقول، وكما يقول أستاذنا صلاح الدين المنجد، فإنَّ دمشق تفرَّدت بمجد آخر من بين بغداد والقاهرة وبيت المقدس، فقد كانت أسبق هذه المدن الثلاث إلى تأسيس مدارس خاصة بالعلوم، أي الأمكنة التي تُتَّخذ لتلقي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، متميزة بذلك عن حلقات المساجد(٤٣).

٢_ علوم الرياضيات والفلك والميكانيك والجغرافيا في عصر المماليك:

إنَّ هذه العلوم ممَّا أتقنه ابن الشاطر وأبدع فيه، فألزمنا ذلك الحديث عن أقرانه ومعاصريه فيها، خاصة أنَّها ازدهرت في عصر المماليك.

(42) انظر تفاصيل ذلك في كتاب الدَّارس في تاريخ المدارس: النعيمي، (النَّهار)، قسم الدِّراسة، ص5 - 32.
(43) انظر الدَّارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ص 6-8. وانظر الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد محمد بن علي، ج1، ص27.

أ_ الرياضيات:

كثر عدد العلماء المتخصِّصين بالرياضيات في عصر المماليك، وكثرت تصانيفهم، وليس لنا هنا إلا أن نختار نماذج عنهم، ومنهم الطبيب يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد اللبودي (ت ٦٦٦هـ = ١٢٦٧م)، فإلى جانب معرفته بالطب كان له علم بالحساب والجبر، وله فيهما تصانيف عديدة، ومنها: (كافية الحساب في علم الحساب)، و(الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة)، و(الرسالة الوقفية في الأعداد الوقفية)[٤٤].

ومنهم عالم الفلك محمد بن أحمد بن الخليل الخويي (القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي)، وله: (كتاب في الجبر والمقابلة) و(كتاب في الفرائض)[٤٥].

وأبرزهم ابن الهائم أحمد بن محمد بن عماد بن علي المصري المقدسي (ت ٨١٥ هـ = ١٤١٢م)، وقد كثرت مؤلفاته في الفرائض والحساب، ومن أهمها: (الفصول في الفرائض)، و(الجمل الوجيزة في الفرائض)، و(المعونة في صناعة الحساب الهوائي)، و(المنظومة اللامية في الجبر)، و(رسالة في الحساب)[٤٦].

ب _ علم الفلك:

عاش في عصر المماليك عدد من العلماء غير ابن الشاطر، ولكنهم لم يبلغوا مبلغه، ومنهم أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن البهنسي القرافي (ت ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥م) الفقيه المالكي، وقد برع أحمد هذا في صناعة الآلات الفلكية[٤٧]. ومنهم محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخويي (ت ٦٩٣ هـ = ١٢٩٣م) الذي نشأ في دمشق وتولى قضاءها، وكتب كثيرًا من المؤلفات[٤٨]، ومنها في علم الفلك (كتاب في الهيئة)[٤٩].

وشارك المفسِّر الديريني عبد العزيز بن أحمد بن سعيد (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧م) في التأليف في هذا العلم، فترك لنا في ذلك كتابين هما: (اليواقيت في معرفة المواقيت)، و(رسالة في الفلك)، فدل ذلك على معرفته بهذا العلم[٥٠]. وأما ناصر الدين محمد بن أحمد بن سمعون المؤقت (ت ٧٣٧ هـ = ١٣٣٦م) فقد خلف عددًا من التآليف في هذا العلم، ومنها: (التحفة الملكية في الأسئلة والأجوبة الفلكية)، و(كنز الطلاب في العمل بالإسطرلاب)[٥١].

(44) كشف الظنون: حاجي خليفة، مج6، ص 524، أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 494. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 200، 201.
(45) الأعلام: الزركلي، ج5، ص 324، أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 205.
(46) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي، ج2، ص 156- 158، تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ج6، ص 515- 521. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص123، 124. تاريخ علم الفلك في العراق: العزاوي، ص 36، 37.
(47) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج3، ص 29.
(48) البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل، ج13، ص 280، الوافي بالوفيات: الصفدي، ج2، ص 137، 138.
(49) الأعلام: الزركلي، ج5، ص 324. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 205.
(50) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 32، 33.
(51) كشف الظنون: حاجي خليفة، مج6، ص 149. تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، ج6، ص 523، 524.

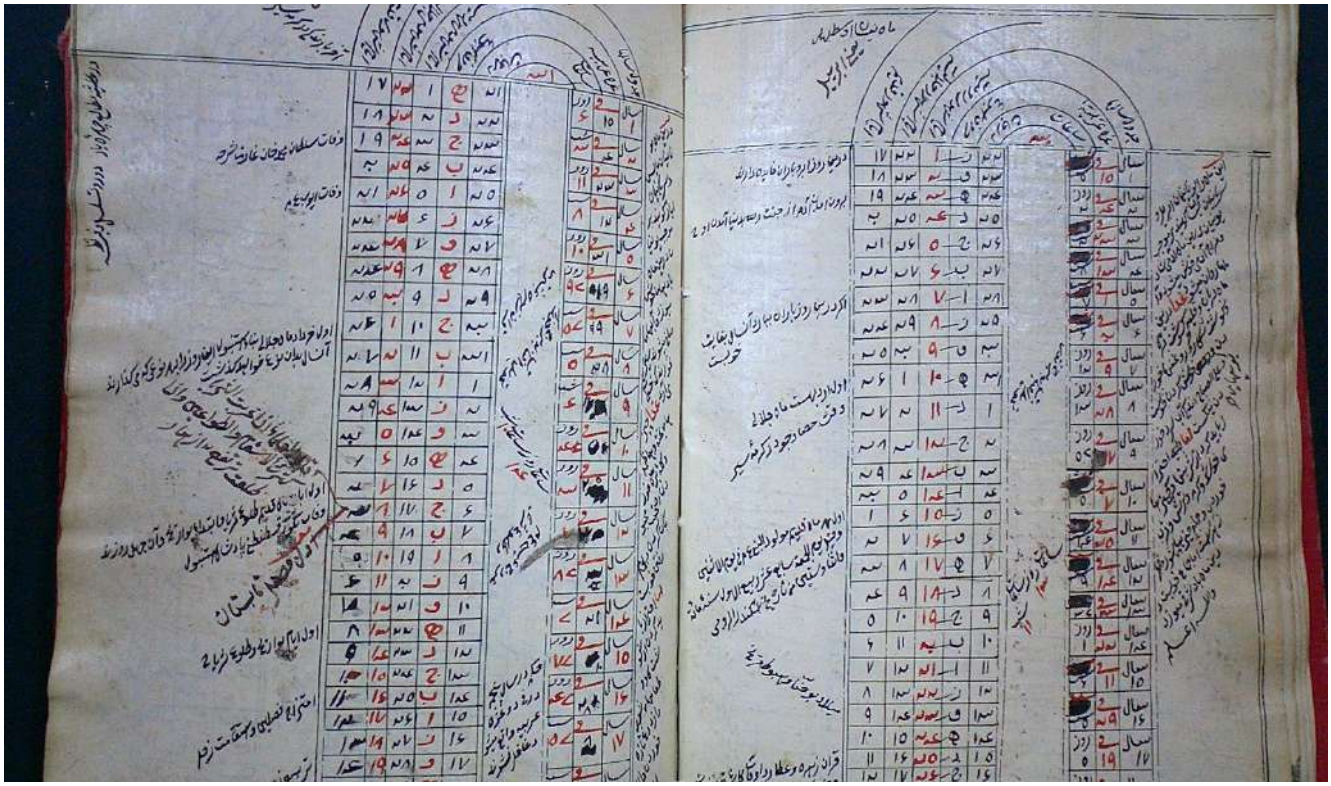

مخطوط فلكي

ومن فلكيِّي ذلك العصر زكريا بن يحيى المخزومي القرشي البلبيسي (كان حيًّا عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م) صاحب مخطوطة (غنية الطلاب في العمل بربع الإسطرلاب)، و(رسالة في عمل ربع المقنطر)، و(مختصر غنية الطلاب في العمل بربع الإسطرلاب)[٥٢].

ومن أشهر علماء الفلك في ذلك العصر محمد بن أحمد بن عبد الرحيم المزي (ت ٧٥٠هـ = ١٣٤٩ م) الذي تعلَّم العلوم في القاهرة، ثم عاد إلى الشام وسكن دمشق، وعُرف ببراعته في وضع الإسطرلاب، وتأنَّق ودقَّق الرسوم والأوضاع فيه؛ حتى قيل إنه لم يلحقه أحد في زمانه بذلك، ومن كثرة ملازمته ومراقبته للشمس نزل في عينيه ماء ففقد بصره، وخلَّف عددًا من التآليف، منها (كشف الريب في العمل بالجيب)[٥٣]؛ وهو في فن أدوات علم الفلك[٥٤]، وصنَّف أيضًا (رسالة في العمل بالآلة المجنحة)، و(الروضات الزاهرات في العمل بربع المقنطرات)[٥٥].

ومنهم عبد الله بن خليل بن يوسف المارداني (ت ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م)، الذي انتهت إليه رئاسة علم الميقات في عصره [٥٦]، وصنَّف في ذلك (رسالة في ربع الدستور وتعريف رسومه)، و(العمل بربع

(52) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج3، ص 251.
(53) أعيان العصر: الصفدي، ج4، ص 302، 303. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج2، ص 170، الدرر الكامنة: ابن حجر، ج3، ص 415.
(54) كشف الريب في العمل بالجيب: المزي محمد بن أحمد، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 5960.
(55) كشف الظنون: حاجي خليفة، مج6، ص 157، تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، ج6، ص 524، أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 207 - 209.
(56) إنباء الغمر: ابن حجر، ج6، ص 31، الضوء اللامع: السخاوي، ج5، ص 19، شذرات الذهب: ابن العماد، مج9، ص 125، 126.

الشجارية) وهي آلة رصد، و(غاية الانتفاع بالبخش الذي في قوس الارتفاع)، و(رسالة مختصرة في العمل بالربع المجيب)[٥٧]، و(رسالة في معرفة الربع المجيب)، و(رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات المطوية)[٥٨].

ج ـ الهندسة الميكانيكية:

ازدهرت الهندسة الميكانيكية في عصر المماليك، وعُرف فيه من الميكانيكيين: قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الأسفوني (ت٦٤٩ هـ = ١٢٤١م)، الذي مهر في هذا العلم، ومن إنجازاته أنه نصب طاحونًا على نهر العاصي، وبنى له أبراجًا، وتحيّل فيها بحيل هندسية، ونقش عليه صورة أسد بارز القسمات، وحجز المياه بحواجز كي يُعلم أصحاب الطواحين كيفية تدوير طواحينهم في حالة فيضان النهر، فعندما تغمر مياه العاصي في وقت الفيضان صورة الأسد يجب إيقاف دوران الطواحين، وعندما تنحسر المياه عن صورة الأسد تكون الطواحين في حالة تستطيع فيها الدوران[٥٩].

ومنهم بيلك بن عبد الله القبجاقي (كان حيًّا عام ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩م)، المهندس العارف بعلم الساعات، وقد عرفناه من خلال نسخة نسخها من كتاب (علم الساعات والعمل بها) لرضوان الساعاتي (توفي نحو ٦١٧ هـ = ١٢٢٠م)، وقد ذُكر في هذا الكتاب ما يُتبيَّن منه معرفة القبجاقي بعلم الساعات، إذ قال الساعاتي: «قال بيلك القبجاقي: كان المصنِّف لهذه الرسالة عالمًا بها متقنًا في عمل آلات الساعات سوى الصينية، إلا أنه كان قاصرًا في العبارة قليل المعرفة واللغة الفصيحة، وإن فسح الله في الأجل لخّصتها وهذّبتها في غاية التهذيب، وذكرت الطرق المختلفة في مخرج الماء والطريق الصحيح منها إن شاء الله تعالى»[٦٠].

ومنهم أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن البهنسي القرافي المصري (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، وكان بارعًا في الهندسة الميكانيكية وصنع الساعات والتماثيل المتحركة والآلات الفلكية، وابتكر البهنسي تماثيل متحركة في آلات فلكية على صورة شمعدان (منارة) يتغير فيه لون الشمعة في كل ساعة، وصوَّر به تمثال أسد تتغير عيناه كل ساعة إلى لون، وتمثال رجل إصبعه في أذنه يظهر وقت طلوع الفجر مشيرًا إلى الأذان، وورد كل ذلك في كتاب (التصوير عند العرب) نقلاً عن مخطوط للبهنسي قال فيه: «بلغني أن الملك الكامل وُضع له شمعدان، كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منها، وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر ساعات طلع الشخص في أعلى الشمعدان، وقال: صبّح الله السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر قد طلع. قال: وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعة لها لون، فإذا طلع الفجر طلع شخص على أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه

(57) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 58-60.
(58) رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات المطوية: المارداني عبد الله بن خليل، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.
(59) الطالع السعيد: الإدفوي، ص 469- 471، السلوك: المقريزي، ج1، ق2، ص 382. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج4، ص 178، 179. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وأبو خليل، ج4، ص 791.
(60) علم الساعات والعمل بها: الساعاتي، ص290.

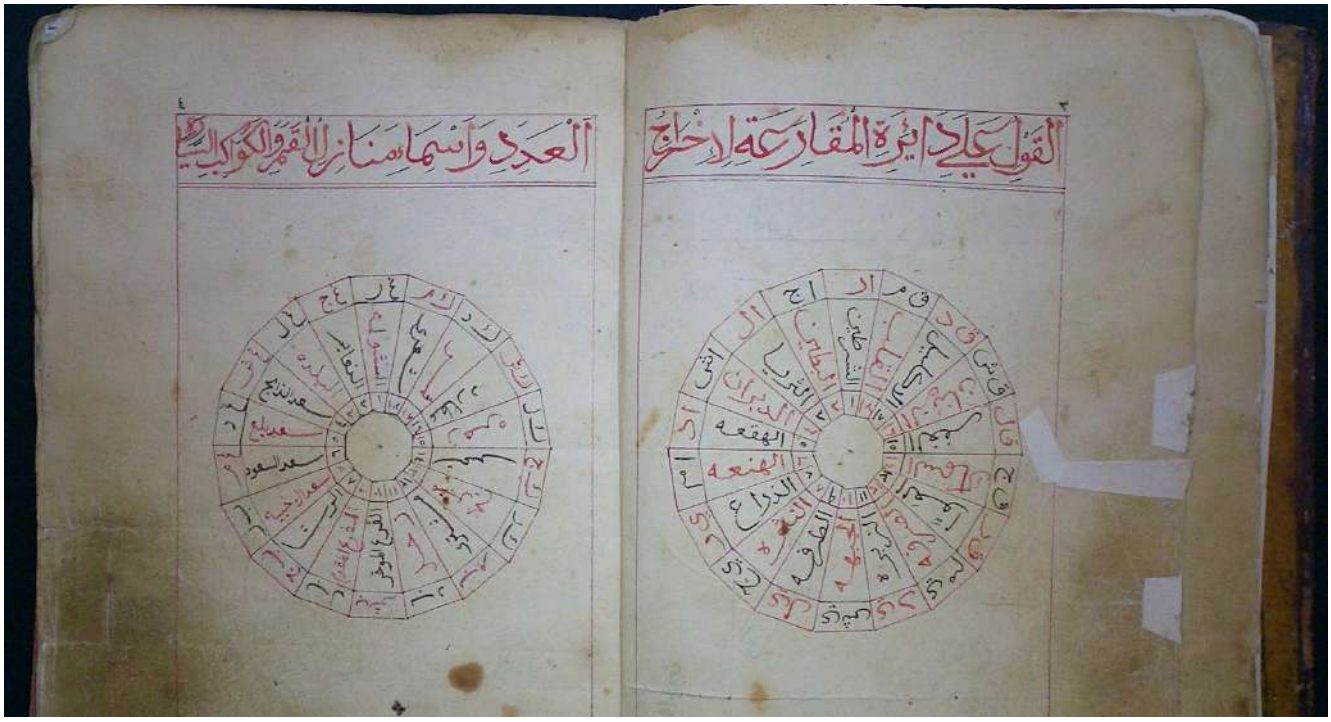

مخطوط فلكي

يشير إلى الأذان، غير أني عجزت عن صنعة الكلام»[٦١].

د ـ علم الجغرافية:

تحققت في عصر المماليك إنجازات كبيرة في العلوم الجغرافية، دفعَت المؤرِّخ الجغرافي الشَّهير إغناطيوس كراتشكوفسكي لأن يقول: «إنَّ معظم الأنماط الجغرافية المعروفة لنا قد نمت في عصر دولة المماليك، ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذي بلغ أوجه في بداية القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي، وتطوَّرت الجغرافية الإقليمية الإدارية في أوساط عمَّال دولة المماليك، وقدَّمت الجغرافية الإقليمية نمط (الخطط)، الذي بلغ ذروته في مصنَّف المقريزي الشهير»[٦٢].

وبالتالي لم ينتبه كثيرون إلى الإنجازات الجغرافية الكبرى في عصر المماليك، وإلى علماء الجغرافية الكبار في ذلك العصر.

فمن أنماط الجغرافية: الخطط، وهي تتعلَّق بإنشاء الأمصار ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها، ومن أشهر من كتب في هذا الفن في عصر المماليك: عبد الله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ = ١٢٩٢م)، وهو أول مؤرِّخ كتب في خطط القاهرة، فهو صاحب كتاب (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة)[٦٣].

(61) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، مج3، ص 29، مقدمة كتاب علم الساعات والعمل بها: الساعاتي، ص 65. التصوير عند العرب: باشا، ص 79، 80.

(62) انظر تاريخ الأدب الجغرافي العربي: كراتشكوفسكي، ص507.

(63) انظر الروضة البهية: ابن عبد الظاهر، الكتاب، والمقدمة، ص2. مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية: عنان، ص51. كشف الظنون: حاجي خليفة، مج1، ص 925.

ومن الجغرافيين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، وكتابه (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة)، وهو أقرب ما يكون إلى نمط الخطط، جعل هذا الكتاب للشام كلها، وجمع فيه بين الجغرافية والتاريخ(٦٤).

ومنهم أحمد بن إبراهيم المعروف بسبط ابن العجمي (ت ٨٨٤ هـ = ١٤٧٩م)، وكتابه (كنوز الذهب في تاريخ حلب)(٦٥).

وفيما يتعلق بخطط دمشق، ألَّف المؤرِّخ الدِّمشقي المرموق محيي الدِّين أبو المفاخر عبد القادر النُعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ = ١٤٢٠م) كتابه القيِّم (الدارس في تاريخ المدارس)، تحدث فيه عن مساجد دمشق ومدارسها عبر العصور حتَّى عصره، ويكاد يكون الكتاب الوحيد الذي تفرَّد بذلك وبهذا التَّخصُّص(٦٦).

وظهر في الخطط أيضًا مؤرِّخ عملاق هو محمَّد بن علي بن أحمد، شمس الدِّين بن طولون الصالحي الدِّمشقي (ت ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)، وهو واحد من كبار مؤرِّخي دمشق، وله فيما يخصُّ موضوعنا كتاب (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية)(٦٧).

وقد نما فن تقاويم البلدان وازدهر في عصر المماليك، ومن أشهر العلماء فيه: الملك المؤيد إسماعيل المعروف بأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ = ١٣٣١م)، الذي وضع كتابًا لا يقل في شيء عن معجم ياقوت، وهو (تقويم البلدان)(٦٨).

ومنهم سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (ت ٨٦١هـ = ١٤٥٧م)، وكتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)(٦٩).

كما اشتهر عدد من الرَّحَّالة في عصر المماليك، ومن أبرزهم: محمد بن محمد بن علي العبدري (ت بعد عام ٧٠٠هـ = ١٣٠٠م)(٧٠).

ومحمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن رشيد الفهري السبتي (ت ٧٢١هـ =١٣٢١م)، وقام برحلة دوَّنها في كتاب سمَّاه (ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة)(٧١).

ومنهم خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي (كان حيًّا عام ٧٤٠هـ = ١٣٣٩م)، وقام برحلة صنَّفها في كتاب (تاج المفرق في تحلية أهل المشرق)(٧٢).

(64) انظر الأعلاق الخطيرة: ابن شداد، المقدمة، ج1، ص 19، 26، 27. وانظر الكتاب. تاريخ الأدب الجغرافي العربي: كراتشكوفسكي، ص 401.
(65) كنوز الذهب: سبط ابن العجمي، مقدمة الكتاب، ج1، ص5.
(66) انظر تفاصيل ذلك في كتاب الدَّارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النُّعيمي، (النَّهار)، قسم الدِّراسة، ص5 - 32.
(67) حقَّق هذا الكتاب ونشره الشَّيخ محمَّد أحمد دهمان، وصدر القسم الأول منه عام 1949 مع خريطة، من مطبوعات مكتب الدِّراسات الإسلاميَّة بدمشق، والقسم الثاني عام 1956. ثم أعاد مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق نشره بقسميه مع خريطة عام 1980.
(68) Kramers : Geography and commerce، p91.
وانظر تقويم البلدان: أبو الفداء.
(69) خريدة العجائب وفريدة الغرائب: ابن الوردي، مقدمة الكتاب، ص5- 6.
(70) رحلة العبدري: العبدري، المقدمة، ص 10، 11، 18، وانظر الكتاب. تاريخ الأدب الجغرافي العربي: كراتشكوفسكي، ص398، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: حسن، ص 132، 133.
(71) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج 4، ص 284، 285، الدرر الكامنة: ابن حجر، ج 4، ص 230. ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة: ابن رشيد، الكتاب.
(72) الإحاطة بأخبار غرناطة: ابن الخطيب، ج1، ص 500، 502. وانظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، ج5، ص 343، معجم المؤلفين: كحالة، ج1،

ومن أشهر رحَّالة عصر المماليك والتاريخ العربي: ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٧هـ=١٣٧٥م)، وسُجِّل ذلك في كتاب شهير عُرف بـ(تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)[٧٣].

ومن أبرز جغرافيي عصر المماليك: أحمد بن ماجد السعدي المعقلي النجدي، اختُلف في وفاته، ويُرجَّح أنها كانت عام ٩٢٣هـ = ١٥١٧م. كان ابن ماجد على اطلاع واسع على علوم البحر وتقويم البلدان والفلك والأنواء والجغرافية والحساب، وأتقن إلى جانب اللغة العربية الفارسية والسنسكريتية ولغة أهل جاوة والتاميلية، وكثيرًا ما كان يستعمل الأسماء الفارسية لبعض الكواكب والنجوم، ويقابلها بالأسماء العربية لها. وقد كثرت إنجازاته العلمية والملاحية، ومنها أنه طوَّر البوصلة، أو بيت الإبرة. وأبدع طريقة لتحديد القبلة تعتمد على قبضة اليد والذراع الممدودة في حال غياب البوصلة. ووضع الخرائط لجميع الطرق المؤدية إلى الهند، وكان أعلم أهل عصره بالبحار وطرقها فيما بين الهند وجزيرة العرب وأفريقيا. وقسَّم وردة الرياح إلى ٣٢ قسمًا، وهي آلة تُستخدم لمعرفة اتجاه الرياح سواء بالليل أم بالنهار ومن أين تهب، وتسمى دائرة الأفق[٧٤].

خامساً _ وفاة ابن الشَّاطر:

عاش ابن الشَّاطر من أجل العلم والنَّفع به، فكانت حياته حافلة بالبحث والتأليف والرصد والتنقيب والتصنيع والإبداع، وخلَّف لنا عشرات المؤلَّفات التي اشتهرت في عصره وبعد عصره وحتى اليوم، وطافت أرجاء المعمورة، حتى وصلت إلى عواصم العالم، لتكشف زيف أشهر من قدَّسته أوروبة في علم الفلك، ولتفضح سرقاته من ابن الشَّاطر.

تُوفِّي ابن الشَّاطر في دمشق سنة ٧٧٧هـ = ١٣٧٥م عن عمر يناهز (٧١) عامًا، قضى منها (٥١) عامًا في دراسة متأنية[٧٥].

دُفن ابن الشاطر في مقبرة (باب الصغير) بدمشق، وكُتب في ركن متواضع في جانب من المقبرة على ضريحه: «ضريح العلاَّمة الفلكي، الرَّاصد المؤقِّت، ورئيس المؤذِّنين في الجامع الأموي: أبو الحسن علاء الدين، علي بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري، الشهير بابن الشَّاطر الدمشقي»[٧٦].

فهذا هو ابن الشَّاطر، الذي كشفت مخطوطاته المحقَّقة _ وهي لا تتعدَّى نسبة الـ ٢٥ ٪ ممَّا هو غير محقَّق منها _ عن إبداعات واكتشافات أذهلت مؤرِّخي العلوم الحديثة، وفضحت حقيقة أبرز فلكي في تاريخ أوروبة والعالم، وهو كوبرنيكوس، الذي لا تزال أوروبة تحتفل به سنويًّا، فأين نحن من إنصاف عالمنا المبدع ابن الشَّاطر؟

ص 668. تاج المفرق: البلوي، ج2، ص 46، 47، 53.

(73) تحفة النظار: ابن بطوطة، ج1، ص 169 وما بعدها. وانظر تاريخ الأدب الجغرافي العربي: كراتشكوفسكي، ص 456، 457.

(74) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج3، ص72. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وأبو خليل، ج5، ص932-934. ربابنة الخليج العربي: سالم، ص 81-85.

(75) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص12 _ 16. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، (شمس الدين)، ج2، ص 298، 299، إنباء الغمر: ابن حجر، ج1، ص 172، 173، الدرر الكامنة: ابن حجر، ج3، ص 77، شذرات الذهب: ابن العماد، مج8، ص 435. ديوان الإسلام: ابن الغزي، ج3، ص171.

(76) انظر بحث ابن الشَّاطر: محمد مروان مراد، مجلة الباحثون، العدد 57.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المصادر المخطوطة:

ـ الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١١٠٥٣ .

ـ جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيَّارة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٥١٥٨ .

ـ جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها : ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١٥٥٦٦ .

ـ ربع الأوتار: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٩٧ ت ١٧ .

ـ الربع التام لمواقيت الإسلام: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ الربع الكامل: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم أ ف م ٩٧ ت ١٩ .

ـ الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١٤٤٩٧ .

ـ رسالة في الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٥٨١٦ .

ـ رسالة في العمل بالربع المجيب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٩٣٦٧ .

ـ رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات المطوية: المارداني عبد الله بن خليل، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ زيج ابن الشَّاطر: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٦٩ .

ـ كشف الريب في العمل بالجيب: المزي محمد بن أحمد، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٥٩٦٠ .

ـ نزهة السامع في العمل بالربع الجامع: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ نهاية السُّول في تصحيح الأصول: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م/٦٨٠ ت أ.

ـ المصادر المطبوعة:

ـ أبجد العلوم: صديق القنوجي، عناية: عبد الجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٨م.

ـ الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة، ط٢، ١٩٧٣م

ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، القاهرة، مكتبة المتنبي.

ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد محمد بن علي، تحقيق: دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣م.

ـ أعيان العصر وأعوان النصر: خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: محمد أبو زيد وآخرين، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

ـ إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر أحمد بن علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م.

ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق إبراهيم بن محمد، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق.

ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل، وثقه: محمد معوض وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

ـ تاج المفرق: خالد البلوي، تحقيق: الحسن السائح.

ـ تحفة النظار (رحلة ابن بطوطة): ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تحقيق: عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م

ـ التعريف بالمصطلح الشريف: ابن فضل الله العمري أحمد بن يحيى، تحقيق: سمير الدروبي، الكرك، جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٢م.

ـ التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار محمد البلنسي، تح عبد السلام الهراس، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م.

ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب: عمر بن الوردي، تحقيق: محمود فاخوري، دار الشرق العربي، حلب.

ـ خطط الشام: محمد كرد علي (ت ١٣٧٢ هـ)، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣ م.

ـ الخطط المقريزية: المقريزي أحمد بن علي، بيروت، دار صادر.

ـ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، إعداد عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٤ . + إعداد إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠ م.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر أحمد بن علي، تحقيق: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦ م

ـ ديوان الإسلام: شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧ هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠ .

ـ رحلة العبدري: محمد العبدري، تحقيق: علي كردي، دمشق، دار سعد الدين، ط١، ١٩٩٩ م

ـ رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، تحقيق وشرح: مجدي أمين، أيمن كردي، جامعة الملك سعود، كلية العلوم، ٢٠٠٧ .

ـ الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة: محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، مكتبة الدار العربية، ط١، ١٩٩٦ م

ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: خليل بن شاهين، تصحيح: بولس راويس، القاهرة، دار العرب، ط٢، ١٩٨٨ م.

ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي أحمد بن علي، صححه ووضع حواشيه: أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨ م.

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد عبد الحي أحمد، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١ م

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي أحمد بن علي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧ م

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي محمد بن عبد الرحمن، بيروت، دار مكتبة الحياة.

ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد : الإدفوي جعفر بن ثعلب، تحقيق: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

ـ علم الساعات والعمل بها : رضوان الساعاتي، تحقيق: محمد دهمان.

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة.

ـ الفهرست: ابن النديم، دار المعارف، تونس.

ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمَّد بن علي شمس الدِّين بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)، تحقيق: محمَّد أحمد دهمان، صدر القسم الأول منه عام ١٩٤٩ مع خريطة، من مطبوعات مكتب الدِّراسات الإسلاميَّة بدمشق، والقسم الثاني عام ١٩٥٦ .

ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي بن شيخ علي التهانوي، دار صادر، بيروت.

ـ كشف الظنون: حاجي خليفة مصطفى القسطنطني، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م.

ـ كنز الدرر وجامع الغرر: ابن أيبك الدواداري، تحقيق: بيرند راتكه، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٩٨٢م.

ـ كنوز الذهب: سبط ابن العجمي أحمد بن إبراهيم، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح شوقي شعث، فالح بكور، دار القلم العربي، حلب، ط١ ، ١٩٩٦ .

ـ المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء إسماعيل، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد اللّه بن أسعد اليافعي، وضع حواشه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١ ، ١٩٩٧م.

ـ مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، ضبط وحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط٢ ، ١٩٨٨م.

ـ ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة: ابن رشيد محمد بن عمر، تح: محمد الحبيب بن خوجة، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨١م.

ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥ م.

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي يوسف، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢ م.

ـ الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.

ـ المراجع العربية:

ـ ابن الشَّاطر: عماد غانم، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨٤ م.

ـ ابن الشَّاطر: محمد مروان مراد، مجلة الباحثون، دمشق، العدد ٥٧، آذار، ٢٠١٢ .

ـ ابن الشَّاطر مكتشف النظام الشمسي: صالح السعيدي، موقع جريدة القبس الكويتية.

ـ أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، الشارقة، معهد الشارقة للتراث، ط١، ٢٠١٧ .

ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، دار الرائد، بيروت، ١٩٦٧ م.

ـ أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦ م.

ـ أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥ م.

ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٤، ١٩٩٩ م.

ـ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: سعيد عاشور، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٣ م.

ـ بلاد الشام في عصر المماليك: عمار النهار، الأردن، عمَّان، دار الإعصار العلمي، ط١، ٢٠١٩ .

ـ تاريخ الحضارة: عمار النهار، إبراهيم زعرور، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٠ .

ـ تاريخ المماليك البحرية: علي حسن، مصر، مكتبة النهضة، ط٢، ١٩٤٨ م.

ـ تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمد سهيل طقوش، بيروت، دار النفائس، ط١ ، ١٩٩٧م.

ـ تاريخ المماليك: عمار النهار، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٣ .

ـ تاريخ علم الفلك في العراق: عباس العزاوي، دمشق، ١٩٥٣م.

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٤ .

ـ التصوير عند العرب: أحمد تيمور باشا، أخرجه: زكي حسن، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٤٢م.

ـ التفوق العلمي في الإسلام: جعفر الأرشدي، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١ ، ١٩٩٠م.

ـ الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، محمد شعلان الطيار، منشورات جامعة دمشق.

ـ دائرة المعارف: بطرس البستاني، بيروت، دار المعرفة.

ـ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: أكرم العلبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ١٩٨٢ .

ـ دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، دمشق، دار البركة، ط١ ، ٢٠١١ .

ـ ربابنة الخليج العربي: خالد محمد سالم، الكويت، ط١ ، ١٩٨٢م.

ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: زكي حسن، بيروت، دار الرائد ، ١٩٨١م.

ـ الرواد العرب في الرياضيات والفلك: صلاح الدين خربوطلي، دار مجلة الثقافة، دمشق.

ـ شمس الحضارة العربية الإسلامية، مسيرة حضارة غيَّرت معالم أوروبة والعالم: عمار النهار، دمشق، دار أفنان، ط١ ، ٢٠٠٨ .

ـ عبقرية العرب في العلم والفلسفة: عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، ط٤ ، ١٩٨٠م.

ـ العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دراسة فكرية: عمار النهار، دمشق، مجموعة الكمال المتحدة، دار النهضة، ط١ ، ٢٠٠٧م.

ـ العلوم البحتة في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، دمشق، المكتبة العربية، ١٩٧٢ م.

ـ عمالقة منسيون: عمار النهار، وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق، كتاب الأدب العلمي، ط١ ، ٢٠٢٢ .

ـ مجلة (الحرفيون)، دمشق، سورية، الاتحاد العام للحرفيين.

ـ مجلة الفيصل، الرياض، السعودية.

ـ المدخل إلى تاريخ الحضارات: عمار النهار، الأردن، عمَّان، دار الإعصار العلمي، ط١ ، ٢٠١٩ .

ـ المذاهب الفكرية والحضارة الإسلامية: عمار النهار، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٨ .

ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد طاش كبري زاده، تحقيق: علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان، ط١ ، ١٩٩٨ م.

ـ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية: محمد عبد الله عنان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ م.

ـ معجم المؤلفين: عمر كحالة (ت ١٤٠٨ هـ)، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ، ١٩٩٣ م.

ـ ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين: كارم السيد غنيم، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١ ، ١٩٨٩ .

ـ مؤتمر: الترجمة وإشكالات المثاقفة، بحث يوسف بن عثمان: الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية، منتدى العلاقات العربية والدولية.

ـ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض.

ـ موسوعة الأوائل والمبدعين: شوقي أبو خليل ونزار أباظة، دار المنبر.

ـ موسوعة تاريخ العلوم العربية: رشدي راشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١ ، ١٩٩٧ .

ـ الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية، التأثر والتأثير، معهد التراث بجامعة حلب، وكلية الآداب بجامعة دمشق واحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، ٢٨ — ٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٨ م، بحث الدكتور سامي شلهوب: الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر.

ـ نظم دولة سلاطين المماليك: عبد المنعم ماجد، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٢ ، ١٩٨٢ م.

ـ نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: علي عبد الله الدفاع، دار الاعتصام.

المراجع الأجنبية المعرَّبة وغير المعرَّبة:

_ تاريخ الأدب الجغرافي العربي: إغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.

_ تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم نجار وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

_ تاريخ العرب العام: سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨م.

_ تاريخ الفكر الأندلسي: آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٥م.

_ تراث الإسلام: شاخت، بوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، إحسان العمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ١٩٧٨م.

_ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

_ الحضارة العربية: جاك ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر.

_ شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

_ العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية: جورج صليبا، تعريب: محمود حداد، الدار العربية للعلوم ناشرون.

_ العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: دونالد هيل، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠٤م.

_ فجر العلم الحديث: توبي هف، ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة، ٢٦٠، الكويت، ٢٠٠٠م.

_ كنوز علم الفلك: جيرهارد بوت، ألمانية، ١٩٨٣م.

_ الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط: أ.ت غرغوريان، م.م روجانسكايا، ترجمة: أمين طربوش، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٠.

- Ibn Alshater; Kennedy (E –S) - Aleppo university- Institue of the history of Arabic sciense.

- Geography and commerce((The legacy of Islam); Kramers :J.H, sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, Oxford , 1931 .

أحمد بن شاهين (٩٩٥ – ١٠٥٣هـ) أديب الشام ومحور حركتها الفكرية في القرن الحادي عشر الهجري

الدكتور محمود الحسن(1)

(1) باحث في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو اتحاد المؤرخين العرب (بغداد).

ملخَّص البحث

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على شخصيّة فذَّة، كان لها إسهامات عظيمة في العلم والأدب والحياة الفكرية والاجتماعية بدمشق، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، إنها شخصية أديب الزمان، كما وصفته كتبُ التراجم والأدب، أحمد بن شاهين القبرصي، العالم الكبير، والأديب المُبدع، حيث يتناول البحثُ حياتَه ومسيرتَه العلمية، وإنتاجَه الشعري، مع آراء نقدية تخصُّ عصرَه وخصائص أشعاره وموضوعاتها.

_ المقدِّمة:

لم تتوقَّف مسيرةُ العلم والأدب على امتداد تاريخ الأمة العربية، بل كان كلُّ جيلٍ يستوعبُ ما سبقَه من العلوم والمعارف والآداب، ويُضيف إليه ما يَستجدُّ في عصره، وما تصلُ إليه العقول والأذواق من ابتكارات واكتشافات.

ونصلُ إلى بدايات القرن الحادي عشر الهجري، حيث كانت الشام ولايةً عثمانية، وكانت دمشقُ من المدن الهامّة المزدهرة على المستويات كافةً، الدِّينية والاقتصادية والتِّجارية والثقافية، فمنها تعبر التجارةُ وقوافل الحجّ بين السلطنة العثمانية ومصر والحجاز، وبين الشرق والبحر المتوسط، كما شهدت الصناعة فيها ازدهارًا كبيرًا لتلبية الطَّلَب المتزايد على المنتجات الشامية، يُضاف إلى ذلك مكانتُها الدِّينية لدى المسلمين عامةً والعثمانيين خاصةً، إلى درجة أنه يُمكن اعتبارُها المَرجعيّةَ المهمّة للسلاطين العثمانيِّين، فيما يخصُّ الأمورَ الدِّينيّةَ وعلوم الشريعة.

وفي كنف هذا الازدهار الاقتصادي، والمكانة المتميِّزة، احتفظت دمشقُ بصدارتها للعلم والأدب، وتابعَت مسيرتَها التي كانت عليها في عصر المماليك، فازدادت تألُّقًا وتفوُّقًا في كافة مجالات العلم، وأصبَحت مدارسُها ومساجدُها منارات علميّةً، يقصدُها الطُّلّابُ والعلماء من أنحاء العالَم الإسلامي.

وهذا البحث يعود في إطاره الزمني إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، وإلى ربوع مدينة دمشق، حيث يُسلِّط الضوء على شخصية علميّة فذّة، كان لها تأثير كبير في الحركة الفكرية والأدبية في دمشق، إنه العالم الكبير والأديب المبدع أحمد بن شاهين، الذي اجتذب القلوب بظرفه، كما اجتذب العقولَ بدقائق علمه، فأمطرت سحائبُ فضله من العلم نفائسَ الدُّرَر، ومن الأدب محاسنَ الزَّهَر، ومن الوجدان أرَقَّ الشُّعور، ومن المواقف والعبقرية مَا لا يُحيط به الوَصفُ من اللَّطائفَ والنَّوادر.

وحين يُراجع القارئ في تراجم القرن الحادي عشر فإنه لا يكاد يعثرُ على أديب أو عالم عاش في دمشق، أو أقام بها، أو مرَّ فيها، إلا وله مع الأديب الشاهيني علاقة علمية، أو رابطة أدبية، أو تلمذةٌ وأستاذيّة، أو صداقة ومراسلات، أو فضل وتأثير، ولهذا جاء في عنوان البحث أنه كان محورَ الحركة الفكرية في دمشق.

وفي هذا البحث سأقتصر على الحديث عن حياة الأديب أحمد بن شاهين وسيرته، ثم أعرضُ

مختارات من أشعاره التي احتفظت بها كتبُ الأدَب والتراجم، بغرض تسليط الضوء على شخصية متميِّزة في العلم والأدب، كان لها إسهامها الكبير في تاريخ دمشق وحضارتها الفكرية.

والله الموفق وبه أستعين.

أولاً _ حياته ومكانته العلمية والأدبية في عصره:

هو أحمد بن شاهين القُبرصيُّ الأصل الدِّمشقيُّ، وُلد بدمشق سنة (٩٩٥هـ)، وكان والدُه مَن قُبرص، أخذه العثمانيون أسيرًا حين أعادوا فتح الجزيرة سنة (٩٧٩هـ)، واستخلصوها من حُكم مملكة البندقية، وقَدموا بوالده إلى دمشق، فاشتراهُ بعضُ الأمَراء وتبنّاه، وجعلَه من أجناد دمشق، وأخذَ يزداد في الرِّفعة وعلوِّ الشأن والجاه، حتى أصبح من الأعيان، المُشارِ إليهم بالتَّقدُّم والفَضل.

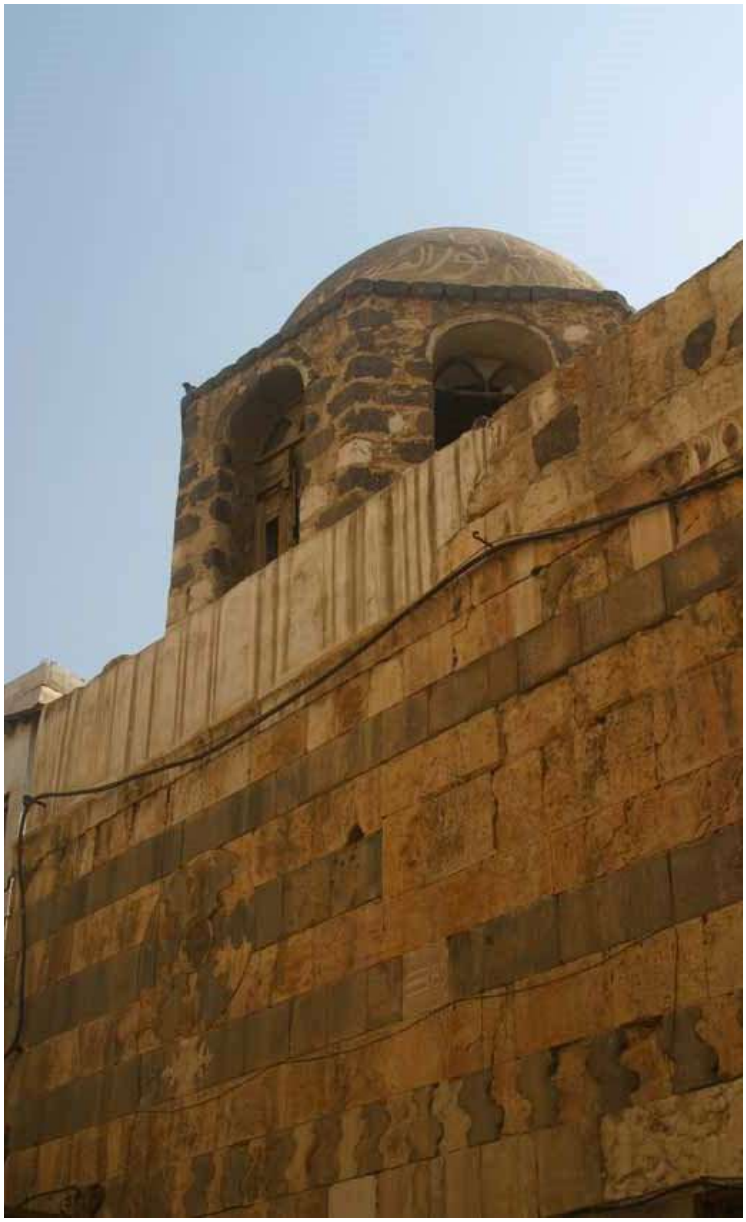

المدرسة الجقمقية التي درس فيها ابن شاهين

وفي دمشق وُلد أحمد بن شاهين، وتلقَّى مبادئ التعليم المُبكِّر في مدارسها وكتاتيبها ومساجدها، ثم انتظم في سلك الجنديّة، وحَظيَ في هذا السِّلك بمقانة مرموقة. وفي سنة (١٠١٥هـ) وقعت الفتنة المشهورة بين العسكر الشامي وعلي بن جانبولاذ الذي تمرَّد على السلطنة العثمانية، واستولى على مناطق شاسعة في الشام، وزحف مع فخر الدين بن معن على دمشق، وكانت له الغلبة، وانكسر العسكر الشاميُّ، ووقعَ أفرادُه بين قتيل وأسير وطريد، وكان من جملة الأسرى أحمد بن شاهين[٢].

وبعد أن صالحَ أهلُ دمشق ابنَ جانبولاذ أُطلق الشاهيني من الأسر، فترك الجنديّةَ إلى غير رجعة، وسلكَ طريقَ العلم والتَّحصيل، قال المُحبِّي: ولمّا أُطلقَ من ربقة الأسر اعتاضَ عن الوشيج والحسام بالقراطيسَ والأقلام، كما قال:

(2) يُنظر في تمرُّد عليّ بن جانبولاذ وزحفه على دمشق وما جرى من أحداث: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي (ت 1111هـ)، 3/ 135.

صَبَوتُ إلى حُبِّ الفضائلِ بعدَما تقلَّدتُ خَطِّيًّا وصُلتُ بمخذَمِ
وصارَ مدادي من سَوادِ مَحاجري وقد كانَ مُحمَرًّا يَسيلُ كَعَندَمِ
ومارستُ من بعدِ القناةِ يَراعةً كأبيضَ مَصقولِ العَوارضِ لَهذَمِ[٣]

لازمَ في ابتداء رحلته العلميةَ علامةَ العصر الحسنَ البوريني[٤]، والشَّيخَ عمرَ القاريَّ[٥]، والشَّيخَ عبدَ الرَّحمنِ العماديَّ مُفتي الشّام (ت ١٠٥١هـ)[٦]، وقرأ عليهم أنواع العلوم، وكانوا خيرة علماء دمشق.

وأخذ الآداب عن الشيخ أبي الطَّيِّب الغَزِّي[٧]، والشيخ عبد اللَّطيف بن المنقار[٨]، حتى برع في العلوم والآداب، والإنشاء في النَّظم والنَّثر.

قال المحبيُّ في الخلاصة: وصارَ أحد الفُضَلاء، وعينَ الأعيان، وكانَ مليحَ العبارة في الإنشاء، جيِّدَ الفكرة، حُلوَ التَّرصيع، لطيفَ الإشارة، جَواداً مُمدَّحاً، مُنشئاً بَليغاً، حسنَ التَّصرُّف في النَّظم والنَّثر، وكانَ الغالبَ عَليه في إنشائه العنايةُ بالمعاني أكثر مَن طلب التَّسجيع، وله رسائل بليغةٌ وآثارٌ شائعةٌ، واختَصرَ حصَّةً من القامُوس، وزاد من عنده أشياءَ حَسَنةَ الموقع.

وسلكَ طَريقَ عُلَماء الرُّوم، فلازم المُفتي الأعظَم صُنعَ اللّه بنَ جَعفَر[٩]، ونابَ في القَضاء بدمَشق، وتولَّى قضاء الرَّكب الشّاميِّ في سَنة ثَلاثينَ وألف، ولَقي شَريفَ مَكّة حينَئذٍ الشريفَ إدَريس بن الحسن، ومدحه بقصيدة مَطلعها:

يا رَبعُ صَبري عاد فيكَ دَريسا وهوايَ أمسَى في حماكَ حَبيسا

ودرَّسَ بالمَدرَسة الجقمقية بالفراغ من المنلا بُستان الرُّومي، نزيلَ دمشق[١٠]، وأُعطي تدريس الدّاخل.

(3) نفحة الرَّيحانة، للمحبي، 1/ 97، وخلاصة الأثر 1/ 210. والرّبقة: العقدة في الحبل أو العروة. والوشيج: شجرٌ تُتَّخذ منه الرّماح. والقراطيس: جمع قِرطاس، وهو ما يُكتَب فيه. والخَطِّيُّ: الرمح المنسوب إلى الخَطِّ، وهو موضع باليمامة. والمِخذَم: السَّيف القاطع. والمحاجر: جمع مَحجِر، وهو موضع العين الذي يبدو من النقاب. والعَندَم: صبغ أحمر معروف. واليَراعة: القَصَبة يُكتَب بها، وتُطلق على القلم عامةً. واللَّهذَم: الحادُّ سيفًا كان أو قناةً.

(4) هو الشَّيخ حسن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن حسن بن عمر بن عبد الرَّحمَن الصفوري الأصل الدِّمَشقِي، الملقب بدر الدّين البوريني الشّافِعِي، كانَ فَردَ وقته في الفُنُون كلِّها، وكانَ يحفظ من الشّعر والآثار والأخبار والأحاديث المسندة والأنساب ما لم يُرَ قطُّ مَن يَحفظ مثلَه، ويحفظ دون ذَلِك من عُلُوم أُخَر مِنها اللُّغة والنحو والسِّيَرُ والمغازي ومن آلة المنادمة شَيئًا كثيرًا، وألَّف التآليف البديعة، التي مِنها تحريراته على تَفسِير البَيضاوِيّ، وحاشية على المُطوَّل، وشرح ديوان ابن الفارض، وغيرها، وتوفِّي سنة (1024هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (ت 1069هـ)، ص42، وخلاصة الأثر 2/ 51.

(5) الشيخ القاري هو: زين الدّين عمر بن أحمد بن محمد بن عيسى القاري الشافعي، إمام عصره في الحديث والأصول، توفِّي سنة (1046هـ). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 3: 223.

(6) هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد العمادي الحنفي الدمشقي، مفتي الشام، ومن أكابر علمائها، له مؤلَّفات كثيرة، وعليه تتلمذ معظم علماء الشام في عصره، توفِّي سنة (1051هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص221، وخلاصة الأثر 2: 380.

(7) هو أبو الطَّيِّب بن محمد بن محمد الغَزِّيُّ الدمشقيُّ، كان من أذكياء العالَم وفُضَلائه، والمشهودِ لهم بالتفوُّق والبراعة في النَّظم والنثر، وعلى يديه تأدَّب كثيرٌ من الطلبة والعلماء في عصره، توفِّي سنة (1042هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص257، وخلاصة الأثر 1/ 135. ونفحة الرَّيحانة 1/ 85.

(8) هو عبد اللطيف بن يحيى بن محمد بن القاسم، المعروف بابن المنقار، الدمشقيُّ الحنفيّ، أخذ العلم عن الحسن البوريني وغيره، وبرع في الفقه والأدب والشعر، وتأدَّب على يديه كثير من الطلبة والعلماء، توفي سنة (1057هـ). تُنظر ترجمته في: ريحانة الألبا ص257، وخلاصة الأثر 3/ 20، ونفحة الريحانة 1/ 161.

(9) هو صنع الله بن جعفر، شيخ الإسلام، ومفتي السلطنة، والمرجع الأول في الفقه، قُلِّد منصب القضاء مرارًا في السلطنة، ثم حجَّ وأقام في دمشق إلى وفاته سنة (1021ه). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 2/ 256.

(10) هو الشيخ الواعظ بستان الرومي، نزيل دمشق، كان من العلماء الصّالحين، متواضعًا طارحًا للتكلُّف، وكان يُلقي وعظَه في الجامع الأموي، وفي المدرسة السليمية بقاسيون، توفِّي سنة (1003هـ). تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 1/ 451.

ونَبُلَ قدرُه، وطارَ صيتُه، ومدحَه شُعراءُ عصره بالقَصائد السّائرة، ورأيتُ لبَعض الفُضَلاء كتابًا ضخمًا ألَّفه باسمه، وسَمّاهُ «الرِّياض الأنيقةَ في الأشعار الرَّقيقة»، افتتحه بقصيدة رائية في مدحه أوَّلُها:

رنا فرَماني بسَهم النَّظَرْ ... وسَلَّ منَ الجَفن سَيفَ الحَورْ
فأدمَى فُؤادي ولَا مُنكرٌ ... وأضحَى يُسائلُني ما الخَبَرْ؟
ومن عَجَبٍ عارفٌ بالَّذي ... عَراني، ويسأَلُ عَمّا ظَهَرْ[11]

وفي عام (١٠٣٧هـ) قدم إلى دمشق علاّمةُ المغرب الحافظُ أبو العَبّاس أحمد المَقَّريُّ التِّلمسانيُّ (ت ١٠٤١هـ)، فأنزلَه قومٌ من المغاربة في مكان لم يُعجبه، فأرسل إليه الأديبُ أحمدُ بن شاهين مفتاحَ المدرسة الجقمقية، مع أبيات شعرية في الترحيب به، فأعجبته المدرسةُ، فنقل أسبابَه إليها، واستوطنها مدّة إقامته، التي امتدت نحو أربعين يومًا، حتى شوال، حيث أملى في مدة إقامته صحيحَ البخاري في الجامع الأموي، والتقى بأكابر علمائها ومشاهير أعيانها، ونشأت بينَه وبين أحمد بن شاهين صداقة عميقة.

وكان ابن شاهين قد أرسل إليه، مع مفتاح الجقمقية، بهدية وبعض المال، وأرفقَ الهديّةَ بهذين البيتين:

لو كان لي أمرُ الشَّباب خَلَعتُه ... بُردًا على عطفَيكَ ذا أردانِ
لكن تعذَّرَ بعثُ أوَّلِ غايتي ... فبعثتُ نَحوكَ غايةَ الإمكانِ

فأجابَه المقَّريُّ بقوله:

يا واحدَ العَصرِ الذي بمَديحه ... سارَت ركابُ المَجد في البُلدانِ
أولَيتَني ما لا أقومُ بشُكره ... ما لي بشُكرِ المُنعمينَ يَدانِ
ونَظَمتَ أشتاتَ الكمالِ جواهرًا ... أضحَت تَفوقُ قلائدَ العقيانِ
فاللّهُ يُبقي من جَنابكَ سيِّدي ... عَينَ الزَّمانِ ومَفخَرَ الأعيانِ[12]

وممّا يُسجَّلُ للأديب الشاهيني أنه هو الذي أشار على التلمساني بتأليف كتاب نفح الطِّيب، الذي لم يُؤلَّف مثلُه في تاريخ الأندلس وأعيانها ومحاسنها وآدابها، وبقي يستحثُّه على تأليفه وإكماله بعد عودته إلى مصر، وجرت بينهما مراسلات كثيرة، أورد المقَّريُّ بعضًا منها مع جواباتها في النفح، وفيها ما يدلُّ على عمق الصحبة والتقدير والحبّ والاحترام، وقد أرسل إليه ابنُ شاهين كثيرًا من القصائد المطوَّلة التي عبَّر فيها عن حُبِّه وشوقه إليه، وأثنى فيها على علمه وأدبه، وهذه الأبيات من إحدى مطوَّلاته التي أرسلَها إلى المقرِّي[13]:

(11) خلاصة الأثر 1/ 210- 211.
(12) خلاصة الأثر 1/ 212.
(13) نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (ت 1041هـ)، 2: 420.

أبـداً إليـكَ تَشَـوُّقي وحَنيـني ... وإلى جَنابِـكَ، مـا عَلِمتَ، سُكُوني
قَلبي كقَلبِكَ في المَحبّةِ والهَوى ... إذ كانَ في الأشـواقِ دِينُـكَ دِيـني
مـا أنـتَ إلا البَـدرُ لاحَ بِأُفقِنـا ... شَـهراً وكانَ ضِيـاؤُهُ يَهدِينِـي
فاسـلَم فَدَيتُـكَ زائِـراً ومُشَـرِّفاً ... أفـدِي مَواطِـئَ نَعلِـهِ بِجَبِينِـي
وكذاكَ عُمرِي في هَواكَ مُقسَّمٌ ... بَـينَ الدُّعـاءِ الجِـدِّ والتّأمِـينِ

وكانَ مع وفور أدبه ضيِّقَ الحال، قليلَ الحظِّ من الدُّنيا، كثيرَ الشَّكوى من تقلُّبات الزَّمان، وفي ذلك يقول[١٤]:

وقائلة ما بالُ جَدِّكَ عاثِرًا ... وأنتَ مُقيلُ عَثرةِ الكُرَماءِ
فقلتُ ذَريني لا أبا لَكِ ليسَ ذا ... عِثارُ جُدودي بل عِثارُ ذَكائي

ومن عجيب خبر الشاهيني أنه امتُحِن بصناعة الكيمياء، وصرفَ عليها أموالاً جمّةً، ولم ينل منها طائلاً.

ويمكن القول بأنه بلغ مرتبة عالية بين أبناء عصره في العلم والأدب والإنشاء، وتلمذَ له كثيرٌ من العلماء والأدباء، وترك عدداً من المؤلَّفات منها كتاب الفاخر في اللغة، الذي شرح فيه واستدرك على جزء من القاموس المحيط، ومنها ديوان شعر، إضافة إلى المراسلات النثرية والشعرية، وهذه المؤلَّفات لم تصل إلينا، وإنَّما بقي منها ما دوَّنته كتب التراجم والأدب عن عصره، وكان ابن شاهين بحقٍّ محورَ الحركة الفكرية والأدبية في دمشق، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري.

وفيه قال يوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في كتابه «ذكرى حبيب»: «طارَ صيتُ فَضله في البلاد، وسرَى كلامُه مَسرى الأرواح في الأجساد، وما سَفَرَت رقّةُ النَّسيمُ إلّا عَن خُلُقه الكَريم، ومَن قاسَ جُودَه وكَرمَه بكعب وحاتَم فقد ظلَمَه... وإذا قُرِنَت بَدائعُ نَظمه ونَثرِه بكَلامَ كلِّ مُتقدِّم، من شعراء الشّام إلى عَصره، كانُوا المَذانبَ وهُو البَحرُ، والكَواكبَ وهُو البَدرُ، هذا وكلُّ إطنابٍ في مَدحه إيجازٌ، وكلُّ حَقيقة لهُ من المَدح في غيره مجازٌ»[١٥].

وفيه قال المحبي (ت ١١١١هـ): «أحمد بن شاهين عينُ الزَّمان ويَمينُه، لو حلفَ لَيأتيَنَّ بمثله حَنثَت يَمينُه. فهو شخصٌ كلُّه جُودٌ، وما من فضل إلا في ذاته مَوجودٌ، مع شيمة لَو أنَّها في الماء ما تغيَّرَ، وهمّة لو أنَّها للنَّجم ما تَغوَّرَ. وأياد روائحُ غوادي، كنسيم الرِّياض غبَّ الغَوادي. وشعرُه وإنشاؤه إذا رآهما الأديبُ قال: ليس للبلاغة إلا ذانِ، يَلِجانِ السَّمعَ إلى القَلبِ بلا أذانٍ ولا استِئذانٍ»[١٦].

(14) خلاصة الأثر 1/ 212.
(15) انتهى كلام يوسف البديعي نقلًا عن خلاصة الأثر 1/ 217.
(16) نفحة الريحانة 1/ -96 97.

وبالجُملة فَإنَّهُ من نَوادر الأيّام، وكانَت ولادَته في سنة خمس وتسعين وتسعمائة، وتُوفِّي في شَوّال سَنة ثَلاث وخمسَين وألف، ودُفن بمقبرة الفَراديس، وكانَ يَومُ مَوته مَاطراً جداً، فَقال الأمير المنجكي يَرثيه[17]:

قُلتُ لمّا قَضى ابنُ شاهينَ نَحبًا وهو مَولًى يُشيرُ كلٌّ إلَيه
رَحِمَ اللّه سَيِّداً وعَزيزاً بَكَت الأرضُ والسَّمَاءُ عَلَيه

ثانياً _ واقع الأدب والعلم في عصر ابن شاهين:

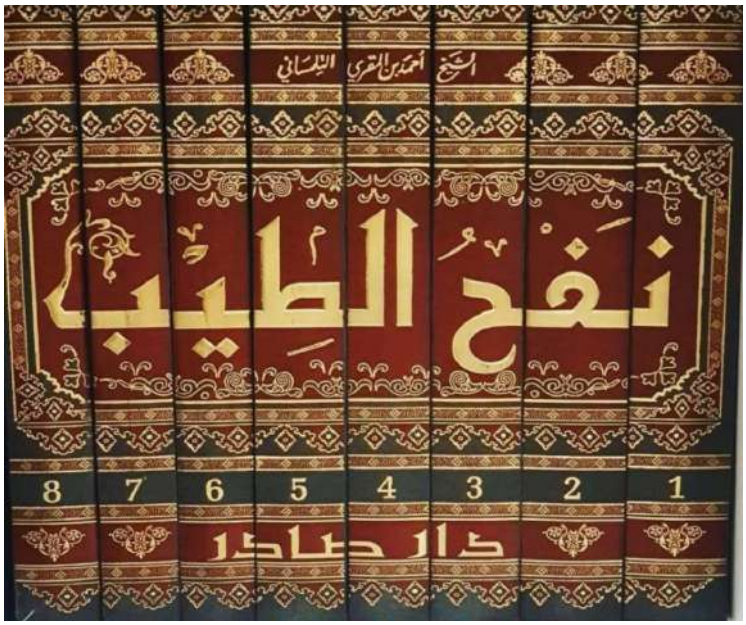

كتاب نفح الطيب الذي أشار ابن شاهين على التلمساني بتأليفه

ينتمي الأديب الشاهيني، وفق ما حدَّده الدارسون لتاريخ الأدب، إلى العصر العثماني، الذي ظهرت فيه عبقريات فذّة في شتّى العلوم والمعارف، غلبَ عليها الطابع الموسوعي في العلم والتأليف. وقبل الدخول في أدب الشاهيني لا بدَّ من التعريج على السمات العامة للأدب في هذا العصر، وتصحيح بعض المقولات التي يتداولها كثير من الدارسين لهذا الأدب.

إذ يَشيع بين الدارسين المعاصرين بأن الشام، في ظلّ الحكم العثماني، كانت تعيش أسوأ أيامها، وينتشر فيها الفقرُ والفوضى والخراب، وأنَّ أهلها كانوا مُثقَلين بالضرائب والإتاوات، التي يفرضها عليهم الولاة والحُكّام وأصحابُ النُّفوذ، ويُعانون من الظُّلم الكبير، وأن انتشار الفقر في الشام كان لسببين رئيسيَّين، هما اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، وتحوُّل تجارة الهند والشرق الأقصى عن بلاد الشام والمنطقة العربية، لتدور حول إفريقية وتصل إلى أوربة والغرب. والسبب الثاني هو فساد الولاة العثمانيين وسوء إدارتهم للولايات التابعة لهم[18].

ولكن عند النَّظر في كتب التاريخ والتراجم، التي واكبَت العصر العثماني، نجد أن مقولة هؤلاء الدارسين عن فساد الولاة العثمانيين وانتشار الفقر والفوضى، في الشام وغيرها من الولايات العثمانية، تَصدق على مرحلة تمتدُّ قرابة قرن ونصف، وتبدأ مع نهايات القرن الثامن عشر الميلادي إلى أواسط الحرب العالمية الأولى، وخروج العثمانيِّين من البلاد العربية عام ١٩١٦م، والسبب في ذلك يعود إلى ضعف السلطنة العثمانية في أواخر عمرها، والتطوُّر الكبير الذي شهدته الدول الأوربية، ومكّنها من امتلاك أسباب القوة والهيمنة على العالم، والتحكم بالولايات

(17) خلاصة الأثر 1/ 217.
(18) يُنظر: عصر الدول والإمارات: الشام، للدكتور شوقي ضيف، ص35-36 و-44 45.

العثمانية، وغزو بعضها واحتلالها، كما حصل في حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م، واحتلال فرنسة للجزائر عام ١٨٣٠م، وغير ذلك من الحملات الإسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والبريطانية على مصر ودول المغرب العربي.

أما مرحلة الحكم العثماني للبلاد العربية، التي تمتدُّ من عام ١٥١٦م، فقد كانت فيها الدولة العثمانية هي الأقوى على مستوى العالم، وتتحكَّم بالبحر المتوسط والدول المطلّة عليه، وحركة التجارة البحرية فيه، ثم أصابها الضعف، فتراجعت عن مركزها السابق، في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، ثم دخلت في تحالفات واتفاقيات مع الدول الأوربية، وبقيت متماسكة وقوية حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وكانت ولاياتها تنعم بالأمن والاستقرار، باستثناء ما يحصل بين الفينة والأخرى من تمرُّد بعض الولاة وما يصحبه من اضطرابات، سرعان ما تتكفَّل السلطنة بحلِّها وإعادة الأمور إلى نصابها[١٩].

ولا شكَّ أن تحوُّل التجارة إلى رأس الرجاء الصالح كان له تأثيره على البلاد العربية، ولكن ليس بالمستوى الذي يتصوَّره الدارسون المعاصرون، لأن الدولة العثمانية كانت تمتدُّ على مساحات شاسعة، وتجارتها مع الهند والشرق الأقصى ووسط آسية وأوربة بقيت مستمرّةً، والتجارة بين الولايات العثمانية ذاتها كانت تُحقِّق غير قليل من الرَّخاء والازدهار الاقتصادي، الذي يُعدُّ أساسًا للازدهار الفكري والعلمي.

وجدير بالذِّكر أن الشام في العصر العثماني قد فُتحت لها آفاقٌ تجارية واسعة، لم تكن من قبل، إذ أصبحت صلة الوصل بين عاصمة السلطنة العثمانية وما جاورها من المدن والبلاد والولايات الشمالية، وبين مصر والمغرب والعراق والحجاز، وكانت تمرُّ في مدن الشام قوافل الحجيج، التي تُعرَف بالرَّكب الشامي، أو الحجّ الشامي، مع ما يُرافقها من نشاطات تجارية واسعة.

فالشام عامةً، ولا سيَّما دمشق، في ظلّ الحكم العثماني، كانت تنعم بالرَّخاء والاستقرار، قرابة قرنين ونصف حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وقد رافقَ الرخاءَ الاقتصاديَّ نهضةٌ علمية في فروع العلوم والآداب، يدلُّ على ذلك كثرةُ العلماء والمؤلَّفات، وانتشار التعليم والمدارس، ونبوغ عدد لا يُحصى من الأدباء والعلماء، وخاصة في القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي، الذي ينتمي إليه الأديب والعالم الدِّمشقيُّ أحمد بن شاهين.

وقبل الحديث عن أدب ابن شاهين وأشعاره لا بدَّ من تصحيح مقولة أخرى، تخصُّ الأدب في العصر العثماني، إذ يشيع أيضًا بين الدارسين المعاصرين أن العصر العثمانيَّ هو عصر الجمود الفكري، والتقليد للعصور السابقة، وأن الأدب في هذا العصر قد تراجع عن المستويات التي كان عليها سابقًا، وأنَّ الأدباء افتقدوا روحَ الإبداع، وجعلوا يصرفون عنايتهم إلى النواحي الشكلية والمحسِّنات البديعية والتعقيدات الأسلوبية، على حساب الفكرة والمضمون[٢٠].

وهذه المقولة ربَّما تصحُّ من حيث النتيجة، التي تتمثَّل في غلبة الصنعة البديعية على الأدب في العصر العثماني، مع ما يُصاحبها من التكلُّف، وبرود العاطفة، وكثرة التقسيمات العقلية،

(19) يُنظر: التاريخ الإسلامي- العهد العثماني، محمود شاكر، ص109، والدولة العثمانية، للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، ص90.
(20) يُنظر: أمراء البيان، لمحمد كرد علي، ص-40 41.

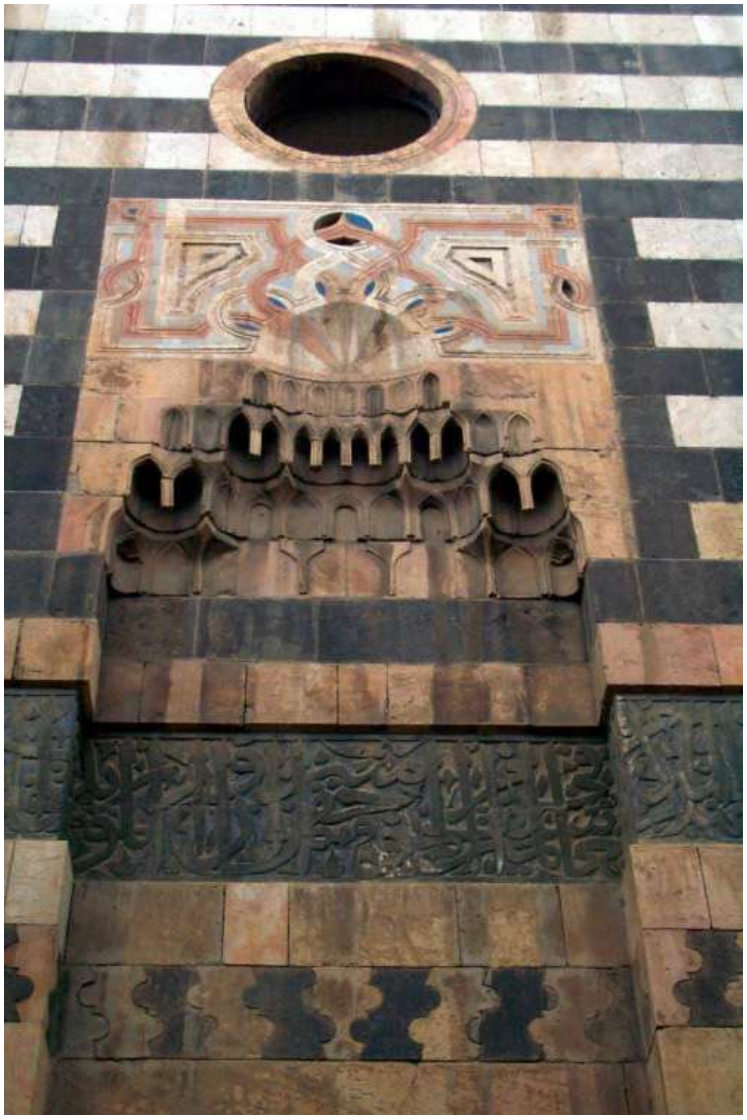

واجهة للمدرسة الجقمقية

والمحاكمات المنطقية، واستعمال ألفاظ العلوم، ولا سيَّما الألفاظ الفقهية، وكثرة التضمين، وغير ذلك من عناصر الصنعة والتكلف...

ولكن هذه المقولة لا تصحُّ من حيث الأسباب التي ذكرها الدارسون، والتي لخصُّوها في تراجع الأدب في هذا العصر، وأن الأدباء افتقدوا روح الإبداع، فصرفوا اهتمامهم إلى الشكل على حساب المضمون، وانشغلوا بالزخارف اللفظية على حساب المعنى، فهذا الحكم لا يصدق على الأدب في العصر العثماني، والدليل على ذلك من وجهين:

أولهما: أن الاهتمام بالمحسنات البديعية، والزخرفة اللفظية، لم ينشأ في العصر العثماني، وإنَّما يعود إلى أوائل العصر العباسي، وهو نتيجة طبيعية لما وصل إليه الأدب من تطوُّر، وما بلغته العقول من ترف فكري، جاء في كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) «هو أوَّلُ مَن تكلَّف البديعَ منَ المُوَلَّدينَ، وأخذَ نفسَه بالصَّنعة، وأكثرَ منها»[٢١]. فالاهتمام بالبديع والمحسِّنات اللفظية ليس مقتصرًا على العصر العثماني، بل هو سمة ارتبطت بالأدب منذ بداية القرن الثالث الهجري، وبلغت أوجها في القرن الرابع، واستمرَّت في القرون التالية.

وجاء في التذكرة الحمدونية: «وكانَت القُدماءُ تُوجزُ المُكاتَبات وتَختصرُها، وتَقنَع من الألفاظ بمُبلغها، وتَرى الإطالةَ عجزًا والإيجازَ إعجازًا، ولذلك قال يَحيى بن خالد لأولاده: إن استطعتم أن تكَون كُتُبكم كلُّها توقيعات فافعلوا. وعدلَ الناسُ الآنَ إلى الإسهاب، واعتاضوا عن البلاغة بالتفريع في الألفاظ»[٢٢]. فابنُ حمدون وهو من كُتّاب القرن السادس (ت ٥٦٢هـ) يُشير في كلامه هذا إلى انتشار الصنعة البديعية والزخرفة الشكلية في عصره، وميل الناس إليها، وهذا يعني أن الصنعة البديعية والزخرفة الشكلية لم تكن وليدة العصر العثماني، وإنَّما كانت في أوج تعقيداتها

(21) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق (ت 463هـ)، 1/ 131.
(22) التذكرة الحمدونية، لابن حمدون (ت 562هـ)، 6/ 314.

قبله بقرون، وكانت معياراً على قدرة الكاتب وتمكُّنه من الألفاظ والأساليب والتعبير، فليس من المستبعد أن يلجأ إليها الأدباء في العصر العثماني، الذي عُرف عنه بأنه عصر الثقافة الموسوعية، والترف الفكري.

وثانيها: أنَّ العصرين المملوكي والعثماني هما عصرا العلم بامتياز، فمنذ بداية العصر المملوكي أصبحنا نرى في دمشق وحدها مئات المدارس والحلقات العلمية، التي يرتادها آلاف الطلبة، ويُشرفُ على كلٍّ منها عشرات العلماء والمدرِّسين. والسمة العلمية لهذين العصرين فرضَت على الجميع التوجُّه إلى العلم، وعدم الاقتصار على الأدب، ومن المعروف أن العقل الذي يتغذَّى بدقائق العلم وتفريعاته لا يبقى للشعر مكانٌ فيه، لأن الشعر يحتاج إلى ذهن صاف، وفكر متأمِّل، وعاطفة جيّاشة، وبال خلو من المسائل والمصطلحات، وهذا الجوُّ المطلوبُ للشعرِ لم يَعدْ موجوداً في العصرين المملوكيِّ والعثماني، لإقبال الناس على العلم، وتشجيع الأمراء والحكّام عليه، وارتباط مكانة المرء وجاهه به لا بالأدب.

فالأشعار التي وصلتنا من العصر العثماني وحتى المملوكي لم يكن قائلوها شعراءَ متفرِّغين للشِّعر، كما هو الشأن في العصر العباسي، وإنَّما هم علماء في الأصل، والشِّعرُ من اهتماماتهم الثانوية، فمن الطبيعي أن يكون دون مستوى شعر الفحول المتفرِّغين، كأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم. وبهذه الحقيقة يمكننا تفسير ما يُقَال عن الشعر المملوكي والعثماني بأنه دون مستوى الشعر العباسي.

وقد وقف قدماء النُّقّاد عند ما أسموه أشعار العلماء، وعَنَوا بهذه التسمية ما أُثر عن العلماء من أشعار، تتصف بالتكلُّف والبرود العاطفي والتعقيد الأسلوبي، ومردُّ ذلك أنهم لمَ يصدروا عن طبع وموهبة وخُلوِّ ذهن يسمح بظهور العاطفة وتوقُّدها، وإنما صدروا عن علم بأوزان الشعر وقوافيه، وعن عقولَ مشغولة بمسائل العلم ومصطلحاته والجولان في ساحاته.

قال ابن قتيبة معقِّبًا على أبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ): «وهذا الشعر بيِّن التكلُّف رديء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعيّ، وشعر ابن المقفّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنّه كان أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا»[٢٣].

وقال ابن بسام في الذخيرة: «على أنَّ أشعار العلماء، على قديم الدَّهر وحَديثه، بَيِّنةُ التَّكلُّف، وشعرهم الذي رُوي لهم ضَعيفٌ»[٢٤]. والسبب في ذلك كما تقدَّم أن الشِّعر يحَتاج، مع الطَّبعَ والمَوهبة، إلى صفاء ذهن، وتفرُّغ كامل له، مع المداومة على قراءة أشعار الفحول، والتمرُّس بأساليبهم وألفاظهم، وَطرَائقهم في التعبير والتصوير. وما يحتاجُه الشعر لا يتوفَّر لدى العلماء، لانشغال عقولهم بدقائق العلوم والمصطلحات والمحاكمات المنطقية، وسيطرة الصبغة العقلية على كتاباتاهم وأساليبهم.

(23) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)، 1/ 71. ويُنظر فيما قيل عن أشعار العلماء وخصائصها: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للحسن بن بشر الآمدي (ت 370 هـ)، 1/ 25، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام (ت 542هـ)، 2/ 824، وخلاصة الأثر 3/ 182، وجواهر الأدب، للسيد أحمد الهاشمي (ت 1362هـ)، 1/ 261.
(24) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 824.

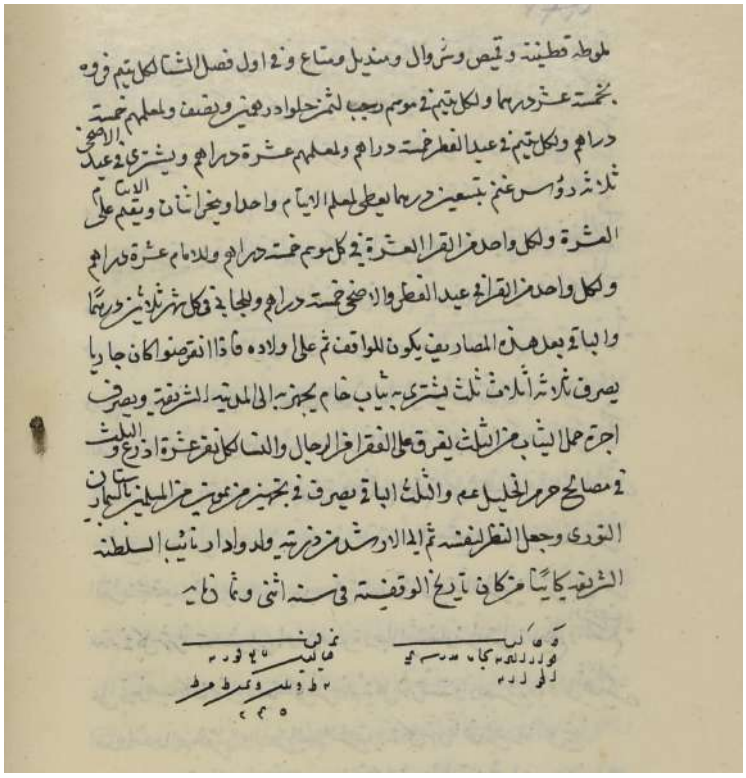

وقف المدرسة الجقمقية

ويُستَدلُّ من كلام النقاد أنَّ الميزة المهمّة التي عليها مدارُ الشعر هي العاطفة، التي عبَّروا عنها في مجال الغزل والنسيب بالرِّقة والعذوبة، وفي مجال الفخر والمديح بالقوة والمبالغة، ولذلك لم يُعجبهم ما خلا من العاطفة، مهما كانتَ تعابيره جزلة، ومعانيه مبتكرة، وصُوره دقيقة[٢٥].

وبهذا الاعتبار ميَّزوا، كما مرَّ، بين أشعار العلماء التي يسودها البرود العاطفي، وغلبة التقسيم والتفريع والمحاكمات العقلية، وبين أشعار الشعراء التي تتسم بحرارة العاطفة، ورقة الشعور، وترتسمُ فيها أصداءُ النفس الإنسانية وميولُها وأهواؤُها.

وبناءً على ما تقدَّم يُمكن القول بأنَّ الشِّعر، في العصرين المملوكي والعثماني، ليس في مستوى الشعر العباسي، من حيث سلاسةُ الأسلوب وحرارة العاطفة والجري على الطبع والمزايا الفنية الأخرى، ولكنَّ ذلك لا يعني أن هذين العصرين ساد فيهما الجمود الفكري والتقليد واختفاء روح الإبداع، كما ذهب بعضُ الدارسين، وإنَّما السبب في ذلك يرجع إلى أن العلمَ قد زاحم الأدب، في هذين العصرين، وأزاحَه إلى مراكز متأخِّرة، فلم تعد له المكانة التي كان يشغلها في العصر العباسي، ولذلك حمل المبدعون أنفسَهم على طريق العلم، الذي ازدهر ازدهارًا واسعًا في الشام ومصر وغيرهما، وأصبَح الأدب من اهتماماتهم الثانوية، فمن الطبيعي أن يكون دون المستوى الذي كان عليه في العصور التي كان المبدعون يتفرَّغون له، ويجتهدون في الإجادة والإبداع.

ثالثاً _ خصائص شعر ابن شاهين وموضوعاته:

تقدَّم سابقًا أن ابنَ شاهين، كغيره من رجالات عصره، انحاز إلى طريق العلم بعد أن ترك سلكَ الجندية، ولزم كبار علماء الشام كالحسن البوريني وغيره، ودرَّس في الجقمقية وغيرها، ووضع مؤلَّفات في اللغة، فلباس العلم ظاهرٌ عليه بلا شكّ، وصبغة المعرفة غالبةٌ على تفكيره وعقله، ولكنَّه في الوقت ذاته كان يسَير مع الأدب كما يسير مع العلم، ويغرف من معينه، ويُوطِّن نفسَه على ولوج مداخله ومجاهيله، وبلوغ قمَمه وغاياته، ولهذا استطاع بما أُوتيَه مَن مواهب وذكاء أن يضع حدًّا لطُغيان العلمِ، وأن يحفظَ للأدب مكانًا في قلبه ووجدانه وفِكره، فجاءت

(25) يُنظر بعض الآراء النقدية المرتبطة بهذا الجانب في: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، 119/6، وديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (ت 395هـ)، 1/ 222.

أشعاره على درجة فائقة من الحسن والسلاسة، وقلَّما تحقَّق ذلك لغيره من الشعراء العلماء، حتَّى إنَّ المُحبِّي (ت ١١١١هـ) كان يصفه بأديب الزمان، وأديب الدهر[٢٦]، فضلاً عمّا نقلتُه سابقًا ممّا قيل في أدبه وذكائه وشاعريّته.

وابن شاهين ليس له ديوان مطبوع أو مخطوط، وقد ضاعت معظمُ أشعاره، ولم يبقَ منها إلا ما احتفظ به المَقَّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) في كتابه نفح الطِّيب، ويوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في مؤلَّفاته، التي منها ذكرى حبيب، والصُّبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، والمُحبِّي (ت ١١١١هـ) في كتابَيه نفحة الرَّيحانة وخلاصة الأثر، وابن معصوم (ت ١١١٩هـ) في كتابه سلافة العصر. وغالبها مقطوعات تتناسب مع مناهج كتب التراجم والمختارات الأدبية، التي تميل إلى الانتقاء والاختصار، ويبلغ مجموع أشعار ابن شاهين نحو (٥٠٠) بيت، تتوزَّع أغراضُها الشعرية بين المديح، والرثاء، والوصف، والاعتذار، والغزل، والشَّكوى، إضافة إلى موضوعات أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل من أشعاره، كالفخر، والهجاء، والحكمة، والتصوير.

١- المديح:

المديح من أهم الأغراض التي لازمت الشِّعرَ منذ العصر الجاهلي، واستمرَّت في العصر العثماني، عصر الأديب أحمد بن شاهين، حيث كان الشعراء يمدحون السلاطين العثمانيِّين والحُكام، إضافة إلى العلماء والأعيان[٢٧].

والأديب الشاهيني له في المديح باعٌ طويل، حيث مدحَ بعضَ الولاة والأعيان والعلماء والأصدقاء، ويشهد له على ذلك لاميَّتُه المطوَّلة، التي مدح بها شيخَ الإسلام يحيى بن زكريا (ت ١٠٥٠هـ)[٢٨]، فافتتحها بالشَّكوى من تقلُّبات الزَّمان، ثم انتقل إلى المديح، وختمها بالفخر بشعره، يقول في افتتاحها شاكيًا من صروف الزمان[٢٩]:

لا يَسلَني عَن الزَّمانِ سَؤُولُ ... إنَّ عَتبِي على الزَّمانِ يَطولُ

وقد أثنى عليه يوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ) في هذا المطلع، وعدَّه من الابتداءات الحسنة[٣٠]، ثم يمزج بين الشَّكوى والفخر، فيفتخر بثباته وصبره على المِحَن، كما سيأتي في الحديث عن موضوع الفخر، ثم ينتقل إلى المديح، على نحو قوله[٣١]:

بأبي أنتَ إنَّما أنتَ شَمسٌ ... لنُجوم السَّماء منكَ أُفُولُ
لو أعَرتَ الهلالَ منكَ كَمالاً ... ما اعتراهُ نَقصٌ ولا تَحويلُ
أو مَنَحتَ البَحرَ الخَضَمَّ وَقاراً ... قَرَّ حتَّى ما هَيَّجَتهُ القَبولُ
أو غَدا من مِزاجِ خُلقكَ فيه ... أثَرٌ كانَ دُونَهُ السَّلسَبيلُ

(26) يُنظر: خلاصة الأثر 4/ 453 و463.
(27) يُنظر: عصر الدول والإمارات- الشام، للدكتور شوقي ضيف، ص148- 149.
(28) هو شيخ الإسلام يحيى بن زكريا بن بيرام، ولد بالقسطنطينية سنة 999هـ، وتلقَّى تعليمَه فيها، ثم درَّس في بعض مدارسها، وولي قضاء حلب، ثم قضاء دمشق، ثم قضاء مصر، ثم عُيِّن في قضاء أدرنة، فقضاء القسطنطينية، ثم ولي قضاء العسكر في السلطنة، ثم ولي الإفتاء السلطاني سنة 1031هـ، وبقي يتدرج في المناصب ويرقى في العلم حتى وفاته سنة 1050هـ. تُنظر ترجمته في خلاصة الأثر 4/ 467.
(29) سلافة العصر في محاسن في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن معصوم (ت 1119هـ)، ص379.
(30) يُنظر: الصبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، ليوسف البديعي (ت 1073هـ)، 2/ 194.
٣١ () سلافة العصر ص٣٨٠.

أو قَسَمتَ الذي حَويتَ منَ العلـ ـم لَما كانَ في الأنام جَهُولُ
حُزتَ رأياً لَو كانَ للسَّيفِ يَوماً رَونَقٌ منهُ ما عَراهُ فُلُولُ

وتَمضي القصيدةُ على هذه الشاكلة من دقّة المعاني والمبالغة في الوصف، علمًا أن المبالغة من الأساليب المحبَّبة لدى النُّقاد والأدباء، ولا سيَّما في مجال المديح، وتُعدُّ هذه القصيدة من المطولات، إذ بلغت أبياتها (٩٥) بيتًا، وهي تُعبِّر عن شاعريّة صاحبِها، وتمكُّنه من الأساليب والبيان.

وتقدَّم أن المَقَّرِيَّ التِّلمسانيَّ علامة المغرب زار دمشق سنة ١٠٣٧هـ، فاستقبَلَه أهلُها بالحفاوة والتكريم، وأرسل إليه الأديب الشاهيني مفاتيح المدرسة الجقمقيّة، ليُقيمَ فيها، مع هدية متواضعة وبعض المال، ولازمَه مدّة إقامته في دمشق، ونشأت بينهما صداقة متينة، وأشار عليه ابن شاهين بتأليف كتاب نفح الطيب، وحثَّه على ذلك، فعاد المقَّريُّ إلى مصر، حيث كان يُقيم فيها بالأصل، وعكف على تأليف كتاب النفح، وفي أثناء ذلك كان الأديب الشاهيني يُراسله، ويتلقَّى منه الأجوبة، وكانت المراسلاتُ بينهما من عيون النثر والشِّعر، وقد احتفظ بكثير مَنها المقريُّ في نفح الطيب، ومن أشعار الأديب الشاهيني في مديح المَقَّريِّ التِّلمسانيِّ قولُه في جواب إحدى رسائله[٣٢]:

أأنفاسُ عيسى ما بِرَوعي يُنفَخُ أم الطِّرسُ أضحَى بالعَبير يُضمَّخُ
وهذي قَوافٍ أم هي الشَّمسُ إنَّني أراها على الجَوزاء بالأنف تَشمَخُ
بلَى هي نصٌّ من ودادكَ مُحكَمٌ تَزولُ الرَّواسي وهيَ لم تَكَ تُنسَخُ
أتَتني بمَدحٍ مُخجِلٍ فكأنَّها لفَرط حَيائي قد أتَتني تُوبِّخُ
وهَل أنا إلاَّ خادمٌ نعلَ سَيِّدي وبَيني وبينَ المَدحِ في الحَقِّ بَرزَخُ
فلا درَّ دَرِّي وانحرفتُ عَنِ العُلا إذا كانَ وُدِّي عَنَ مَعاليكَ يُفسَخُ
وحبُّك مَهما طالَ شَرقاً ومَغرباً بوكرِ ابنِ شاهينَ الوفيِّ يُفرِّخُ
وإنِّي وإن أرَّختُ مَجداً لماجدٍ فإنِّيَ باسمِ المَقَّريِّ أُؤَرِّخُ
سَميِّي ومَولايَ الذي راحَ مَدحُهُ لرأسِ الأعادي بالمَعاريضِ يَرضَخُ
ودُم يا نَظيرَ البَدرِ تَرقَى بأوْجِه ولا زلتَ في طَريفٍ وقَلبيَ تَرسَخُ

وهذه القصيدة، كما هو واضح، تتزيَّنُ بانسياب تعابيرها، وعذوبة ألفاظها، وصدق عاطفتها، وتعبِّر عن مشاعر الحبِّ والأُخوة الصادقة، التي لا يَشوبها غرضٌ ولا مصلحة، بل يَعمرها الصدقُ، ويحوطها صفاء القلب، وتتدفَّق في معانيها أسمى مشاعر الشوق والحبّ.

٢- الرثاء:

ومن الموضوعات التي تناولها الأديبُ الشاهينيُّ في شعره موضوعُ الرِّثاء، الذي تُلجِئُ إليه مُصيبةُ الموت، ورحيل الأحباب والأصدقاء والأتراب.

(32) نفح الطيب 2/ 416- 417.

ومن مرثياته قوله في رثاء أستاذه مفتي الشام الشيخ عبد الرحمن العمادي الدمشقي الحنفي (ت ١٠٥١هـ)[٣٣]:

خَلَت الدِّيارُ فلا أنيسَ يُداني وتَضعضَعَت بتَضعضُع الأركانِ
وغَدَت دمشقُ وَليدةً مُستامةً للمُفلسينَ بأبخَس الأثمانِ
يا مُوحشاً أهلَ الحَياة بفَقده آنَستَ في المَوتَى حمَى رضوانِ
يا راقداً ثَقُلَ الرُّقادُ بجَفنَه أنعم عليَّ بيَقظة الوَسنانِ
يا مُفتياً طالَ السُّؤالُ لقَبرِه وجَوابُهُ مُتَعَذِّرُ الإمكانِ
هلا أجبتَ سُؤالَنا ولَطالَما كُنتَ المُجيبَ لنا عَنِ القُرآنِ
شَمسٌ بنُورِ العلم ضاءَت بُرهةً فكَسَت نُجُومَ الأرضِ باللَّمَعانِ
كَيفَ استَوى البَحرُ الخضَمُّ بحُفرةٍ أم كَيفَ حلَّ الكَنزُ في همْيانِ
يا عبدَ رَحمانِ السَّماواتِ العُلا أبشر برحمة رَبِّكَ الرَّحمَنِ

والقصيدة كما يذكر المحبي طويلة جدًّا، اختارَ منها بعضَ الأبيات، وما هو مُثبَت هنا انتقيتُه من مختارات المُحبِّي. والأبيات كما يبدو غزيرة المعاني، عذبة الألفاظ، بديعة التصوير، تتدفَّق فيها الموسيقا والعاطفة الجيّاشة، وكلُّ ذلك يشهد لصاحبها بعمق التجربة، والتمكُّن في الشاعرية، والقدرة على التأليف والنظم، خاصةً أن قصائد الرِّثاء تكون في الغالب مرتجَلة، أو على الأقل كُتبت على عجل، لأنَّ مناسبتها تأتي فجأة.

ومن مرثيّات الأديب الشاهيني قوله في رثاء أحد أعيان دمشق وأدبائها يحيى بن أبي الصفا المحاسني، الذي توفِّي شابًّا سنة (١٠٥٣هـ)، وكان الشاهيني صديقَه وأستاذَه[٣٤]:

رَحِمَ المُهَيمنُ ناظِمًا قِدَمًا لِهذا الشِّعرِ راوِي
يَحيَى الذي قَد ماتَ وهـ ـو لِمَفخَرِ الأحياءِ حاوِي
مَدَحَ الدِّيارَ وأهلَها ومَضَى فرَوضُ الأُنسِ ذاوِي
يا رَبِّ وسِّع مَرقَدًا هُو في مَضيقٍ منهُ ثاوِي
فبَنُو المَحاسِنِ كُلُّهُم مِن بَعدِ مَشهَدِه مَساوِي

وقصائد ابن شاهين في الرِّثاء كثيرةٌ جدًّا، بسبب ظهور نجمه في عصره، وعلاقاته الواسعة مع الحُكّام والأعيان، فمن الطبيعيّ أن تكون له مراث فيهم، إلا أن كُتب التراجم والأدب لم تحتفظ إلا بالقليل منها، وما أوردتُه هنا يكفي لتكوين صورة واضحة عن خصائص شعره في هذا المجال.

(33) خلاصة الأثر 2/ 388- 389.
(34) خلاصة الأثر 4: 463.

دمشق والأموي في العصر العثماني

٣- الوصف:

يُعَدُّ الوصفُ من الموضوعات المهمّة، التي جذبَت الشعراء في كل الأزمنة، وذلك بقصد ابتكار الصُّور الجميلة، أو تزيين التعابير بالمحسنات البيانية، أو الاستعانة بالطبيعة في إبراز المشاعر والأحاسيس، أو الرَّبط بين مشاهد الطبيعة وعالم النَّفس والوجدان.

فموضوع الوصف يشغل حيِّزًا واسعًا في التراث الشعري، فلا نجد شاعرًا إلّا سار في شعابه، وطرقَ أبوابَه، وتركَ أثرًا في ميدانه. وازداد اهتمام الأدباء بالوصف في عصور الصنعة، إذ وجدَوا فيه كلَّ ما يُناسبُ أذواقَهم في صنَاعة التصوير، التي مالَ إليها الناسُ واستجادوها.

ومن الشعر الوصفي عند الأديب الشّاهيني قولُه يصف الرَّبيع[٣٥]:

انظُر لأوراق الرَّبيع وقد بَدَت مُحمَرّةً في صُفرة الأشجارِ
وكأنَّها لَمّا تَبَدَّت بَينَها شَفَقٌ تَبدَّى في سَماءَ نُضارِ

ومن الواضح أن غرض الشاعر من الوصف هنا تصنيع الصُّور، فلفتَ انتباهَهُ أن حمرةَ شقائق النُعمانِ وسطَ صفرة الأشجار تُشبه حمرةَ الشَّفَق وهي تظهر في سماء من الذهب. فالصُّورة جميلةٌ بلا شكٍّ، وإن لم تكن مبتكَرة، وهي تناسب أذواق الناس في عصره، ولا سيَّما الطلبة الذين يدرسون علوم البلاغة.

وممّا قاله في وصف الربيع أيضًا[٣٦]:

قد أُحبُّ الرَّبيعَ للَّهو فيه بلَطيف الهَواء والأزهارِ
ثمَّ فصلُ الخَريفِ عنديَ أحلى لاجتِنائي فيهِ لَذيذَ الثِّمارِ

(35) نفحة الريحانة 1/ 126.
(36) نفحة الريحانة 1/ 126.

ومن الواضح هنا أنَّها نُتفة مرتَجلة، أراد بها المزاح والتندُّر، وغالبًا ما كان الشعراء يتندَّرون بمثلها، ويُمازحون بها جلساءهم، عندما يكونون في نزهة.

ومن أشعار ابن شاهين في الوصف قوله في القهوة[٣٧]:

وقَهوةٍ كالعَنبر السَّحيق سَوداءَ مثلَ مُقلة المَعشوق
أتَت كَمسك فائح فَتيق شَبَّهتُها في الطَّعم كالرَّحيق
تُدني الصَّديقَ من هَوى الصَّديق وتَربطُ الوُدَّ معَ الرَّفيق

وقال في وصف الثَّلج وتفضيله على القهوة[٣٨]:

غَنيتُ بالثَّلج عَن سَوداءَ حالكة من قَهوة لم تَكُن في الأعصُرِ الأُوَل
وقُلتُ لَمّا غَدا خِلّي يُعَنِّفُني: في طَلعة الشَّمس ما يُغنيكَ عَن زُحَل

٤- الاعتذار:

كان أحمد بن شاهين على خُلُق رفيع، وفيًّا لشيوخه وطلابه، محبوبًا من أعيان عصره، كريمًا جوادًا رغم قلّة ذات يده، حريصًا على حُسن الصُّحبة مع إخوانه، متفانيًا في سبيل استمرارها، ولا شكَّ أن العلاقات تخبو جذوتُها أحيانًا، وتذبلُ أوراقُها النَّديّة تارةً، فيستولي عليها الجفاء، حتى تُمطرَها سحائبُ الاعتذار، فتعود لها الحياة والنَّضارة.

والاعتذار ليس سهلاً على المرء، وهيهات أن تسمح به النَّفسُ، ولكنَّه مع صعوبة مركبه، ووعورة طريقه، لا يتأبّاه مَن فُطر على كرم النفس، وصفاء الطويّة، وحُسن الخُلق، فيتجرَّع كأسَه المُرّةَ، موقنًا أن وراء مرارة الدَّواء حلاوةَ الشِّفاء، وخلف تجهُّم السماء صفاءَ النَّهار، وبزوغ الأنوار.

ومن اعتذاريات الأديب الشاهيني أنه حصلَت بينه وبين أستاذه أبي الطَّيِّب الغَزِّي مجافاة وقطيعة، بعد المودة والمُصافاة، فكتب إليه هذه الاعتذارية، التي يقول فيها[٣٩]:

ألمَّت أيادي الخَطب سائمةَ العَتب على أنَّها العُتبَى تكونُ لذي الحُبِّ
لأيّة حالٍ يا بنَ خَير أرُومة أُذادُ عن العَذب الزُّلال بلا شُرب
وأشرَبُ صابَ الدَّمع يَطفو أُجاجُه لبُعدكَ، والأعداءُ واردةُ العَذب
فيا ليتَ شعري والأَماني تَعلُّلٌ ورَوضُ المُنى يُنبيكَ عن وابلٍ رَطب
متى أردُ الإسعافَ في مَنهَل الرِّضا وأعتاضُ عَن نَزر المَودّة بالسَّكب
وقد كنتُ آتي في السَّلام تَتابُعاً فلمّ صرتُ أرضَى في الزِّيارة بالغِبِّ
وهَبْ أنَّني مارَستُ كلَّ جَريرةٍ فحَسبي مِنَ الإعراض يا أملَي حَسبي

(37) يُنظر: نفح الطيب 2/ 468، وسلافة العصر ص378.
(38) خلاصة الأثر 1/ 307.
(39) نفحة الرَّيحانة 1/ 116.

والقصيدة تتألف من (١٦) بيتًا، يذكر فيها بعضَ الحوادث التاريخية، التي شهدت جرائمَ وذنوبًا ومَعاصيَ، وأنَّه لم يرتكب واحدةً منها، ليستحقَّ هذا الجفاء من أستاذه، وهو في قصيدته ينحو منحى ابَن زيدون في رسالته الجدِّيّة، التي يستعطف فيها أمير قرطبة ابنَ جهور، على نحو قوله: «فليت شِعري ما الذَّنبُ الذي أذنبتُ ولم يَسَعْه العَفوُ؟ ولا أخلُو من أن أكونَ بريئًا فأينَ العَدلُ؟ أو مُسيئًا فأينَ الفَضلُ؟ وما أراني إلا أُمرتُ بالسُّجود لآدمَ فأبَيتُ واَستكبرتُ، وقال لي نوحٌ: اركَب معَنا، فقلتُ: سآوي إلى جبلٍ يَعصمُني مَنَ الماء، وتعاَطيتُ فعَقرتُ، وعكفتُ على العجل، واعتديتُ في السَّبت، وشربتُ من النَّهر الَذى ابتُلي به جَنودُ طالوتَ، وقُدتُ الفيلَ لأبرهةَ...»[٤٠].

ثم إنَّ الأبياتَ الَتي اخترتُها تظهر فيها محاكاةُ النابغة في قصيدته البائية المشهورة، التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر، ومطلعها[٤١]:

أتاني، أبَيتَ اللَّعنَ، أنَّكَ لُمتَني وتلكَ الَّتي أهتَمُّ منها وأنصَبُ

فقد اختار ابن شاهين البحر ذاتَه والرَّويَّ نفسَه، وكأنَّه أراد بذلك أن يُوصل لأستاذه أنَّ مكانتَه عندَه كمكانة النعمان بن المنذر عند النابغة، وإذا كانت الشعراء تُخطئ في حقِّ الملوك، فالأولَى أن يُخطئوا في حقِّ الأصحاب والأحباب، ومهما كان الجرمُ عظيمًا فالعَفوُ أوسَع وأعظم.

وبالجملة فالقصيدة فيها من العاطفة وسلاسة الأسلوب وجمال الألفاظ ما يشهد لصاحبها بالشاعرية والتمكن من فنِّ الشعر، ولكن لا تخلو من بصمات العلماء، فالشعراء المطبوعون يُطالعون في التراث الشعري، ويحفظون ثم يتناسون، ليمتلكوا الألفاظ والتعابير ويصقلوا موهبتهم، فلا تظهر في أشعارهم كثرة التفاصيل والحقائق والحوادث التاريخية، أما العلماء فإنهم يستمرُّون في إملاء محفوظاتهم على طلابهم، فتبقى حاضرةً في أذهانهم، وتظهر في كتاباتهم الشعرية والنثرية على حدٍّ سواء، كما عند شاعرنا الشاهيني في الأبيات التي لم أنقلها من القصيدة السابقة.

٥- الغزل:

وصلنا من شعر الأديب الشاهيني بعض المقطوعات والنُّتَف، التي تفيض بين سطورها عاطفةٌ جيّاشة صادقة، تُعبِّر عن الحبِّ العذريّ في أعلى صوره، ذلك الحبُّ العفيف الذي يليق بذوي الجاه والعلم والفضل.

ومن غزلياته الرقيقة قوله[٤٢]:

إنِّي أبثُّكَ حُبّا حُبًّا يُري السلِّمَ حَربا
يا مَن كوى ألفَ قلبٍ سامحْ من النّارِ قَلبا

فهذان البيتان جاءا على وزن المجتث، وهو بحر قصير، قليل الكلمات، يُناسب موضوع الحبّ، والتعبير عن المشاعر بعفوية وبساطة، فضلاً عن الألفاظ ذات الإيحاء العاطفي، وما فيهما من صدق المشاعر، والتهالك في الحبِّ، ونهاية الخضوع للمحبوب، وبهذه المعايير يقيس النُّقاد جودة الشعر الغزلي، قال أبو هلال العسكري: «وينبغي أن يكون التَّشبيب دالاً على شدّة الصَّبابة، وإفراط

(40) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت 733هـ)، 7/ 291- 292.
(41) ديوان النابغة الذبياني، ص27.
(42) نفحة الريحانة 1/ 119.

الوجد، والتَّهالك في الصَّبوة، ويكون بَريًّا من دلائل الخُشونة والجَلادة، وأمارات الإباء والعزّة»[٤٣].

ومن غزلياته التي تفيضُ رقّةً وعذوبةً، وتظهر فيها شِدّةُ الصَّبابة، وغايةُ الخَضوع للمَحبوب، قوله[٤٤]:

علَّمتَني الذُّلَّ حتَّى صرتُ آلَفُهُ ... وما التَّذَلُّلُ خُلقُ البازِ والأسَدِ
يا مَن أهانَ فُؤادي من مَحبَّته ... أعَزَّكَ اللّه فارحَمْني ولا تَزِدِ
قد صرتُ طَوعَ يَدِ الأشواقِ مُكتَئِباً ... من بَعدما كانَت الأشواقُ طَوعَ يَدي

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن عذاب الحبِّ، وتصوير ما يلقاه العاشق من اللَّوعة والحُرقة، وآلام الشوق والصُّدود، حتى غدت تلك المواجع مستعذبةً عندهم، يتغنَّونَ بمرارتها، ويفتخرون بها، وهي تُقطِّع أكبادَهم وقلوبَهم، يقول الأديب الشاهيني[٤٥]:

لاحَظتُهُ فتغيَّرَت ... لَحَظاتُهُ غَضَبًا لحَربي
فاستلَّ من أجفانه ... سيفًا وأغمَدَهُ بقَلبي
يا مَن رأى في دَهرِه ... قلبًا غدا غمدًا لعَضب

ومن غزليّاته التي يشهد لجَودتها وحُسنها رقّةُ الألفاظ، وسهولة التناول، وبساطة الأسلوب، وجمال التصوير، وعذوبة الموسيقا على مجزوء الرَّمَل، والغنى بالعاطفة الجياشة، قوله[٤٦]:

يا شقيقَ الظَّبي لَحظًا ... والرَّشا في لَفَتاتكْ
فُقتَ غُصنَ البانِ قَدًّا ... والنَّقا في خَطَراتكْ
لَستَ هاروتَ ولكنْ ... سحرُهُ من حَركاتكْ
عَظَّمَ اللّهُ بصَبري ... أجرَ ماضي لَحَظاتكْ
أنا واللّهِ قَتيلٌ ... هالكٌ من نَظَراتكْ
جَرَحَت قَلبي وهذا ... شاهدي في وَجَناتكْ
أنا أستَبقي حَياتي ... لتُقَضَّى في حَياتكْ
كيفَ تَعصيكَ حَياةٌ ... هي من بَعض هباتكْ
آه من ضَعف غَرامي ... وتَقَوِّي عَزَماتكْ
آه من طُولِ عَنائي ... وتَداني خَطَراتكْ

ومن غزليّاته التي تبدو فيها الصنعة البلاغية، والصبغة المنطقية، كما هو الشأن في أشعار العلماء عامة، قوله[٤٧]:

(43) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري (ت 195هـ)، ص129.
(44) نفحة الريحانة 1/ 123.
(45) نفحة الريحانة 1/ 120. والعَضب: السيف القاطع.
(46) نفحة الريحانة 1/ 120.
(47) نفحة الريحانة 1/ 125.

عَجبتُ للشَّمس إذ حلَّت مُؤثِّرةً في جَبهة لَم أخَلها قَطُّ في البَشَرِ
وإنَّما الجَبهةُ الغَرّاءُ مَنزلةٌ مُختَصّةٌ في ذُرا الأفلاك بالقَمَرِ
ما كنتُ أحسَبُ أنَّ الشَّمسَ تَعشَقُه حتَّى تَبيَّنتُ منها حَدّةَ النَّظَرِ

فالأبيات كما يبدو تغلبُ عليها الصبغة المنطقية، والنظر العقلي، ويظهر ذلك في استقصاء الفكرة، والإلحاح على جوانبها، واستثمار كلِّ تفاصيلها، وهذا ليس من عادة المطبوعين من الشعراء، خاصة أنَّ الشِّعرَ بطبيعته لا يتلاءَمُ مع التفاصيل واستقصاء الجزئيات، وإنَّما مع الإجمال والكُلِّيّات، لأنَّ الإحاطة بجزئيات الفكرة كلِّها يكون سببًا في تنحِّي العاطفة، وسيطرة المنطق والنظر العقلي على النصّ.

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الغزل العذري يستغرق معظَم أشعار الشاهيني، ويكفي أن قصيدته الميميّة، التي تبلغ (٦١) بيتًا، هي في موضوع الغزل، وشكوى الحبيب، وألم الهجر والصُّدود، وأمنيات العاشق الولهان، ومنها قوله[٤٨]:

حكَّمتُهُم في فُؤادي حَسبَما رَسَمُوا فلَيتَهُم حَكَمُوا بالعَدلِ إذ حَكَمُوا
جارُوا ولَو عَلمُوا أنِّي لحُكمهمُ طَوعُ القياد لَما جارُوا ولا ظَلَمُوا
هُم عَرَّضُونا لبَلواهُم بقُربهمُ حتَّى إذا ما رأوا إقبالَنا سَئمُوا
كُنّا بَنَينا لَهُم في القَلب مَنزلَةً عَلياءَ حتَّى إذا ما شُيِّدَت هَدَمُوا
ظنُّوا بنا غيرَ ما تَطوِي سَرائرُنا واللّه يأبَى الذي ظَنُّوهُ والكَرَمُ

وأبيات القصيدة كلِّها تسير على هذا النحو من الرِّقة والعذوبة والسلاسة، وهي تُعطينا فكرة كاملة عن أدب الشاهيني، وأسلوبه الرائق، ومستواه الفني، وغناه بالعاطفة، وصدوره عن طبعٍ صافٍ، وقلم متمرِّسٍ، رغم مزاحمة العلم له.

٦- الشَّكوى:

موضوع الشكوى لا يقتصر على شاعر دون آخر، بل يشمل كلَّ النّاس، فهذا يشكو من الفقر، وذاك يعتب على الدهر، وآخر يندبُ حظَّه العاثرَ، وهناك من يشكو من المصائب، أو يبكي من الفراق والغربة، والكلُّ يُقلقهم صوتُ الموت، الذي يجول في كلِّ مكان، ويُرسل رُسُلَه إلى كلِّ إنسان، ألا إنِّي قادمٌ فاسبقني إليهم أيها الشَّيبُ، وأنذرهم أيُّها الدّاءُ، وأبلغهم أيها الزمن، فإنَّك إذ تجري تُقرِّبهم من آجالهم، وتُنقصُ بمرور أيّامك أعمارَهم.

وشاعرنا، فيما وصلَنا من أبياته، كان كثير الشكوى، ولكن هذا لا يعني أنَّه يميل إلى الكآبة والسوداوية، لأن الشعر ابنُ اللحظات، ووليدُ المواقف والمفاجآت، فما يحملُه من مرارة وهموم لا يُعبِّر عن حياة الشاعر في الغالب، بل هو تعبير عن إحساس مؤقَّت لا يلبثُ أن يزول، وترجمةٌ لحالة عاشها الشاعر في تأمُّلاته وخُلُوِّه مع ذاته، ثم انجلت وتبدَّدت، مع ولادة القصيدة.

وإذا أردنا فهمَ العلاقة بين حياة الشاعر وشعره فنستطيع تشبيه حياته بلوح من زجاج

(48) نفحة الريحانة 1/ 131.

شفّاف، وتشبيه شعره ببُقعة حمراء مثلاً في وسط الزجاج، فإذا أردنا أن نحكم على حياته من شعره فكأنّنا وضعنا أعيُنَنا على البقعة الحمراء، فتبدو لنا الطبيعة كلُّها حمراء، وهذا خلاف الواقع، فالشِّعرُ نستشفُّ منه بعضَ الجوانب المتعلقة بحياة الشاعر، لكنَّه لا يُعبِّر تعبيرًا دقيقًا عن حياته، لأنه كما تقدَّم يُعبِّر عن لحظات ومواقف تعتري مسيرة الحياة فحسب. ومن شعر الشكوى، عند الأديب الشاهيني، قوله[٤٩]:

نَصَلَ الشَّبابُ وما نَصُلتُ عن الهَوى وبدا المَشيبُ وفيَّ فَضلُ تَصابي
وغَدَوتُ أعترضُ الدِّيارَ مُسلِّماً يوماً فلَم تَسمَح بِرَدِّ جَواب
فكأنَّها وكأنَّني في رَسمها أعشَى يُحدِّقُ في سُطورِ كتاب

فهذه المقطوعة فيها غيرُ قليل من العاطفة الشَّجيّة، التي باحَ بها قلبُ الشاعر، حُزنًا على انقضاء عهد الشباب، حتى إنَّ ديارَ الأحبّة، التي كانَ يُكلِّمُها وتُكلِّمُه، تنكَّرت له، فلم تردَّ عليه السَّلامَ، وهو أيضًا لم يعد يرى فيها روحَه التي كانت تحومُ في تفاصيلها وذكرياتها، ولا وُجوهَ الأحباب التي كانت ترتسم أمام ناظريه، ويخفقُ لها قلبُه، فبقيَ حائرًا تائهًا يَتأمَّلها، كما يتأمَّل الأعشى سطور كتاب، فلا الكتابةُ واضحة، ولا النظرُ قادرٌ على اجتلاء الكلمات.

ومن شعره في الشكوى من الحظِّ العاثر، وانقضاء العمر بلا جدوى، وذهاب بهجة الحياة، والذي ضمَّنَه فلسفةً شائعة، محتواها أن العُمر لا يُحتَسَب إلا بما مرَّ فيه من أيام السعادة والسرور، قولُه[٥٠]:

لَحَى اللّهُ أوقاتي وضاعَفَ من صَبري على مَرِّها مَرَّ السَّحاب بلا قَطرِ
تُحارِبُني الأيّامُ حتَّى كأنَّها تُطالبُني عَن كُلِّ مَن ماتَ بالوَترِ
عَدَدتُ أُويقاتي ولاحظتُ طيبَها فأجودُها ما مَرَّ في الحُلم من دَهري
إذا رُحتُ أُحصيها لأعلَمَ يُسرَها عَدمتُ حَياتي والمَصيرُ إلى عُسرِ
متى ما اعتبرتَ العُمرَ ما كانَ صافيًا تَجِد رَجُلاً قد عاشَ عُمراً بلا عُمرِ

وتظهر سماتُ الإبداع هنا في استعمال البحر الطويل، الذي يُلائم مشاعرَ المَلَل والضِّيق، وفي استعمال الألفاظ ذات الطاقة الإيحائية والتخييلة، التي تُناسب الموضوع، كالأوقات والأيام والسحاب والصبر والحلم والدهر والعمر وغيرها[٥١].

٧- موضوعات أخرى:

يُصنِّف مؤرِّخو الأدب تحت عنوان «الموضوعات الأخرى» الأشعارَ التي قالها الشاعر في موضوعات متفرِّقة، لا تنتمي إلى الأغراض المشهورة عنده، ومن الطبيعيِّ أنها تختلف بين عصر وآخَر، بسبب تراجع بعض الموضوعات وتقدُّم أخرى، بحسب ما تُمليه طبيعة العصر، فمثلاً

(49) نفحة الريحانة 1/ 119.
(50) نفحة الريحانة 1/ 123. والوتر: الثأر.
(51) يُنظر في إيحاء الألفاظ ومناسبتها للموضوع: مجلة دواة، العدد34، لعام 2022، ص292، بحث بعنوان: الألفاظ الشعرية: طبيعتها وإيحاءاتها العاطفية، للدكتور محمود الحسن.

دمشق من خلال إطلالة من صالحية دمشق، في النصف الأول من القرن الماضي

كان الفخر من الموضوعات المهمة في العصر الجاهلي، لكنه تراجع في العصور المتأخرة، لأن الناس لم تعد تستسيغه، ولهذا أصبح يُدرَج في الموضوعات الثانوية، لأن الشعراء وإن تطرَّقوا إليه لكنهم يدخلون أوديتَه على استحياء، ويُحاولون تلطيفه بالحكمة أو التصوير، أو المزج بالموضوعات الأخرى، ويكتفون بالأبيات بدلاً من المطوَّلات.

ومن أمثلة الفخر عند الأديب الشاهيني قوله[٥٢]:

وما زالَت تُخبِّرُني المَعالي سِرارًا لا أُطيقُ له جِهارا
فإنْ أظفَرْ به فأنا حَرِيٌّ وإلّا فالمُقدَّرُ لا يُجارَى

فالفخر واضح في البيتين، إذ يذكر الشاعر أنه حَريٌّ بنيل المعالي، ولكن لا نجد تلك الصَّرخات المُعتدّةَ بالنفس، التي كنا نسمعها في شعر المتنبي مثلاً، بل يُلمِّح على استحياء، ويُتبِع فَخرَه بالتواضع أمام القدر، فيجعل البيتين بمثابة حكمة، وهو يُريد الفخر بنفسه حقًّا.

وللأديب الشاهيني في الفخر أبيات بثَّها في قصيدته التي مدح بها شيخ الإسلام يحيى بن زكريّا، التي تقدَّم الحديث عنها في غرض المديح، فمزج بين الفخر والشَّكوى من صروف الدَّهر، مُصوِّرًا نفسَه على أنه قويُّ العزم، صامد في وجه النَّكبات، صابرٌ على المصائب، لا تلوي ذراعَه المِحنُ والخُطوب، وممّا قاله فيها[٥٣]:

أنا يا دَهرُ لستُ إلّا قناةً لم يَشِنْها لدى المَكَرِّ النُّحُولُ
إن أكُنْ في الحَضيضِ أصبحتُ إنِّي في ذُرا الأوجِ كلَّ حينٍ أجُولُ
فطَريقي هيَ المَجَرَّةُ في السَّيـ ـرِ، وعندَ السِّماكِ دأبي المَقيلُ
صُنتُ نَفسي ترفُّعاً عندَ قَدري فكَثيرُ الأنامِ عِندي قَليلُ
فإذا قيلَ لي فلانٌ تَراهُ ذا جَميلٍ؟ أقولُ صَبري الجَميلُ
وَفَّرَت همَّتي عَليَّ وعَزمي ماءَ وَجهي، فسَيفُ عِرضي صَقيلُ

ومن الموضوعات التي عُني بها الأديب الشاهيني موضوعُ الهجاء، إلا أنَّه ليس كالهجاء المعروف في العصور السابقة، وَإنّما الهجاء المراد به المازحة والتندُّر، ومداعبة الأصدقاء، وإغناء المجالس بالفكاهة والسرور، ومن ذلك قوله في هجاء أبي البقاء الصّفوري الدمشقي الصالحيّ (ت ١٠٣٥هـ)، الذي وَلِيَ عدداً من المناصب، وكان من أعيان دمشق، إلا أنه كان متَّهَمًا بالسِّحر

(52) نفحة الريحانة 1/ 127.
(53) سلافة العصر ص379.

والتَّنجيم[٥٤]، حيث قال فيه الشاهِيني هاجيًا[٥٥]:

أبا البَقاء لَحاكَ اللّه من رَجُلٍ فيكَ الطَّبيعةُ قد قُدَّت من الحَجَرِ
كم تدَّعي بعلوم النَّجم معرفةً وما تُفَرِّقُ بينَ الشَّمس والقَمَرِ

ومن الموضوعات التي تطرَّق إليها الأديب الشاهيني في شعره الحكمةُ، وهي تحتوي خلاصة التجارب، ومنتهى ما يصل إليه الفكر المتأمِّل في الحياة، ومن حِكَمه التي تصلح أن تجري مجرى الأمثال قوله[٥٦]:

إذا أقبَلَت دُنياكَ يَومًا على امرئٍ كسَته، ولَم يَشعُر، مَحاسنَ غَيره
وإن أدبرَت سَلَبَت مَحاسنَ نَفسه ويُكسَى شُرورًا عن مَلابسَ خَيرَه

ومن الموضوعات التي تطرَّق إليها الشاهيني موضوع التهالك على اللَّذات، على نَحو قوله[٥٧]:

لمّا رأيتُ العَيشَ من ثَمَر الصِّبا وعلمتُ أن العَفو حظُّ الجاني
أدركتُ ما لا سَوَّلَتهُ شَبيبَتي وفعلتُ ما لا ظَنَّهُ شَيطاني

فهذان البيتان يصلحان أن يجريا مجرى الأمثال، لسهولتهما وطرافة معناهما، إذ إنَّه بعد أن أيقنَ بعفو اللّه فعل من اللَّذات ما لا تُوسوسُ به النفسُ من الشهوات، ولا يخطرُ على بالِ الشيطانِ منَ المُغويات.

ومعنى أن العفو من حظِّ الجاني ليس جديدًا، فقد تداوله الشعراء، وأجاد فيه السلاميُّ الشاعر (ت ٣٩٣هـ) في قصيدته البائية التي مدح بها الصاحبَ بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ)، حيث قال[٥٨]:

تَبَسَّطنا على الآثام لمّا رأينا العَفو من ثَمَر الذُّنوب

ولكن الجديد عند الأديب الشاهيني هو البيت الثاني، والرَّبط بينه وبين البيت الأول، إذ جاء في غاية الجمال والعبقرية. وأظنُّه ما قال البيتين تعبيرًا عن مذهبٍ اختاره في الحياة، وإنَّما بقصد التفنُّن في التعبير والمعاني.

ومن موضوعاته الأخرى التصوير، حيث أصبح عند كثير من الأدباء، في عصر الشاهيني، غرضًا قائمًا بذاته، يتَّخذه الشاعر ميدانًا لإبراز موهبته وقدرته على الصوغ والتأليف، ومن بدائع تصويره قوله[٥٩]:

قد كانَ يُمكنُ أن أكُفَّ يَدَ الهَوى عنِّي وأعصيَ في البُكاء جُفوني
لكنَّ لي صَبرًا متى استنجدتُهُ ضَحكَ الهَوى وبكَت عليَّ عُيُوني

فالجمال في هذين البيتين يكمن في غرابة المعنى، وفي الطباق والمقابلة بين ضحك الهوى وبكاء العيون، وما أظنُّه قال البيتين إلا لهذا الغرض.

(54) تُنظر ترجمته في: خلاصة الأثر 1/ 113.
(55) خلاصة الأثر 1/ 113- 114.
(56) نفحة الريحانة 1/ 128.
(57) نفحة الريحانة 1/ 135.
(58) يُنظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص198.
(59) خلاصة الأثر 1/ 216.

_ الخاتمة والنتائج:

تحدَّثت في البحث عن أديب الشام أحمد بن شاهين القبرصي الدِّمشقي، فعرضتُ حياتَه ومسيرتَه العلمية وخصائص عصره، ثم تكلَّمت على الأغراض الشعرية عنده، مع ما يتطلَّبُه العرض من إشارات نقدية وتاريخية.

وانتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- شهدت دمشق، في القرن الحادي عشر الهجري، ازدهارًا كبيرًا في النواحي الفكرية والعلمية والاقتصادية، ظهرت آثاره في التعليم والتصنيف ونبوغ كثير من العلماء والأدباء.

٢- ليس صحيحًا ما يُشاع عن عصر ابن شاهين وما بعده عن تراجع الأدب ودخوله في مرحلة الجمود والتقليد، إذ ظهر في البحث أن مسيرة الأدب لم تتوقَّف، ولم تخبُ جذوتُها، وأن القول بضعف الشِّعر في هذه العصور قد يُلامسُ طرفًا من الصواب، بسبب إقبال الناس على العلم، وعدم تفرُّغهم للأدب، فأصبح كلُّ مَن يتعاطون الشعرَ والنثر هم من العلماء، ومن الطبيعي أن يكون مستوى أدبهم دون مستوى الأدب في العصور السابقة، التي كان أدباؤها يكتفون بالعلم الضروريّ، ويُفرِّغون أذهانهم للتفكير والتأمل والاهتمام بالأدب.

٣- يُعَدُّ أحمد بن شاهين من كبار علماء دمشق وأدبائها، وله إسهامات كبيرة في الحركة الفكرية في عصره، وكان يُوصَف بأديب الزمان، وأديب الدَّهر.

٤- ترك الأديب أحمد بن شاهين عددًا من المؤلَّفات في اللغة والأدب، وله ديوان شعر كبير، لم يصلنا منه إلا ما احتفظت بك كتب الأدب والتراجم.

٥- تتوزع الأغراض الشعرية عند الأديب الشاهيني على: المديح، والرثاء، والوصف، والاعتذار، والغزل، والشَّكوى، إضافة إلى موضوعات أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل من أشعاره، كالفخر، والهجاء، والحكمة، والتصوير.

٦- معظم أشعار ابن شاهين، التي وصلتنا، هي مقطوعات ونُتَف ومُختارات، تتوافق مع مناهج التصنيف في الأدب والتراجم، وهناك قصائد مُطَوَّلة، بلغت إحداها (٩٥) بيتًا، وهذه المطولات تدلُّ على مستوى الشاعريّة، وغزارة الإنتاج.

٧- تتميَّز أشعار ابن شاهين بتنوُّع موضوعاتها وبحورها وقوافيها، وغناها بالعاطفة، إضافة إلى عذوبة الألفاظ، وسلاسة التعابير وانسيابها، والبعد عن مذهب الصَّنعةِ والتكلُّف قدر المستطاع.

٨- يبلغ مجموع أشعار ابن شاهين، المحفوظة في كتب التراجم والأدب، نحو (٥٠٠) بيت، إضافة إلى بعض الرسائل النثرية، وهذا الإنتاج المحفوظ يصلح أن يُجمع في كتاب مستقلّ.

مصادر البحث ومراجعه

- الإعجاز والإيجاز، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، مكتبة القرآن، القاهرة.
- أمراء البيان، لمحمد كرد علي، تحقيق: محمد العزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التاريخ الإسلامي- العهد العثماني، محمود شاكر، ط٤ ، المكتب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠ .
- التذكرة الحمدونية، لابن حمدون (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط١ ، دار صادر، بيروت ١٩٩٦ .
- جواهر الأدب، للسيد أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، مؤسسة المعارف، بيروت.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي (ت ١١١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- الدولة العثمانية، للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الفكر العربي، بيروت.
- ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار الجيل، بيروت.
- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦ .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس.
- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن معصوم (ت ١١١٩هـ)، ط١ ، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٣٢٤هـ.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٣ هـ.
- الصبح المُنبي عن حيثيّة المتنبي، ليوسف البديعي (ت ١٠٧٣هـ)، ط١ ، المطبعة الشرفية ١٣٠٨هـ.

- الصناعتين، لأبي هلال العسكري (ت ١٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
- عصر الدول والإمارات: الشام، للدكتور شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت ١٩٨١.
- مجلة دواة، العدد٣٤، لعام ٢٠٢٢، ص٢٩٢، بحث بعنوان: الألفاظ الشعرية: طبيعتها وإيحاءاتها العاطفية.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٤، دار المعارف، القاهرة.
- نفحة الرَّيحانة، للمحبي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧.
- نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت ٧٣٣هـ)، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٣هـ.

فنُّ الخاتمة في شعر أنور العطار (١٩١٣-١٩٧٢م)

الدكتورة ناجية سليمان إبراهيم سليمان(١)

(1) أستاذ مساعد في الأدب والنقد بجامعة بنغازي في ليبيا.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث الخصائص الفنية والأسلوبية والدلالية للخاتمة عند الشاعر السوري أنور العطار، ويُركِّز على عرض ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال، وهذا النوع الأخير يتَّصف بالإيجاز والتكثيف والأسلوب البليغ العالي، بحيث يكون مؤهَّلاً للشُّيوع على الألسنة، وملامسة الجوانب العاطفية والفكرية لفئة كبيرة من الناس، يطيب لهم أن يُنشدوه في مناسبات تتَّصل بموضوعه وجوِّه العام.

_ المقدّمة:

كثيرًا ما يخلو المرءُ مع نفسه، يتأمَّل كتابَ الكون، وأحداثَ الحياة، فإذا بالشوق يحمله على أجنحة غامضة، ويتوقَّف به أمام مشاهد صاغها الجمالُ بأبدع الألوان، ولفَّها الوجدان برداء شَفّاف من الحنين والذكريات والحبِّ.

هكذا أجدُني حين أخلو مع نفسي، فيحملني الشوقُ مُسرعًا إلى دمشق، المدينة التي استضافتني لسنوات، في أثناء تحضيري لرسالة الدكتوراه في الأدب، فإذا بي أقف في رحلة التذكر هذه أمام مشاهدَ تتجلَّى فيها العظمةُ والأصالة، وأخرى يُضيء في جنباتها السِّحرُ والجمال، فضلاً عمّا يُنشَر من صفحات الذِّكريات والمواقف، المليئة بالحنان والحبّ.

لقد ازدادت صلتي بدمشق وتاريخها وحضارتها وأهلها من خلال دراستي فيها، كما تعمَّقت معرفتي بأدباء الشام، ولا سيَّما المعاصرون، نظرًا لتخصُّصي في الأدب الحديث، واطِّلاعي عن قرب على إنتاج الأدباء الشاميِّين وآثارهم في العصر الحديث.

وممَّن لفت انتباهي، بل واستطاع أن يجتذبني إلى عالمه الشعري، وتفاصيله الدقيقة الرائعة، وآفاقه المنيرة الواسعة، الشاعر الدمشقي الكبير أنور العطار رحمه الله، فقرأت أعماله الكاملة، وعدتُ إلى بلدي ليبيا، وصوته يهمس في مسامعي، ووجدانه يجول في خاطري، وصُوَره تتراءى في فكري، وعالَمُه الشعري يستولي على كياني.

كلُّ ذلك دعاني إلى الكتابة عن أدبه وشعره المتميِّز، لعلِّي أُوَفَّق في نقل انطباعي عن ذلك الأدب الرائع إلى الإخوة القُرّاء، وأبوح لهم بمدَى إعجابي به وتقديري له، فكان أن كتبتُ أولاً بحثًا بعنوان: الصَّدى الوجداني في شعر أنور العطار: قصيدته «بردى» نموذجًا، وتكرَّمت عليَّ مجلة تاريخ دمشق مشكورة بنشره، فكان هذا حافزًا لي لمواصلة الكتابة عن هذه العبقرية النادرة، وها أنا أتقدَّم ببحثي الثاني عنه وعنوانه: فنُّ الخاتمة في شعر أنور العطّار.

ويتألَّف البحث من مقدمة وخاتمة وأربعة مباحث، تحدَّثت في المبحث الأول عن مكانة الخاتمة في النقد القديم والحديث، ومدى اهتمام النُّقّاد والأدباء بها.

وخصَّصت المباحث الثلاثة التالية للحديث عن أنواع الخاتمة ووظائفها في شعر أنور العطار، وعرضتُ بالتفصيل مع الشواهد ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال.

ودوَّنتُ في الخاتمة ما انتهى إليه البحث من نتائج.

العطار في السادسة عشرة من عمره

والمنهج المعتمد في البحث هو المنهج الوصفي، الذي يقوم على استقراء المادة العلمية والشواهد، ثم التحليل والتصنيف، ثم العرض والاستنتاج.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجَّه بالشُكر الجزيل إلى الإخوة القائمين على مجلة تاريخ دمشق، وأخصُّ بالشكر المدير المسؤول الدكتور سامي مبيض، ومدير التحرير الدكتور عمار النهار، وأمين التحرير الدكتور محمود الحسن، وسائر الإخوة في مؤسَّسة تاريخ دمشق.

والله الموفق وبه أستعين.

أولاً ـ شيءٍ من ترجمة الشاعر أنور العطار:

لا بدَّ أولاً من التذكير بترجمة الشاعر، قبل الانتقال إلى الدراسة، فالشاعر أنور العطار وُلد في مدينة دمشق عام ١٩١٣، وكان يسكن في حي المهاجرين المُطلّ على المدينة من الجهة الشمالية الغربية، عمل مدرِّسًا للأدب واللغة العربية في بلده سورية، ثم سافر إلى العراق عام ١٩٣٦، ودرَّس الأدب واللغة لمدة أربع سنوات، ثم عاد إلى بلده سورية، واستمرَّ في التدريس، وتولَّى رئاسة ديوان الإنشاء في وزارة المعارف السورية، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية، ودرَّس الأدب في جامعة الرياض بين عامي ١٩٦٤- ١٩٦٦، ثم عاد إلى سورية حيث توفي عام ١٩٧٢، عن عمر بلغ تسعًا وخمسين عامًا.

يُعَدُّ أنور العطار من شعراء الطبقة الأولى في القرن العشرين، وله عشرة دواوين شعرية، تولَّى جَمعها ومراجعتها وتصحيحها وطباعتها في مجموعة كاملة ابنُه المهندس والأديب هاني أنور العطار، ونشرتها دارُ الفكر بدمشق.

ثانياً ـ الخاتمة وأهميتها في الشعر والأدب:

مما لا شكَّ فيه أن الشعراء، قديمًا وحديثًا، اهتموا بالمَطلَع والخاتمة، وتداول النُّقّاد فيما بينهم مصطلحات تتَّصل بهذا الأمر من قبيل: حُسنِ الابتداء والانتهاء، وحُسن الاستِهلال والختام، وحُسن المطلَع والخاتمة، وحُسن المطلَع والمَقطَع[٢].

وقد ألمح النُّقّاد في مصنَّفاتهم إلى أهمية الخاتمة، باعتبارها «آخر ما يَبقى في الأسماعِ، وربَّما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال»[٣]. قال قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، معلقًا على بيتَ الحطيئة:

(2) يُنظر: خِزانة الأدب، لابن حجة الحموي (ت 887هـ)، 2/ 493.
(3) يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الإصبع (ت 654هـ)، ص616.

متى تأته تَعشو إلى ضوء ناره
تَجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقَدِ

«فقد تَصرَّفَ في الأبيات الأُوَل في أصناف المديح المتقدِّم ذكرُها، وأتَى بجمَاع الوَصف وجملة المَديح على سَبيل الاختصار في البيت الأخير»(٤). فَقدامة في إعجابه بالبيت الأخير يُلمح إلى أهميّة الخاتمة في الشِّعر، وإلى أنها ينبغي أن تتضمَّن من المعاني ما يجعلها تتميَّز عن سائر أبيات القصيدة.

ولأهمية الخاتمة أوصى أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) الشعراء والأدباء أن يهتمُّوا بالخاتمة كاهتمامهم بالمطلع والابتداء، فقال: «فينبغي أن يكون آخرُ بيت في قصيدتك أجودَ بيت فيها، وأدخَل في المعنى الذيَ قصدتَ لَه في نظمها، كما فعل ابن الزِّبعرى في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ويستعطفه:

فخُذ الفَضيلةَ عَن ذُنُوب قد خَلَت
واقبَلْ تَضَرُّعَ مُستَضيفٍ تائب

فجعل نفسَه مُستضيفًا، ومن حَقِّ المُستَضيف أن يُضافَ، وإذا أُضيفَ فمن حَقِّه أن يُصانَ، وذَكر تَضرُّعَه وتوبتَه ممّا سلفَ، وجعل العفوَ عنه مَع هذه الأحوال فضيلةً، فجَمع في هذا البيت جميعَ ما يُحتاج إليه في طلبَ العَفو»(٥).

فأبو هلال أثنى على هذا البيت، لما فيه من إحاطة بكلِّ ما يُريده الشاعر، حيث استطاع به أن يبلغ مُرادَه، ويصل إلى غرضه، وهو العفو، وجعله أبو هلال شاهدًا على حُسن الخاتمة في الشعر.

ونقل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) عن الصاحب بن عباد أنه كان كثيرًا ما يُنشِد أبياتَ السّلامي المخزومي:

ونَحنُ أولاء نُطلَبُ من بَعيد لعزَّتنا، ونُدرَكُ من قَريب
تجرَّأنا على الآثام لَمّا رأينا العَفوَ من ثَمَر الذُّنوب

فإذا أنشَدَ البيتَ الأخير قال: «هذا المعنى كان يدور في خواطر النّاس، فيَحومون حوله، ويُرَفرِفونَ عليه، ولا يتوصَّلون إليه، حتى جاء السّلاميُّ فأفصَحَ عنه، وأحسَنَ ما شاءَ»(٦).

وممَّن تناول مسألة الخاتمة في الشعر، من النُّقاد القدامى، ابنُ رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)،

صورة نادرة لأنور العطار عليها إهداء لابن عمه

(4) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر (ت 337هـ)، ص25.
(5) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص443.
(6) تحسين القبيح وتقبيح الحسن، لأبي منصور الثعالبي (ت 429)، ص24.

العطار في العشرينيات من عمره

قال: «وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحكمًا، لا تُمكن الزيادةُ عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخرُ قُفلاً عليه»[٧].

فالخاتمة في رأي ابن رشيق يجب أن تكون ذات بناء متميِّز من حيث المعنى والتصوير، إضافةً إلى كونها تحمل سمات أسلوبية تدلُّ على أن الكلام قد انتهى وتوقَّف عندها، بحيث تبدو كالقفل للقصيدة.

وجاء في كتاب الطِّراز أن أحسن ما جاء في حسن الخاتمة قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

قد شرَّفَ اللّه أرضًا أنت ساكنُها
وشَرَّف النّاسَ إذ سوّاكَ إنسانا

قال صاحب الطراز معلِّقًا: «فهذه الخاتمة إذ قرعَتْ سَمعَ السّامع عرف بها أن لا مطمعَ وراءها، ولا غاية بعدها، وهي الغاية المقصودة والبغية المطلوبة، وبها يُعلَم انتهاء الكلام وقطعُه... وغاية حُسن الخاتمة أن يعرف السّامعُ انقضاء القصيدة وكمالَها، فهذه علامة حُسنها ورونقها، ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء، يمدح رجلاً استماحَه:

وإنِّي جديرٌ إنْ بلغتُكَ بالمُنى وأنتَ بما أمَّلتُ منكَ جديرُ
فإنْ تُولني منكَ الجميلَ فأهلُه وإلّا فإنِّي عاذرٌ وشَكورُ»[٨].

والخاتمة قد لا يقتصر حسنُها على مزاياها الفنية والدلالية، التي تتفوَّق بها على سائر أبيات القصيدة، بل تصل أحيانًا إلى غاية الجمال والروعة، بحيث تبدو محور القصيدة وعلبها المَدارُ والمُعوَّل، وتمتلك من التأثير في المتلقِّي ما لا تمتلكه القصيدة كلها، ومن ذلك ما جاء في خاتمة قصيدة لابن مُقانا الأشبوني، يمدح فيها بعض أمراء الأندلس، لصلتهم بالنبي صلى اللّه عليه وسلمَ، وكانوا يتمسَّكون بأبّهة المُلك، ولا يُكلِّمون أحدًا إلا من وراء حجاب، فلما وصل الشاعر إلى قوله:

أُنظُرونا نقتَبِسْ من نُوركُم إنه من نور ربِّ العالَمينْ

أمرَ بإزاحة الحجابِ، وقابلَ الشاعرَ بوجهه، وقال له: انظرْ كيف شئتَ، وانبسَطَ مع الشّاعر، وأحسن إليه[٩].

(7) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت 463هـ)، 1/ 239.
(8) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت 745هـ)، 3/ 105.
(9) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التِلمساني (ت 1041هـ)، 1/ 214 و434.

صورة العطار وهو أستاذ في دار المعلمين

وفي العصر الحديث كثر حديثُ النُّقاد عن أهمية الخاتمة ومزاياها ووظائفها، وخصائصها الفنية والدلالية، وعدَّدوا في ضوء اللسانيات الحديثة أنواعًا مختلفة للمقدِّمة، لا مجال لذكرها والتعرُّض لها[10]، كما انشغل كثير من الأدباء بفنّ الخاتمة، إلى درجة أنها أصبحت عندهم محور القصيدة وأساسها، وموطن الطاقة الشعورية، وغاية المعنى المراد، وأجمل ما في العمل الفني، حتّى إن بعضَهم يصحُّ القول فيه بأنه يكتب القصيدة من أجل خاتمتها، أما سائر الأبيات فهي بمثابة التمهيد أو التوطئة أو الهامش، كما هو الشأن عند الشاعر السوري عمر أبي ريشة[11].

والشاعر الدمشقي أنور العطار كان ممَّن اهتمُّوا بالخاتمة اهتمامًا بالغًا، فهي عنده ذات طاقات شعورية كبيرة، ولا تخلو من صور مبتدعة، وأحيانًا تختصر موضوعَ القصيدة ومشاهدَها، أو تكون همسةً يبقى صداها في سمع القارئ، أو مشهدًا يظلُّ ماثلاً أمام حسِّه، أو حكمة تتجاذب فكره ووجدانه للتأمُّل والاعتبار، إلى غير ذلك من المزايا الدلالية والأسلوبية والجمالية التي تتَّصف بها الخاتمة عنده، كما سيظهر في المباحث التالية.

ممّا سبق يتَّضح أن القدماء والمحدثين، على حدٍّ سواء، اهتمُّوا بالخاتمة، فدعا النُّقادِ إلى إجادتها والتفنُّن في صوغها باعتبارها آخر ما يبقى في الأسماع، كما دعوا إلى الاهتمام بالمَطلع باعتباره يفتح مغاليق القلوب، ويُهيِّئ الحواسَّ للاستماع والتأمُّل.

وفي المقابل فإن الأدباء والشعراء أولَوا الخاتمة اهتمامًا كبيرًا، ولا سيَّما في العصر العباسي وما بعده، فاشتهر كثير من الشعراء بالخواتيم المُتقَنة، كأبي نواس وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، واستمرَّ الاهتمام بها في العصر الحاضر، بل ازداد وتنوَّعَ، وساعد الشعراء على ذلك ما تتَّصف به أعمالهم المعاصرة من وحدة الموضوع، على حين أن الأعمال القديمة كانت تقوم على وحدة البيت، ولذلك أصبح من الواجب على الأدباء المعاصرين أن يهتمُّوا بالخاتمة، مراعاة لوحدة الموضوع، والنموِّ المنطقي للأحداث، وضرورة الإيذان بالنهاية، وتهيئة القارئ لذلك.

ثالثاً _ وظائف الخاتمة وأنواعها عند أنور العطار:

إنَّ استقراء النماذج الشعرية العالية، عند كبار الشعراء في العصر الحديث، يُفضي إلى القول بوجود تنوُّع كبير في صياغة الخاتمة لديهم، وفي الأغراض الفنيّة والدلالية والوجدانية التي تُؤدِّيها في القصيدة، ومما لا شكَّ فيه أن المقارنة بين وظائف الخاتمة وأنواعها، وطرائق الصَّوغ

(10) يُنظر في أنواع الخاتمة: مجلة بيت الشعر الإلكترونية في الموصل، بحث «القصيدة العمودية، جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج من الشعر الموصلي المعاصر» للدكتور جاسم محمد جاسم.
(11) يُنظر: موسوعة أمراء الشعر العربي، لعباس صادق، ص316.

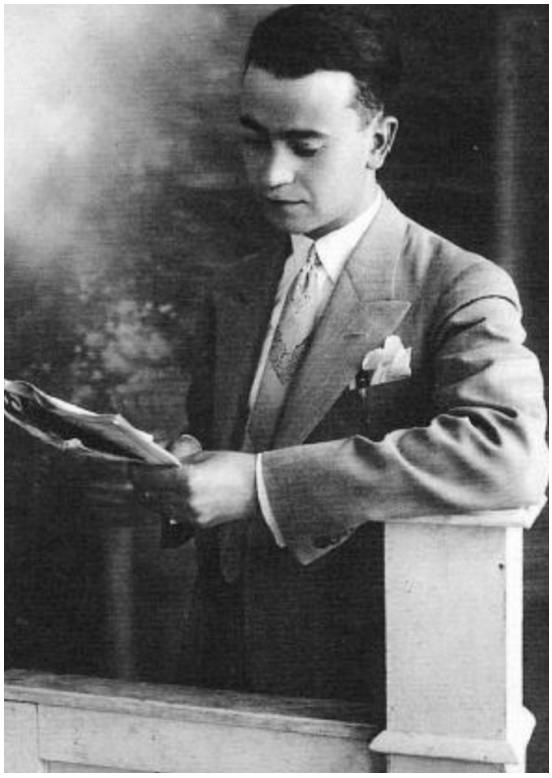

العطار في ريعان شبابه

الفني لها، يحتاج إلى أكثر من بحث، وربَّما يحتاج إلى كتاب مستقلّ، ومع أن كثيراً من النقّاد قد عالجوا هذه المسألة في مؤلّفات خاصة، وفي أبحاث مستقلّة، إلا أن الباحث ما يزال يجد جديداً في هذا الموضوع، الذي يحتاج بدوره إلى دراسات إضافية، ومزيد من العمق، لا سيَّما في النواحي التصويرية والشعورية والأسلوبية، وتحديد مدى انعكاس الخاتمة على كامل أجزاء القصيدة، وتأثيره الفني والدلالي.

وهذا البحث سيقتصر على دراسة الخاتمة عند أنور العطار، والحديث عن أنواعها ووظائفها، لأن المقارنات والاستقصاء مما لا يتَّسع له بحث واحد.

فالشاعر أنور العطار كان من أولئك الشعراء المعاصرين الذين اهتمُّوا بالخاتمة، وخصُّوها بكلِّ عناية، حتّى إنه في القصائد التي نشرها، في الصُّحف والمجلات، كان يَفصل الخاتمة عن أبيات القصيدة، بأنواع التنسيقات السائدة، لتكون ظاهرة بيِّنة للقارئ، وكأنَّه يريد من القارئ أن يُطيل الوقوف عليها، والتأمُّل في المعاني والصُّوَر، واستشفاف ما تختزنه من مشاعر وأحاسيس، والبقاء معها قليلاً بعد الانتهاء من القراءة.

وتتميَّز الخاتمة عنده بعدّة أمور، من أهمها:

_ الاختلاف في عدد الأبيات، فقد تكون بيتًا واحداً أو بيتين أو أكثر، لكنها في الغالب لا تتجاوز ثلاثة أبيات.

_ في معظم القصائد المطولة تجيء الخاتمة بعد تمهيد موجز، فعندما توشك القصيدة على الانتهاء يبدأ بالتمهيد للخاتمة، ويستغرق ذلك التمهيدُ عدَّةَ أبيات، ثم يجيء الختام.

_ في كثير من القصائد القصيرة يستغني عن التمهيد، ويأتي مباشرة بالخاتمة، وفي هذه الحالة تكون الخاتمة إمّا غير متوقعة، وإمّا أنها صرَّحت بما سكتَ عنه في أثناء القصيدة.

_ تحمل الخاتمةُ عنده من حيث المعاني والصُّور والمشاعر ما تحمله قصيدة كاملة من ذلك، فمع أنها تكون بيتًا أو بيتين في الغالب إلا أنَّه يُحمِّلها مادّةً كثيفة، وصوراً مبتكرة، وأحاسيس قويّة، فتأتي في غاية الحسن والتأثير في القارئ.

_ معظم الخواتيم عند أنور العطار تتناسب مع النموّ المنطقي للمعاني والمشاعر في القصيدة، لكنَّها تبوح وتُصرِّح عادةً بجديد لم تَبحْ به سائر الأبيات، ولها أفقٌ من المعاني والإيحاءات والأحاسيس يتداخل مع أفق القصيدة، وفي نفس الوقت له خصوصيّته وكيانه المستقلّ.

_ تُمثِّل الخاتمةُ عند العطار لوحة فنِّية قائمة بذاتها، تُعيد رسمَ الجوِّ العامِّ للقصيدة، وتمدُّها بظلال وارفة من الحسن والجمال، وتتضمَّن صوراً ساكنة، أو صرخة صاخبة، أو شعوراً ملتهباً، أو حكمة خالدة، أو خلاصةً لروح القصيدة وجوهرها.

وفيما يلي عرض لثلاثة أنواع من الخاتمة ووظائفها عند الشاعر الدمشقي أنور العطار، بحسب ما تسمح به طبيعة البحث، وهي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال.

العطار في الثلاثينات من عمره

١_ الخاتمة التصويرية:

في هذا النوع من الخواتيم يسترسل الشاعر في أبيات القصيدة، ويستوفي الموضوع من النواحي الفكرية والفنية والأسلوبية، ثم يصوغ الخاتمة على شكل صورة فنية ساكنة في الغالب، ولكنها متكلِّمة بكل ما يريده الشاعر من الأحاسيس والمواقف والتجربة الشعرية المتميِّزة.

ومن أمثلة الخاتمة التصويرية عند العطار ما جاء في قصيدته «إلى أمِّي»، التي افتتح بها ديوانه البواكير، وأراد أن يُعبِّر في هذه القصيدة عن إهداء الديوان إلى أمّه، ومن الطبيعيّ أن تكون هذه الهدية مختلفة عما يتداوله الناس بينهم من الهدايا، إنها ليست زجاجة عطر فوّاح، وليست لباساً يُبهج النفس بألوانه، ولا ذهباً يعانق المعاصم ويُجاور النحور، إنها هديّة من نوع مختلف، كلمات رقيقة، وأشجان نفس غارقة في الوجود، ونبضات قلب مُفعَم بالحياة والخوف من المجهول، وصور من الواقع والذكريات والخيال، صاغها قلم شاعر مُبدع، اختلط حبره بشكوى الروح، وماجت في سطوره أقوى أعاصير الشَّجى والأحزان.

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله[١٢]:

إليك شعري مائجًا بالأسى مُنتَزَعًا من بُؤسيَ الفاجِعِ

إنَّه الشِّعر، الذي يفوق الدُّرَر في قيمته، ويتفوَّق على العطور في عبيره المسكوب من نبضات القلوب، وأسرار النفوس، الشعر الذي خطَّته أنامل شاعر لم يتصالَح بعدُ مع الواقع، ولم تَمنحْه الحياةُ السَّكينة والأمان، ولم تكتحل جفونُه بوميضَ الأمل، بل ها هو يتلقَّى من الحياة الصَّفعات، ويتلوَّى في صحرائها متَّكئًا على كبده التي مزَّقتها سهام المصائب والضَّياع، وطالما سَخِر منها موحِشُ السَّراب[١٣]:

أنّاتُ قلبٍ صادقٍ حِسُّهُ يبكي سَرابَ الأمَلِ الخادِعِ

(12) أنور العطار: الأعمال الشعرية الكاملة، ص83.
(13) الأعمال الشعرية الكاملة ص-83 84.

العطار مقلداً بالأوسمة تقديراً لأدبه وعبقريته الشعرية

عَليه من عبءِ الأسى طابَعٌ أحبِبْ به في الشِّعرِ من طابَع

يَنمُّ عن قَلبٍ فَجيعِ المُنَى ذاهبةٌ مثل الضُّحى الماتِع

إنَّه يُهدي لأمِّه أشعارَه، التي تحمل نبضَ قلبه، وتطلُّعات روحه، وكان يتمنَّى لو أن قلبَه مليءٌ بالسعادة، مزدحِمٌ بالأمنيات، نشوان بالأمل، فإنَّ ذلك ربَّما يُوصل لأمِّه بعضَ السرور والتَّفاؤل، ولكن ماذا يصنع إذا كان قلبُه الذي يصوغ الشعرَ غارقًا بالهموم والآلام، تائهًا وسط ضجيج الحياة، تتجاذبُه المصائب، وتمزِّقه أمواجُ الطُّوفان؟

فكأنَّ لسان حاله يقول: هذه هديَّتي يا أمِّي، بما تحمله من الشجو والشَّجن، فاقبليها ولا تلوميني، فلو كنتُ أمتلك غير هذا القلب، أو أعيش في غير هذا العالَم، لأرسلتُ إليك شعرًا ترقصُ حواشيه، وتُغنِّي قوافيه، وتهتزُّ أعطافه نَشوةً وفرحًا.

وهنا يصل الشاعر إلى نهاية القصيدة، فيُرسل بين يدي الخاتمة بيتين، أراد بهما التمهيد لها، يُركِّز فيهما على رحيل الآمال عن قلبه، ويُهيِّئ القارئ بهما للبيت الأخير، يقول[14]:

أيَّتُها الآمالُ هل رَجعةٌ أم المُولِّي ليسَ بالرَّاجِع

كُنت لهذا القَلبِ أُلهيّةً يَحيَا بها في يأسه القاطِع

فهذان البيتان هما التمهيد للخاتمة، ومن الواضح فيهما أنه انتقى من موضوع قصيدته، التي يسودها جوُّ الحزن والكآبة، عنصرًا جزئيًّا، أراد أن يُظهرَه بوضوح، ليُفضي منه إلى الخاتمة، فقد ركَّز على رحيل الآمال، أو فُقدانها، وأثر ذلك في القلبَ والوجدان، فهو يُسائلُ الآمال، التي ذاق حلاوتها ثم رحلت عنه، يُسائلها هل لها رَجعةٌ، لكنَّه ييأس من رجعتها، مقتنعًا أن ما يرحل لا يعود، وطالما كان القلب يسلو بها عن أحزانه وبُؤسه فمع رحيلها لا بدَّ أن موعده مع اليأس حتميٌّ، وليس له نهاية حتى تنتهي الحياة.

وإذ لا بدَّ من مقارعة اليأس، والاكتواء بناره ليلَ نهارَ، فلا بأسَ من استعادة الذكريات، التي كان الأمل ينثرُ عبيرَه في مشاهدها، والنُّور ينشرَ بريقه على معاهدها، لعل في ذلك سلوى للقلب المُتعَب الحزين، ولكنَّ كلَّ ما يجده الشاعر من بقايا الذكريات[15]:

إضمامةٌ من زَهَرٍ ذابِلٍ منثورةٌ فوقَ ثَرًى دامِع

وبهذه الصورة الساكنة، التي تُعبِّر عن وقع الذكريات في قلب الشاعر ووجدانه، يختم الشاعر

(14) الأعمال الشعرية الكاملة ص84.
(15) الأعمال الشعرية الكاملة ص84.

قصيدته، ويُوصل صوته إلى القارئ، وكأنَّه يريد أن يقول: لا تلوموني على ما أجد في أعماقي من الأحزان، ولا تطلبوا منِّي أن أبحث عن المباهج والسرور في شريط الذكريات، لقد بحثتُ وفتَّشت، فلم أجد إلا باقة من الورد الذابل منثورة فوق التراب الباكي، فخذوا مني هذه الصورة، وأعيدوا الحياة للورد إن استطعتم، أو جفِّفوا بمناديل الأمل دموع الثرى الباكي، وعندها ستجدوني على عرش السعادة والسرور.

تمثِّل هذه الخاتمة نموذجًا من نماذج الخواتيم التصويرية عند أنور العطار، ومن الواضح أنه في هذه الحالة يُقدِّم للقارئ صورة جميلة، تختزن في حواشيها كلَّ أحاسيس الشاعر، وما يدور في وجدانه من خلجات وانفعالات، إنها صورة ساكنة صامتة، ولكنها ناطقة بكلِّ ما أراده الشاعر من المعاني والإيحاءات والانفعالات.

٢_ الخاتمة العاطفية:

إنَّ الحديث عن العاطفة في الخاتمة فيه بعضُ التجوُّز، لأنَّ الشعر كلُّه عاطفة، والقصيدة من أولها إلى آخرها ترتسم فيها عاطفة الشاعر وظلال وجدانه، كما أن الحديث عن خاتمة تصويرية وأخرى عاطفية ليس دقيقًا بحسب منظار العقل، بسبب التداخل بين أساليب التعبير في الشعر، فلا عاطفة بلا صُور، ولا صُوَر من دون رهافة شعور، وإحساس عميق.

فالتقسيم المُقترَح لأنواع الخاتمة إنَّما هو بحسب الصفة الغالبة، أو الصيغة الأسلوبية والوجدانية المُسيطرة، أو المزايا الفنية الأكثر وضوحًا وظهورًا.

والخاتمة العاطفية هي التي تتجلَّى فيها أحاسيسُ الشاعر في أدقِّ تفاصيلها، وأعمَق ألوانها، وأشدِّ حالاتها تدفُّقًا وهيجانًا، وفيها يكون جهدُ الشاعر أن يُوصلَ للقارئ ما يُسمَّى بالدَّفقة الشعورية الأخيرة، التي تفوق كلَّ المشاعر في القصيدة، وفي نفس الوقت تستوعبها وتُحيط بها.

ومن أمثلة الخاتمة العاطفية في شعر العطار ما جاء في قصيدته «آذار»، إحدى قصائده المشهورة في ديوان «ظلال الأيام»، وفي هذه القصيدة يصف الشاعر جمال الربيع في آذار، فيُصوِّر الأرض وآذار على أنهما عاشقان، وهذا العشق هو سرُّ الحياة والجمال في الأرض، إذ استطاع آذار بقبلاته أن يرسم الجمال في خدود الأرض، فإذا بها تكتسي أجمل الثياب، وتتزيَّن بألطف الورود، يقول مخاطبًا محبوبته[١٦]:

هَلُمِّي انظُري قُبُلات الربيعِ ... على معطَف السَّهلِ والرّابيهْ
وآذارُ يلعبُ فوقَ المُروجِ ... كما تلعَبُ الطِّفلة اللاهيهْ
يُعانقُها وهو جَمُّ الحَنين ... فتُغريه بالمُقلة الرّانيَهْ
ويُلقي عليها وشاحَ الخلودِ ... وألوانَه العَذبةَ السّابيهْ
ويَبعَثُ فيها شُعاعَ الهَوى ... فتهتزُّ من وَهجِه صابيهْ

ويستمرُّ الشاعر على هذه الشاكلة في تصوير الربيع وجمال وجه الأرض والنسيم في آذار، فيبلغ الغاية من الإتقان والجودة في دقة الوصف وعذوبته، ثم يعقد مقارنة، طرفها الأول: آذار

(16) الأعمال الشعرية الكاملة ص623.

العطار مع عبد الغني العطري صاحب مجلة الدنيا السورية وعبد الخالق فريد

والأرض وما بينهما من الحبِّ والعشق. وطرفها الثاني: هو ومحبوبته والحبُّ الذي بينهما، وفي هذه المقارنة يتوقّع القارئ أن الحبَّ يستطيع أن يملأ قلبَ الشاعر بالفرح والسرور، كما استطاع الحبُّ بين آذار والأرض أن يُحوِّلها إلى لوحة رائعة من الحسن والجمال، ولا يشاءُ الشاعر أن يقطع على القارئ ما يتوقّعه وينتظره، فاستطردَ في مخاطبة محبوبته، يدعوها إلى استرجاع الذكريات، وقصص الهوى، والتحليق مع أحلام آذار ونسائمه اللطيفة، يقول[١٧]:

تَعالَي نُوثِّقْ عُهودَ الهَوى ونَسردْ حكاياتها النائيهْ
ونُوقظْ لياليَها الغاليات ولولا الهَوى لم تكنْ غاليهْ
أقاصيصُ ملءُ الرُبا والوِهاد تَناثَرْنَ من أكبُدٍ شاكيهْ

فالشاعر يسير حتى الآن مع ما ينتظره القارئ، وما يتوقّعه من ظهور ربيع آخر في القلوب يُحاكي الربيع على وجه الأرض، ويرجو الشاعر ذلك، لكنَّ الحبَّ الذي أحيا الأرضَ في آذار قد لا يستطيع أن يُحيي القلوب التي انسكبَ فيها الألم والشَّكوى والنار، يقول[١٨]:

تَعالَي إلى الصَّدر تَلقَيْ به شكايات أضلاعه الحانيهْ
فلا البثُّ يُهدئُ تَحنانَه فيَرتاحَ من شَجوه ثانيهْ
ولا الحُبُّ يُوليه بَعضَ المُنى فيَفرَحَ بالمنحة الرّاضيهْ
ويُرسلَ أنغامَه حُلوةً فتَحيا بها المُهَجُ الدّاميهْ

(17) الأعمال الشعرية الكاملة ص625.
(18) الأعمال الشعرية الكاملة ص-625 626.

العطار مع الشاعر الياس فرحات

في هذه الأبيات يظهر أن الشاعر كان يأمُل أن يَحيا قلبُه بالحبِّ، كما تحيا الأرضُ بقبلات آذار، ولكن هنا عالم مختلف تمامًا، فالصَّدر لم يستجبْ للحبِّ، لمَا فيه من الشَّكوى والألم، والحبُّ ذاته عاجز عن بَثِّ الأمل في هذا الصدر، فكيف للسرور أن يَعمر هذا القلب، وكيف للحبِّ أن يبتسم فوق أشلاء كبد مبعثرة؟

لقد كانت الأبيات السابقة بمثابة التمهيد للخاتمة الأولى، وأقول الأولى لأن القصيدة تتألف من مشهدين، مشهد الأرض في الربيع، ومشهد القلب الذي ليس له ربيع. فجاءت الخاتمة الأولى على النحو[19]:

ولمّا اقتَسمْنا دموعَ العيونِ تفرَّدتُ بالدَّمعة القاسيهْ
فلا هيَ تسكنُ شعبَ الجُفونِ فتَخفى، ولا هي بالهاميهْ

ففي هذه الخاتمة تظهر كلُّ مشاعر البؤس والمعاناة، التي يعيشها الشاعر، فقد كان نصيبُه من الحياة الدمعة القاسية، التي تظهر في عيونه صُلبةً متحجِّرة، لا تختفي خلف الجفون، ولا تجري على الخدود، فهي أبدًا في مكانها، مع ما يصحَبُها من ألم وحزن وبكاء.

وهذه الخاتمة فيها صورة جميلةٌ مبتكرة للدمعة القاسية، التي تجرح العيون، ولا تبرح مكانَها، ولكنَّ الأظهر هنا هو مشاعر الشَّجن والألم والضياع، التي وصلتْ ذروتَها في هذين البيتين، بفضل ما يمتلكه الشاعر من قدرة فائقة على التعبير والتصوير ونقل الأحاسيس، ومثل هذه الخاتمة هي التي أطلقتُ عليها تسمية الخاتمة العاطفية.

وفي المشهد الثاني من قصيدة آذار يلتفتُ الشاعر إلى الحديث عن قلبه الذي ليس له ربيع، فآذار استطاع بقبلاته وسحره أن ينثر الجمال والسرور في الأرض والسماء، والأفق والنسيم، والليل والنهار، لكن قلب الشاعر بقي بلا ربيع، لأن الحبَّ لا يستطيع أن يَبيت في صدر تزدحم فيه الهموم، كما أنَّ محبوبة الشاعر هي الأخرى مثقلة بالآلام والضَّياع، فلا تمتلك ما يمتلكه آذار من السِّحر والأسرار، لتجعل قلبَ حبيبها رياضًا يُخيِّم فيها الحب، وتُغَرِّد في فضائها طيور السعادة، فهي حائرة تُقلِّب نظرَها في السماء دونَما هدف أو تركيز، يقول مخاطبًا محبوبته[20]:

أطَلت رُنُوَّك نحوَ السَّماء وأطرَقت راهبةً خاشيهْ
فرابَتْكَ ضفّةُ هذي الحَياة وخفت مَن الضِّفّة الثَانيهْ
حَنانَيك لا تَسبَحي في الدُّموع ولا تُرهبي الرّاحةَ النّاجيهْ
فليسَ تَرُدُّ عليكِ الدُّموعُ سِوى حُرقةٍ مُرّةٍ وارِيهْ

(19) الأعمال الشعرية الكاملة ص626.
(20) الأعمال الشعرية الكاملة ص-226 227.

العطار مع ميخائيل نعيمة

لقد رأينا في الطرف الأول من المقارنة آذار والأرض والحبُّ، حيث استطاع آذار بسحره وعنفوانه وخلوِّه من الهموم أن ينشر الحبَّ على وجه محبوبته الأرض، وأن يُترجمَه ألوانًا ووردًا وعطورًا، لكن ما حالُ محبوبة الشاعر التي يُنتَظر منها أن تفعل في قلبه ما فعله آذارَ في الأرض؟

للأسف إنها لا تمتلك عظمةَ آذار وسحرَه، وخلوَّ باله من جروح الحياة وغصص الواقع المرّ، إنها إنسانة ضعيفة أثقلتها المآسي والهموم، وقلبها الصافي يستغيث من ضجيج الحياة، وصخب المصائب، فلم تعد تمتلك إلا النظرة الحائرة تُرسلها في الآفاق، والدُّموعَ الغزيرة تبعثها رسولاً بين الجفن الباكي والأرض العطشى، فهيهات للحبِّ أن يطرقَ قلبها الكئيب، وهيهات لها أن تمنح الشاعر جذوةً من الأمل والحب!

وإذا كانت هذه حال المحبوبة التي تُقابل آذار، فما حال الشاعر الذي يُقابلُ الأرضَ في المقارنة؟ وإذ علمنا أن الأرضَ كانت مستعَدَّةً لتلقي الحبِّ والحياة، فاستجابت لآذار، وأخرجت لوحات من الجمال والإبداع، فهل كان الشاعر مثلها مُستعدًّا للحب، خاليَ القلبِ من كدرِ الحياة ونوائبها؟

يستطرد الشاعر في هذا الجانب، فيصف حالَه وآلامَه، وأنَّه لا يَذوقُ سعادةً إلا حين ينفصلُ عن الواقع، ويُحلِّق على أجنحة الخيال، فيعيش لحظات حلوة في عالم آخر غير العالم الكئيب الذي يعرفه، يقول[21]:

وأطلَلتُ من فُرُجات الضَّباب ... على عالَم الرِّمَم البالية
تجرَّدتُ من صفة الهالكينَ ... ومُتِّعتُ بالصِّفة الباقية
وأُنسيتُ أنّي ابنُ هَذا التُّراب ... وضَجعته المُرّة الباغية
هَلُمِّي افتحي كوّةً للضِّياء ... لننسى بها الكوّةَ الدّاجية
فليسَ لنا أملٌ بالرَّبيع ... ونَفحته العَذبة السّارية

وكما يبدو فلا بدَّ بعد التحليق في عالم الخيال من العودة إلى الواقع، وسرعان ما تختفي المشاهد الجميلة، ويرحل السرور والأمنيات، ويجد المرء نفسه وجهًا لوجه مع تقلبات الحياة ومرارتها، ومع وحشية الزمان وقسوة الأيام.

وإزاء هذا الواقع المرّ قد يلوم الشاعر حبيبته بأنها عاجزة عن مداراة الحبِّ وإحياء قلب

(21) الأعمال الشعرية الكاملة ص-627 628.

شاعرها، كما فعل آذار مع الحبِّ والأرض، وقد تلومه الحبيبة بأنه يملك قلبًا تزدحم فيه النوائب والمآسي، فلا مكان للحبِّ فيه، وقد يلومان معًا الحبَّ بأنه أتاهما محطَّمَ النَّفس، كسيرَ الجناح، باكيَ العيون، متكاسلاً عن مباشرة القلوب وجلائها. كلُّ هذا أحسَّ به الشَاعر، فأخذ يعتذر لمحبوبته ويلومها في آنٍ واحد، يقول[٢٢]:

أفاتَك أنِّيَ جَمُّ الجروح أعيشُ على يَدك الآسيهْ
فوَلَّيتَ عنِّي وخَلَّفتني أحنُّ إلى السّاعة الماضيهْ

وهذان البيتان بمثابة التمهيد للخاتمة الثانية، وفيهما يستسلم الشاعر للحياة، ويحكي ما بقلبه من جروح وآلام، ويعترف لمحبوبته أنه مُثقَل بالأوجاع، وليس له من طبيب إلا يدها التي تمنحه الحنان والدِّفء، ولكن فقَدَ الآن كلَّ شيء بعد أن تركته المحبوبة ورحلت، فبقي تائهًا في وحشة الدُّروب، خاليَ القلب من كلِّ أمل، مستسلمًا للحياة، لا يرى الخلاص إلا بالموت.

العطار مع الشاعر القروي رشيد سليم الخوري

وهنا ينتهي إلى الخاتمة، فيقول[٢٣]:

أموتُ وقيثارتي ما تزالُ تَنوحُ على مهجتي الصّاديهْ

إنَّه يشتاق للموت، ويرى فيه الخلاصَ، ولكن هيهات له الخلاص، فإنه وإنْ مات سيبقى صدى روحه يصرخ باكيًا متألِّمًا على قلبه المحروم من الحب، المتعطِّش للأمل.

ومن الواضح أن هذا البيت، الذي ختم به المشهدَ الثاني من القصيدة، تجري بين كلماته سيولٌ وجداول من الإحساس الشَّجي، إنَّه أشبه بموجة اقتُطعت من بحرٍ هائج، فحملت كلَّ ما يتخيَّله الفكر والحسّ والوجدان من ألوان العذاب، وطعم الخَطوب، وأنينَ النفوس المتعبة.

ومثل هذه الخاتمة جديرة بأن تُسمَّى بالخاتمة العاطفية أو الوجدانية، لما تحمله من إحساس عميق صاخب، تنتهي القصيدة ويبقى مخيِّمًا على وجدان القارئ وروحه.

مما سبق يتَّضح أن الخاتمة العاطفية من الأنواع المهمّة في أدب أنور العطار، وغالبًا ما يُضمِّنها إحساسًا كبيرًا، يتفوَّق على كل الأحاسيس في القصيدة، ويتولَّى التصريح عما في وجدان الشاعر وقلبه من فيضان وازدحام.

(22) الأعمال الشعرية الكاملة ص629.
(23) الأعمال الشعرية الكاملة ص629.

٣_ خاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال:

الحكمة بمعناها العام: كلُّ ما يُسهم في زيادة العلم ومنع الجهل، ويُطلَق لفظُها على كلِّ كلام يتَّصف بالإيجاز والمعنى الدقيق المُفيد.

والمَثَل هو: القول السائر على الألسنة، المُمَثَّل مَضربُه بمَورده، والمراد بالمورد: الحالة الأصلية التي ورد فيها الكَلام، وبالمضرب الحالة المشبَّهة بها التي أُريدَت بالكلام[٢٤]. نحو قولهم: بَرِّقْ لمَن لا يَعرِفُكَ. أي: هَدِّدْ مَن لا علمَ له بك[٢٥].

الأعمال الكاملة لأنور العطار

وهذا التعريف يعني أن المَثَلَ كلامٌ نشأ مرتبطًا بحادثة معيّنة، فتداوله الناس، واستشهدوا به على وقوع حوادث مُشابهة. فلا بدّ للمثل من قصة ارتبط بها نشوءُه، ثم لا بدَّ فيه من الشيوع والتداول على ألسنة الناس، فإذا لم يُكتَب له الشيوع فلا يُعَدُّ من الأمثال، قال أبو هلال العسكري: «وقد يأتي القائل بما يَحسُن أن يُتَمَثَّل به، إلا أنه لا يتَّفق أن يسير، فَلا يكون مثلاً»[٢٦].

والأمثال عامّةً هي نوع من الحكمة، لأنها تقوم على الإيجاز والمعنى الدقيق الذي ينطوي تحته الكثير من الحوادث المتشابهة.

وأما ما يجري مجرى الأمثال فهو كلام شعري أو نثري، مستقلٌّ بذاته، مُشتمل على حكمة أو موعظة أو عبرة، طابقَت وقائعَ عامّةً جاريةً بين الناس، فاستحسنوه وتداولوه حتى شاع بينهم[٢٧]، ويختلف عن الأمثال في أنه يكون من ابتكار صاحبه، وغير مرتبط بقصّة أو حادثة معيَّنة، وقد يكون له مناسبة أو قصّة، لكنه لم يُنقَل عن قدماء العرب[٢٨].

والأقوال التي جرت مجرى الأمثال متنوعة المصادر، فمنها ما جاء في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ومنها ما ورد في الحديث الشريف كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «رفقًا بالقوارير»[٢٩].

ومنها ما ورد في النثر والخطب، وهو كثير جدًّا، نحو: «مَن جَهِلَ قَدرَ نَفسِه كانَ بِقَدرِ غَيرِه

(24) يُنظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي (ت 1102هـ)، تحقيق: د محمد حجي، ود محمد الأخضر، ط1، الدار البيضاء 1981، 1/ 20.
(25) مجمع الأمثال، للميداني (ت 518هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 1/ 90.
(26) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت 395هـ)، دار الفكر، بيروت 1/ 7.
(27) يُنظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي (ت 821هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 349.
(28) يُنظر: الأمثال، لابن سلام (ت 224هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، ط1، دار المأمون، بيروت1980، ص 34.
(29) ورد في مسند الإمام أحمد بلفظ: ارفُقْ بالقوارير. يُنظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، 20/ 164. والحديث عند البخاري ومسلم بلفظ آخر.

أجهَلَ»[٣٠]. ومنها ما ورد في الشعر كقول المتنبي[٣١]:

وإذا كانت النُفوسُ كِبارًا تَعِبَت في مرادها الأجسامُ

ولعلَّ إعجاب الناس بالأمثال، وما جرى مجراها من الكلام، قد دفع بعض الأدباء الحاذقين إلى تعمُّد ابتكار الكلام البليغ، المتَّصف بالإيجاز والاستقلال، وتضمينه شيئًا من الحكم والمواعظ والعبر، وإرساله بين الناس، ليجري بينهم مجرى الأمثال[٣٢]، وأشهر مَن عُرف بذلك من الشعراء المتنبي[٣٣]، ومن الكُتّاب الحريري صاحب المقامات.

وتفيض دواوين الشاعر أنور العطار بالأبيات، التي تجري مجرى الأمثال، ولا سيَّما في الخواتيم، لما تتضمَّنه من حكم أو كلام بليغ موجز يصلح لكل زمان ومكان، وينطبق على عدد غير محدود من الحوادث والأحوال الإنسانية.

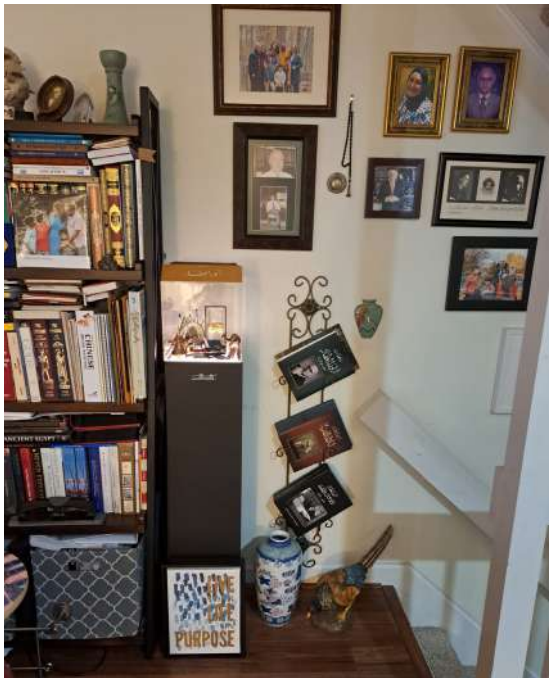

مقتنيات وذكريات العطار في منزل ابنه الدكتور هاني في أمريكا

وسأعرض فيما يلي نماذج من الخواتيم، عند أنور العطار، التي تجري مجرى الأمثال، وسأكتفي بعرض الخاتمة المقصودة دون القصيدة، لأن المسألة هنا لا ترتبط إلا بها.

فمن أمثلة هذا النوع من الخواتيم قوله في خاتمة قصيدته «النهر الملول» من ديوانه «منعطف النهر»[٣٤]:

رُبَّ نَهرٍ مُعذَّبٍ ملَّ من طُول ما سَرَبْ
وتَناهَى به المَطافُ إلى البَحرِ فاحتَجَبْ

فهذان البيتان فيهما حكمة، مضمونها أنَّ الإنسان كالنهر الجاري، يُعاني تعبَ المسير في دروب الحياة، ثم ينتهي به المطاف إلى الموت. وهي بلا شكّ تختصر رحلة الإنسان القصيرة في هذه الدنيا، وتنطبق على كلِّ ذي روح، كما تصلح للاستشهاد بها في الخطب والمجالس والأدب.

ويقول في خاتمة قصيدته «سنا الأحلام» من ديوانه «منعطف النهر أيضًا»[٣٥]:

إنَّ سَنا الأحلام رحبُ المَدى وليسَ في الكون ضياءٌ سواه

ففي هذه الخاتمة يُمجِّد الشاعر عالمَ الأحلام، باعتباره المَلاذ الآمنَ لكلِّ المعذَّبين، فهم لا يرون السرور إلا في أحلامهم، وهذه الخاتمة تصلح لأن تجري مجرى الأمثال في كلام الناس، لما

(30) التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ت 429هـ)، ص 439.
(31) شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ص1225.
(32) يُنظر: الكليات للكفوي (ت 1094هـ)، ص 77.
(33) يُنظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص 326.
(34) الأعمال الشعرية الكاملة ص167
(35) الأعمال الشعرية الكاملة ص193.

فيها من معنًى جميل، يطيب لكلِّ إنسانٍ أن يُردِّده في لحظات الحزن واليأس.

ويتحدَّث العطار في قصيدته «الأنشودة الباقية» من ديوانه «وادي الأحلام» عن خلود الحبِّ، وبقائه في القلوب رغم الفراق، ثم يختم بقوله[٣٦]:

سنَبقى على العَهد حتَّى نموتَ ونُدرَجَ في الرِّمَم الباليهْ
فعيشي لقَلبي هوًى خالدًا أعشْ لك أُنشودَةً باقيهْ

ومن الواضح ما في هذين البيتَين من معانٍ لطيفة عذبة، يطيب لكلِّ عاشق أن يردِّدها على مَسمَعٍ من يحبُّ، فهي تصلح للاستعمال عند جميع المُحبِّين، وهي مما يجري مجرى الأمثال في شيوعه وتقبُّل الناس له.

ويقول في خاتمة قصيدته «الذِّكرى» من ديوانه «ليل البلبل المسحور» يندبُ حظَّه العاثر[٣٧]:

نسَجَ الدَّهرُ لحَظِّي دارةً رُبَّما أربَتْ عليها العنكبوتُ

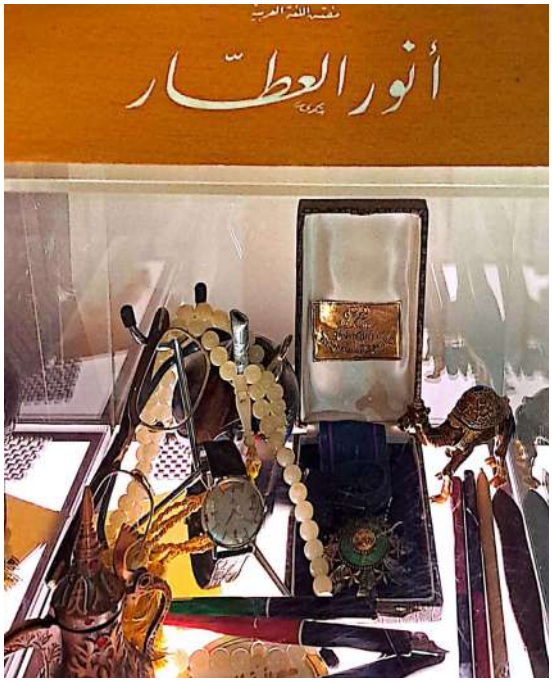

أدوات العطار في منزل ابنه الدكتور هاني في أمريكا (القم والنظارة والمسبحة و...)

فهذا البيت يجتذبُ كلَّ مَن يُعاني من الحظِّ العاثر، ويحلو له أن يُردِّدَه شاكيًا من تقلُّب الحياة، ولا شكَّ أن في الشَّكوى راحةً، وفي بثِّ المعاناة شفاءً من المعاناة، فهو يصلح أن يجري مجرى الأمثال.

وقال في خاتمة قصيدته «ببغاء الصَّدى» من ديوانه «ليل البلبل المسحور» بعد أن استطرد في التأمُّل والشكوى[٣٨]:

أظَلَّني شَجوٌ بَعيدُ المَدى فصُحتُ في يأسيَ: «هل من مُعينْ»؟
فجاوَبَتْني بَبَّغاءُ الصَّدَى: «هل من مُعينَ» ثم سادَ السُّكون

فهذان البيتان يستطيب التغنِّي بهما كلُّ مَن يشعرُ بالوحدة والغربة في الحياة، وكلُّ مَن يُعاني من التشتُّت والضَّياع، حتى كأنَّ الكون لم يعد فيه أحد، فإذا استغاث المرء وطلبَ العون لم يجد إلا الصَّدى يُردِّدُ صوته، ثم يتلاشى الصوت والصَّدى، ويُخيِّم السكون. فالبيتان مما يجري مجرى الأمثال، ويجتذبان كثيرًا من الناس، ممَّن يُعانون من الوحدة في دروب الحياة الموحشة.

ممّا تقدَّم يظهر أن أنور العطار كان حريصًا جدًّا على أن تكون أبياته وقصائده في غاية الجودة والإتقان، ويدلُّ على ذلك ما عرضتُه من أبيات تصلح لكلِّ ما هو عامٌّ وشامل، وتجري مجرى الأمثال، بفضل ما تحتويه من معانٍ دقيقة عذبة، وأسلوب سلس يدخل عالم القلب، ويذوب في تفاصيله، ويختلط بما فيه من الأماني والأمل.

(36) الأعمال الشعرية الكاملة ص271.
(37) الأعمال الشعرية الكاملة ص379.
(38) الأعمال الشعرية الكاملة ص394.

الخاتمة والنتائج

تحدَّثتُ في المبحث الأول عن أهمية الخاتمة في النقد القديم والحديث، وعناية الأدباء والشعراء بها، واهتمامهم بأن يكون المطلع والختام على درجة عالية من الجودة والإتقان، لأنَّ المطلع منوط به أن يجتذب انتباه القارئ والسّامع، والخاتمة هي آخر ما يبقى في الذهن والوجدان من المعاني والصُّور والمشاعر.

ثم تكلَّمتُ في المباحث الثلاثة التالية على أنواع الخاتمة وخصائصها ووظائفها في شعر أنور العطار، وعرضتُ بالتَّفصيل مع الشواهد ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، والخاتمة التي تتضمَّن الحكَم وتجري مجرى الأمثال.

وقد انتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- اهتمَّ النُّقاد والأدباء القدماء والمحدَثون بالخاتمة، وأدركوا أثرها في البناء الفني للقصيدة، وتحدَّثوا عن مواطن الجمال فيها، واستشهدوا عليها بأشعار الفحول، كأبي نواس وأبي تمّام والمتنبي وغيرهم.

٢- ميَّز النقاد القدامى بين ما يمكن تسميته بالقصائد المُقفَلة، والقصائد المفتوحة، حيث يكون للأولى خاتمة بمثابة القفل، تُنبئ بأنَّ القصيدة قد انقضت، ولا مزيد عليها، أما القصائد المفتوحة فهي ما جاء فيها البيت الأخير مثل بقية أبيات القصيدة، دون أن يتضمَّن أيَّ إيحاء أو إشارة بانتهاء القصيدة، ومدحوا النوع الأول وأثنوا عليه.

٣- اهتمَّ الأدباء في العصر الحديث بالخاتمة، وأولوها عنايةً فائقة، حتى أصبحت فنًّا قائمًا بذاته، له معاييره ومحاسنه، وأكثر الشعراء المعاصرين اهتمامًا بالخاتمة الشاعر السوري عمر أبو ريشة، الذي قيل فيه: إنّه يكتب من أجل الخاتمة، وأما باقي القصيدة فهي أنغام وتمهيد.

٤- من الشعراء المعاصرين الذين اهتموا بالخاتمة الشاعر السوري أنور العطار، الذي حرص أن تكون الخاتمة، في أعماله الكاملة، ذات مزايا فنيّة وأسلوبية تجعلها تختلف عن سائر الأبيات وتتفوَّق عليها .

٥- ظهر في البحث أنواعٌ ووظائف مختلفة للخاتمة عند أنور العطار، وقد تناول البحث بالتفصيل ثلاثة أنواع هي:

أ- الخاتمة التصويرية، وفيها يُنهي العطار قصيدته بصورة فنية، أو مشهد حسِّي، يحمل كلَّ ما أراد الشاعرُ أن يُوصله إلى القارئ من معانٍ وصور وخيال وأحاسيس، وهذا النوع على درجة فائقة من الجمَال، ولا سيَّما الجمال التصويري.

ب- الخاتمة العاطفية، وفيها يُنهي الشاعر قصيدتَه ببيت أو أكثر، يُحمِّلهما موجةً من المشاعر، تفوق المشاعر الموزَّعة في الأبيات، وتبقى تُخالط وجدان القارئ بعد الفراغ من القراءة.

ج- خاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال، وفيها يأتي الشاعر بحكمة أو موعظة أو عبرة، ويصوغها بأسلوب عذب، يغلبُ عليه الإيجاز مع الجودة والإتقان، ومثل هذه الخاتمة ترتبط بحياة كثير من الناس ومواقفهم وظروفهم، فيطيب لهم تَردادُها وإنشادها، فتشيع على الألسنة كما تشيع الحكم والأمثال.

٦- يصبُّ هذا البحث في مجال النقد الأدبي الحديث، ويُمكن توظيفه في إغناء الفنّ الشعري، وتوجيه الشعراء إلى الاهتمام بالخاتمة، باعتبارها الجزء الأهم في العمل الفني.

٧- أخيرًا يمكن القول بأن الشاعر أنور العطار كان مُخلصًا للفنِّ والشِّعر، ويَعدُّهما رسالته في الحياة، فجاء شعره في غاية الجودة والإتقان، فضلاً عن عمق الشعور، وسعة الأفق، والتمكُّن من اللغة والأساليب.

مصادر البحث ومراجعه

١- الأمثال، لابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، ط١، دار المأمون، بيروت، ١٩٨٠.
٢- أنور العطار: الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وإعداد: هاني أنور العطار، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٢٠.
٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
٤- تحسين القبيح وتقبيح الحسَن، لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩)، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
٥- التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨١.
٦- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار الفكر، بيروت.
٧- خزانة الأدب، لابن حجة الحموي (ت ٨٨٧هـ)، تحقيق: عصام شقيتو، دار الهلال ودار البحار، بيَروت ٢٠٠٤.
٨- زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي (ت ١١٠٢هـ)، تحقيق: د محمد حجي، ود محمد الأخضر، ط١، الدار البيضاء ١٩٨١.
٩- شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠١٢.
١٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا ١٤٢٣هـ.
١٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت ١٩٨١.
١٣- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ط١٢، دار المعارف، القاهرة.
١٤- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
١٥- الكليات للكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٦- مجلة بيت الشعر الإلكترونية في الموصل، بحث «القصيدة العمودية، جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج من الشعر الموصلي المعاصر» للدكتور جاسم محمد جاسم.
١٧- مجمع الأمثال، للميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
١٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١.
١٩- موسوعة أمراء الشعر العربي، لعباس صادق، دار أسامة، عمان ٢٠٠٢.
٢٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التِّلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
٢١- نقد الشعر، لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، ط١، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٣٠٢هـ.

السنة الاولى
مجلة
الصحة والتعليم

دمشق منارةٌ علميَّةٌ تتألَّقُ في رحابِ مكتبةِ الأسدِ الوطنيَّة (الجزء الثاني)

إياد فايز مرشد (1)

(1) باحث سوري، الدير العام لمكتبة الأسد الوطنية سابقاً.

ملخَّص البحث

استكمالاً لما جاء في القسم الأول من البحث الذي ركز على دور مكتبة الأسد الوطنية في حفظ التراث الثقافي الوطني وتصنيفه وفهرسته وحفظه بشكل علمي مناسب، وتقديمه للباحثين والدارسين ليكون لهم عوناً ومرشداً في طريق البحث العلمي والإبداع الفكري. ويأتي في مقدمة هذا التراث المخطوطات بوصفها ثمرات العقول العربية المبدعة وحصيلة الحضارة العربية العريقة، فجاء على ذكر أهمها لاسيما التي وثَّقت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية في دمشق، كما تناول بالحديث أعلام دمشق من مؤرخين وشعراء أثْروا الحياة الأدبية والفكرية فيها وقامت المكتبة باحتضان جلِّ نتاجاتهم.

أما في القسم الثاني والأخير، فقد أولينا الاهتمام للحديث عن مبدعات دمشقيات، ارتقَينَ بالأدب العربي على مدارج التميُّز والتألُّق والريادة محليّاً وعربيّاً، كما خصَّصنا باباً للحديث عن بعض علماء دمشق وإسهاماتهم الفكرية التي تُفاخرُ مكتبةُ الأسد باكتنازها، كما تم الحديث عن مراجع ومواد ثقافية احضنتها المكتبة، واتخذت مَن دمشق مطرحاً وموضوعاً للبحث والدراسة والتقصِّي، وذلك في الجوانب التاريخية والعمرانية والجغرافية والتراثية وسواها من جوانب العلم والمعرفة التي كانت دمشق حاضرة لها وقيّمةً عليها.

_ تقديم:

ارتبط تاريخ دمشق بالوعي والإنجاز، فهي ليست مجرَّدَ حاضرة من حواضر التاريخ الكثيرة، وليست مدينة تتباهى بالعمارات الشاهقة والقصور العظيمة، إنها تختزن في جنباتها نسغ التجدُّد وشغف العلم وإرادة البقاء، وعلى ترابها تقدَّست معمودية الحضارة، فانزاح لها التاريخ مأسوراً بفتنتها، وأقرَّت لها الجغرافية بموقعها عاصمة أبدية للحياة، في دمشق سار الإنسان مع الطبيعة فأبدعا معاً لوحةً زاهية للمجد لا تزول مع الزمن، ولا تتغيَّر بعواصف الأحداث، فكما في دمشق يتجذر الجمال؛ كذلك يُحلِّق العقلُ، وترتسم الفنون، وتبرز أناقة الحرفة التي تصنعها أيادٍ مبدعةٌ متشابكة مع رجاحة القول وبلاغة الصورة، فيُحلِّق في سمائها النورُ، وتتجلَّى على عتباتها مباهج الإيمان.

لم يقتصر الإبداع فيها على الرجال، رغم غلبة الطابع الشرقي المحافظ عليها، بل ساهمت المرأة الدمشقية في صياغة مجد الشام ورسم ملامحه، فلا يمكن للمرأة الشامية التي تصنع الجمال وتُبهِجُ القلوبَ بعطر الورود والأشجار التي تحوطُها بالعناية والاهتمام إلاّ أن تُسهِم في صياغة سجادة الفكر، وأن تصنع من سداها أجمل القصص والحكايات.

أولاً: الأدبيات القاصّات اللواتي أبدعن في الحديث عن دمشق:

الأديبة ألفة الإدلبي

الياسمينةُ الدمشقيّةُ، والنجمةُ المضيئةُ التي تألقتْ في سماء الأدب، وُلِدَت عام ١٩١٢م في حيّ الصالحية في دمشقَ من أبوين سوريين دمشقيين هما: أبو الخير عمر الباشا، ونجيبة الداغستاني، وكانت البنتَ الوحيدةَ بين خمسة أخوة ذكور، عاشت في دمشقَ، ودرستْ في مدرسة التجهيز، أنهت المرحلة الثانوية عام ١٩٢٩م، ودخلت دار المعلمات في دمشق.

كان والدُها يُشجِّعُها كثيراً على المطالعة في كتب الأدب والتاريخ، وظهر ميلُها إلى الأدب وهي صغيرة، حتى إنَّ أحد أساتذتها تنبَّأ لها بأنها ستصبح أديبةً مرموقةً يوماً ما، وهذا ما حدث فعلاً، وكانت هوايتُها المفضلةُ القراءةَ الدائبةَ المستمرةَ، لا تصرفها عنها مشاغلُ الحياة الكثيرة. (٢)

مرضت عام ١٩٣٢م، وظلّت طريحةَ الفراش سنةً كاملة، فانتهزت فرصةَ المرض لتقرأَ وتُشبعَ هوايتَها، وتغبَّ من ينابيع الأدب العربيّ والعالَميّ ... كانت تقرأ عشرَ ساعات متواصلةً يوميّاً، تنتقل فيها بين الأدب القديم، والحديث، والمترجَم، إلا أنَّ قراءةَ القصة كانتْ هوايتَها الأثيرة، وكانت عندها الألذَّ والأمتع، فقرأت جميعَ مؤلفات «محمود تيمور»، و«توفيق الحكيم»، و«إبراهيم عبد القادر المازني»، و«طه حسين»، و«ميخائيل نعيمة»، و«جبران خليل جبران»، و«مارون عبود»، و«معروف الأرناؤوط» وغيرهم.. (٣)

كانت عضواً في كلٍّ من جمعيّة دوحة الأدب، ومجلس إدارة جمعية أصدقاء دمشق، ومجلس اتّحاد الكتّاب العرب في سورية، ولجنة النثر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦٧، ولجنة اقتناء الأعمال الفكريّة والفنيّة في مؤسسة السينما العامة من حوالي عام ١٩٦٨.

سافرت مرات عديدة إلى كلٍّ من مصرَ، والعراق، والكويت، ولبنان، والأردن، وفلسطين (قبل الاحتلال)، وزارت أوربا، فزارت فرنسا، وإنكلترا، وإيطاليا، وهنغاريا، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، والاتحاد السوفييتي، كما زارت الولايات المتحدة الأمريكية.

تزوّجتْ عامَ ١٩٢٩ من الطبيب «حمدي الإدلبي» ورُزقت بثلاثة أولاد ابنة وابنَين.

بدأت كتابةَ القصة في أواسط الأربعينيات، وألقتْ محاضرات كثيرةً في أندية دمشق، ومثّلت سوريةَ في المؤتمر الخامس للاتحاد النسائي العام الذي عُقد في لبنان.

أحبّت دمشقَ، فتجسّد هذا الحبُّ حضوراً لا يغيبُ في عناوين رواياتها، فهي سليلةُ أسرةٍ دمشقيّة عريقة بالعلم والأدب. (٤)

وكان إبداعُها الأدبيُّ بمنزلة السفير الثقافيِّ الذي يقدّمُ وجهَ أمته الحضاريَّ والتراثيَّ والفلكلوريّ، فقد تُرجمَ أدبُها إلى لغاتٍ عدّة، كالروسيّة، والإنكليزيّة، والصّينية، والإيطالية، والألمانيّة، والإسبانيّة.

(2) ألفة الإدلبي، محمد العنيزان، ص 4، 5.
(3) أديبات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج2/ ص95).
(4) أعلام في ذاكرة الشام، عزة آقبيق، ص 329، 50.

إنَّ ما يربطُها بدمشقَ يتجاوزُ حدودَ الانتماء، فيتعدّاه إلى العشق في أعلى درجاته، وتجلّى حبُّ الوطن حضوراً لاسمِ دمشقَ أو الشام بصورةٍ عامّة في معظمِ عناوين أعمالها القصصيّة أو الروائيّة. (٥)

وقد عبّر الأديبُ (عبد السّلام العجيلي) عن إعجابه بأدبها فقال:

(تتميّزُ السيدةُ «ألفة الإدلبي» بموهبتها في تسجيل قصص الحياة الواقعيّة بأسلوب راق، وسرد رشيق، مُستمدَّين من نضارة الحياة الشاميّة الّتي تصنعها فيما تكتبه، وتكادُ تكونُ السيدةُ «إدلبي» الوحيدةَ بين قصّاصينا، وكاتباتنا القصصيات، التي بلغت بهذا النوعِ من الفنِّ القصصيّ هذه الدرجة من الكمال.

أما الأديبُ (نجاة قصاب حسن) فقد لَقَّبها (بست الشام) تيمُّناً بست الشام الخاتون. (٦)

ومن رواياتها الموجودة في مكتبة الأسد عن دمشق:

- دمشق يا بسمة الحزن، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.
- المنوليا في دمشق وأحاديث أخرى، دمشق: مطابع ابن زيدون، ١٩٦٤م.
- وداعاً يا دمشق، دمشق: مكتبة أطلس، ١٩٦٣م.

ولعلَّ من أهمِّ رواياتها «دمشق يا بسمة الحزن» (٧)

التي جسّدت فيها الحياةَ الدمشقيّةَ والنضالَ ضدّ المحتل الفرنسي، وأبرزت التصاقَ الدماشقة بياسمينهم ودفاعهم عنه، إذ تقول: (دمشقُ بعد الكارثة الرهيبة حمامةٌ وادعةٌ تطوي الجناحَ على الكسر، وتظلُّ صامدةً بإباء وشموخ، دمشقُ يا بسمة الحزن ... يا حمّالةَ الأسى!). (٨)

- إنَّ عنوانَ الرواية يمثّلُ جزءاً مهمّاً من موضوعها، فهي روايةٌ دمشقيّةٌ بامتياز على مستوى البيئة الزمانيّة، والبيئة المكانيّة.

كان لقصصها نكهةٌ خاصّةٌ وأهميّةٌ كبيرةٌ عند المستشرقين؛ لذلك أقبلوا على قراءتها وترجمتها إلى لغاتهم المختلفة، فنُقلت إلى اللغات الروسية والفرنسية والإنكليزية والصينية وغيرها. (٩)

الأديبة سهام ترجمان

سهام بنت فهمي ترجمان، وُلدت سنة ١٩٣٢م ـ في سوق «ساروجة» بدمشق (١٠)، وتلقّت دراستَها الابتدائية في مدرسة «زبيدة» بحي الصّالحية، ثم انتقلتْ مع أسرتها للإقامة في حيِّ «السبكي»، وبعد أن نالت الشهادةَ الثانوية عام ١٩٥٠ دخلت قسمَ الفلسفة في كليّة الآداب بجامعة دمشق، وتخرّجت عام ١٩٥٤م.

(5) ألفة الإدلبي، محمد عنيزان، ص 25، 26.
(6) ألفة الإدلبي، محمد عنيزان، ص 44، 45.
(7) ويكيبيديا: دمشق يا بسمة الحزن: تم تصوير فيلم سوري مقتبس عن رواية الكاتبة السورية ألفة الإدلبي وحمل الاسم نفسه، سيناريو: محمود عبد الواحد، إخراج: ماهر كدو، إنتاج المؤسسة العامة للسينما عام 2008م. كما عرض مسلسل بعنوان: بسمة الحزن عام 1992م مقتبس من الرواية عام 1981م.
(8) مقالة بعنوان: شهادات أدبية حول رواية دمشق يا بسمة الحزن، مجلة المعرفة، العدد: 228، 1981/1/1.
(9) أديبات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج98/2).
(10) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، ص 78.

تأثرت أثناءَ دراستها الجامعيّة بعددٍ من الأساتذة الأجلاء، الذين تركوا أعمقَ الأثرِ في نفسها، كالأستاذة «جولييت عويشق» «وجميل صليبا» «وسعيد الأفغاني».. وغيرهم.

تُعَدُّ أوّلَ صحفيّة سوريّة بعد (ماري العجمي) في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد كُلّفت إبّانَ سنوات الوحدة بين مصر سورية ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ بمهمّات إعلاميّة عسكرية للكتابة عن سوريةَ في المجلاتَ والصّحف المصرية، وعن مصرَ في المجلات والصُحف السّورية، كما عيّنتهَا دار (أخبار اليوم) في مَكتبها الصَحفيّ بدمشق، ونشرت تحقيقاتها المصوّرة في مجلات آخرِ «ساعة»، و«الجيل»، و«روز اليوسف»، و«صحيفة أخبار اليوم»..

ومن يراجعْ مجلّدات مجلة (الجندي) في الإدارة السياسيّة يعثرْ على كتاباتها الغزيرة التي سجّلتْ فيها تاريخَ وقائعَ وأحداث ومعارك مصرَ وسَورية ضدَّ العدوِّ الإسرائيليَ، وقد كانتَ أوّلَ امرأة عربية سوريّة تعملَ مراسلةً حربيّةً في جبلِ الشيخِ بسورية، وخطّ بارليف بمصر، وتؤرّخُ بطولاتِ حربِ تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م.

وحينَ استُشهدَ زوجُها النقيب «فؤاد محفوظ» عام ١٩٧٣ في الجبهة السورية كتبت رسالةً مُؤثّرةً إلى الطيّار الإسرائيليّ الذي قتله، أثارت ضجّةً عربيّةً وعالميّة، كما خرجت تحت قصف المدافع إلى جبهاتَ القتالِ السوريّة في سفوح جبل الشيخ، وقابلت الأبطال، وكتبتْ عن الطّيارين، والشهَداء، وجرحى وأسرَى الحربَ، وخلّدتَ في كتابها: «جبل الشَيخ في بيتي» بطولاتهم المشرِّفة.

توظّفت في إدارة التوجيه المعنويّ، ثم عملت محرّرة في مجلة «الجندي» التي تحوّلت إلى مجلة «جيش الشعب»، وحرّرت فيها، كذلك كان لها برنامجٌ إذاعيٌ أسبوعيٌ بعنوان: فنجان قهوة، وبرنامج الحقيبة الدبلوماسية.

حضرت عدداً من المؤتمرات في فرنسا، ويوغسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفنلندا. (١١)

يُعَدُّ كتابُها (يا مال الشام) كتاباً يصف التراثَ اللامادّيَّ لدمشق، وهو كتابٌ في الفولكلور الشعبيّ الشاميّ، تُرجمَ إلى اللغة الإنكليزية بعنوان: «ابنة دمشق».

عبّرت في كتابها هذا عن اعتزازها بالانتماء إلى الشام بقولها:

(أنا أعتزُّ بأنّني ابنةُ تلكَ الجوهرة النّادرَة، ابنةُ الشّام العتيقة الفقيرة، أنا لا أنسى أصلي، أنا لا أنسى أهلي، وما أكتبه عن الشامَ لا أكتبه أنا، وإنما تَكتبه روحي، الشام نفسُها العصفورةُ التي بنتْ عشّاً لها في صدري). (١٢)

ذكرت في كتابها الحارات الدمشقيّةَ العتيقة، وتقاليدَ الأعياد المسلمة، والأعيادَ المسيحيّة، والأعراسَ، والسّهرات الدمشقية، والأمثالَ الشعبيّة، وكلمات شاميّة، ونداءات الباعة الجوّالين، وقصصَ الحكواتي، وكَركوز وعواظ، وحواريات جميلة، وحكايات شعبية، وفصولَ السنَة، والوردَ الدمشقيّة، ونهرَ بردى، وبعضَ أغنيات فيروز عن الشام.

قال صباحُ قباني في رسالة أرسلها للمؤلفة يقرِّظُ فيها كتابَها هذا:

(في كتابك رأيتُ نفسي، رأيتُ طفولتي وصبايَ الأول في مئذنة الشّحم والبزورية، في كتابك

(11) عيسى فتوح، أدبيات عربيات سير ودراسات، (ج3/ 95← 97).
(12) يا مال الشام، سهام ترجمان، (م: 5/ب).

سمعتُ صوتَ أبي، وعبارات أمي، وتصايحَ أخوتي، ونداءات أهل الحارة). ([13])

لقد كتب عددٌ من النقادَ، والأدباء، والمفكرين، والإعلاميَين، وأساتذة الجامعات في الشرق والغرب، عدّةَ مقالات عن آثارَها الأدبيّة، وفي مقدمتهم الأديبُ السودانيُ (الطيبُ صَالحَ) الذيَ قال عَن كتابها (يا مَال الشامَ):

أرّقتني هَذه السيّدة الشاميّة في كتابها (يا مال الشام) الذي سهّرني حتى الفجر.. ليتنا نستيقظُ يوماً في الوطنِ العربيّ لنقرأَ كتاباً مثلَ كتاب الأديبة السوريّة (سهام ترجمان) العاشقة لمدينتها العربيّة، خوفاً عليها من الزوال، وكأنَّ المرأةَ العربيّةَ هَي الأمُ الكبرى القادرةُ على الدفاع عن هُويّة العربيِّ العربيّة، أنتظر من كلِّ مدينة عربيّة كبرى مثل: القاهرة، والخرطوم، وبغداد، ومكّة المكرمة، والقدس، وبيروت، ومراكش، كاتبةً عربيّةً تخلّدُ لنا التراثَ الشعبيَّ قبلَ أن يموتَ، وتغتالَه موجةُ المدِّ الغربيّ..).

وأضافَ أيضاً: «إنَّ «سهامَ ترجمان» السوريّة الشّاميّة هي «جان دارك العرب وسورية».. هي تحرقُ نفسَها في سبيل بلاد الشام».

وقالت المستشرقةُ الدكتورَةُ (أندرياروِ) التي ترجمتْ كتابها (يا مال الشام) إلى الإنكليزية.

(إنني لم أقرأْ في حياتي كتاباً أجملَ من كتاب (يا مال الشام) «لسهام ترجمان» الذي يخلّدُ التراثَ الفولكلوريّ الشعبيَّ في بلاد الشام. ([14])

من مؤلفاتها المتوفرة في المكتبة:

- يا مال الشام، ط٥، دمشق: ٢٠٠٥م

الأديبة غادة السمّان

وُلدَت «غادة السمّان» في دمشقَ عامَ ١٩٣٨م لأسرة شاميّة، والدُها هو الدكتور «أحمد السمَان» وزيرُ التعليم العالي سابقاً، وقد تأثّرتْ به كثيراً نتيجةَ وفاة والدتها وهي صغيرة.

درست في معهد اللاييك حتى الصف الثالث الابتدائي دراسة فرنسية، وقضت عاماً في الكليّة العلميّة الوطنيّة، وعاماً في مدرسة الفيحاء، ثم تابعت دراستها الإعدادية والثانوية في تجهيز البنات الأولى.

حازت الشهادةَ الجامعيةَ في الأدب الإنكليزي من جامعة دمشق عام ١٩٦٣م.

سافرت إلى بيروت عام ١٩٦٤م لتتابع دراسة الماجستير في الأدب الإنكليزي في الجامعة الأمريكية. ([15])

كما أنها عملت في الصِّحافة، وكتبت في مجلتَي: «الأسبوع العربي» و «الحدث».

استطاعت «غادة» أن تقدّمَ أدباً مختلفاً خرجتْ به من إطارِ مشاكلِ المرأة إلى آفاق اجتماعيّةٍ ونفسيّة وإنسانية.

سافَرت إلى أوروبا، وتنقَّلت بين معظم العواصم الأوروبية، إذ صقلت شخصيتَها الأدبيّة،

(13) يا مال الشام، سهام ترجمان، (م: 2/د).
(14) أدبيات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج102/3).
(15) أدبيات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج148/2).

تعيش في باريس منذ الثمانينيات، تكتب القصة القصيرة والرواية. ([16]) أصدرت مجموعتها القصصية الأولى عام ١٩٦٢ بعنوان «عيناك قدري»، وفي عام ١٩٦٦ أصدرت مجموعة قصصية متميزة بعنوان «ليل الغرباء». ولها أعمال أخرى كثيرة.

أسّست بمساعدة زوجها (بشير الداعوق) دار نشر باسم: (منشورات غادة السمان).

ولأن غادةَ السمّان سعَتْ لنيل المجد الأدبيِّ من أطرافه كافّة أصدرت كذلك تسعةَ دواوين شعريّة لتجمعَ بين الرواية، والقصة، والشعر، ومن أهمِّ مجموعاتها الشعريّة:

أعلنْتُ عليكَ الحب ـ أشهد عكس الريح ـ الحبيب الافتراضي ـ رسائل الحنين إلى الياسمين ــ عاشقة في محبرة...

ولا يفوتنا أن نذكرَ ضلوعَها في أدب المراسلات مع الأديب الراحل (غسّان كنفاني). كما كتبت في مجال الرواية أعمالاً متميزة نذكر منها: بيروت ٧٥ ــ الرواية المستحيلة (فسيفساء دمشقية) ــ سهرة تنكرية للموتى ــ ليلة المليار.

في مجموعتها الشعرية: «عاشقةٌ في محبرة» التي نشرتها عام ١٩٩٥م، قالت في دمشقَ:

ما أعذبَ الفراقَ الطويل..
يظلُّ الذين أحببناهم شبّاناً في ذاكرتنا
والمدينةُ تظلُّ كما عرفناها محفوظةً في صناديق الماضي..
بيوتها العتيقة، أزقّتها، أبوابها القديمة اللامنسيّة
...
تزوَّج الحنانُ من الحجر
فوُلدَتْ بيوتٌ تنحني على أهلها كَرَحم
في أزقة متلاصقة الشفاه كهَمس العُشاق
قرب «باب توما» و«الشاغور» و«القصّاع» وسوق ساروجة»..
والذهب الضوئي،
يسيلُ من قباب الجامع الأمويِّ و«ستي زينب»
ومن جرس كنيسة القدّيس بولص، وآثار أقدامه حتى روما ..
دمشق زهو الورد الجوري، في خدود صبايا
يقاتلن طواحينَ الهواء، ويربحْنَ الخسارةَ المضيئة..
لا تُشهري عليَّ سيفَ الذكريات يا دمشق..
أمطار أوروبا على مدى عصور
لن تمحوَ بصماتك عن أسوار قلبي
وعبثاً يركض الثلجُ بممحاته المتوحشة فوق سطور أيامنا

(16) الحركة الأدبية في بلاد الشام، عبد النبي اصطيف، (ج731/2).

êêêê

قبل أن أرحلَ بعيداً كأية بومة أدمنت الليل
قرأتُ دفترَ الياسمين في دمشقَ
قرأتُ أحجارهَا العتيقة.. كنائسها وجوامعها..
قرأت وجوه عشَّاقها ومجانينها، ليلها وفجرها..
قرأتُ طلاسمَها، أحجياتها، تعاويذَها، رياحهَا
قرأت ميسلونَ.
وحين تخرَّجتُ من مدرستها، وصرتُ وتراً يعزفها
بدأتُ طيراني اللَّيليَّ بومة متوحِّدة في دمها ذلك كلّه (١٧)..

كتبتْ عن مجموعتها هذه: (إنها قطرةٌ من بحرِ ما سطّرتُه عن دمشق في كتبي الأربعين كلِّها على نحوٍ مباشر أو غيرِ مباشر).

الأديبة قمر كيلاني روائيّة وقاصّة

أديبةٌ، وقاصّةٌ، وروائية، وُلدَتْ في دمشق عامَ ١٩٣٢، وتلقَّت دراستَها حتى نهاية المرحلة الثانوية في الكليّة العلميّة الوطَنيّة، ثم انتسبتْ إلى قسم اللغة العربية في كليّة الآدابَ بجامعة دمشق، وتخرّجتْ عام ١٩٥٣، كما حازت على دبلومٍ في التَربية عام ١٩٥٤، وبعدَ تخرُّجها عَملَتْ في التدريس حتى عام ١٩٧٥م. (١٨)

ودرّست الأدبَ العربيَّ في ثانويات دمشق، وأصبحت عضواً مؤسِّساً في كلٍّ من اتّحادِ الكّتابِ العرب، واتّحاد الصحفيين، والاتّحادَ العام النسائي.

انتُخبت عَضواً في المكتب التنفيذيّ لاتحاد الكتّاب العرب بدمشق، وتسلّمتْ إدارةَ الشؤونِ الثقافيّة فيه، ثم رئاسةَ تحرير مجلة «الآداب الأجنبية» الفصليّة التي تصدر عن الاتحاد.

ظهرتْ عليها ملامحُ النجابة والذكاء وهي صغيرة، الأمرُ الذي شجَّعَ الأبَ على الاستمرار في تعليمها، وكانت أوّلَ فتاة تحصلَ على شهادة جامعيّة في الأسرة.

تزوّجت زواجاً عائليّاً تقليدياً من أحد أقربائها في الأسرة، وكان ضابطاً، فأنجبت منه ابنةً واحدةً اسمها «لينا»، برعتْ في الكتابة للأطفال، ثم انفصلتْ عنه، وقد أثّر هذا الانفصال في مجرى حياتها، ودفعها إلى الانطلاق في مجالِ الكتابة والإبداع.

بدأت الكتابةَ والنشرَ وهي لا تزال طالبةً في المرحلة الثانوية، لكنَّ نشاطَها الأدبيَّ لم يبدأ فعليّاً إلا في الستينيات، فكتبت القصةَ القصيرةَ، والخاطرة، والمقالة النقدية ... وقد صدر أوّلُ كتاب لها عن «التصوف الإسلامي» عام ١٩٦٢م، وكان في الأصل رسالة جامعيّة لنيل شهادة الليسانس في الآداب.

(17) عاشقة في محبرة، غادة السمان، ص 14، 15.
(18) أعلام الأدب العربي المعاصر (سير وسير ذاتية)، شريح اليوسف، (مج 1138/2).

استهوتْها الصِّحافةُ فبدأت منذ عام ١٩٦٦ تكتب مقالةً أسبوعيةً تنقَّلت فيها بين صحف «البعث» و«تشرين» و«الثورة»، كما كتبت في مجلات «دنيا المرأة» اللبنانية، و«العربي» الكويتية، و«الآداب الأجنبية» السورية.

أصدرت الأديبةُ «قمر كيلاني» أكثرَ من عشرين كتاباً، وقد تنوّعَتْ كتاباتُها بين القصة القصيرة، والرواية، والمقالة، والبحث، والدراسات الأدبيّة، والتمثيليات الإذاعيّة ... فمن كتبها في القصّة القصيرة: «عالم بلا حدود» ١٩٧٢، و«الصيّادون ولعبة الموت» ١٩٧٨، و«اعترافات امرأة صغيرة» ١٩٨٠، و«الظل» ١٩٨٤، و«المحطّة» ١٩٨٧..

ومن رواياتها: «أيام مغربيّة» ١٩٦٥، و«بستان الكرز» ١٩٧٧، و«الهودج» ١٩٧٩، و«الأشباح» ١٩٨١، و«طائر النّار» ١٩٨١، و«حب وحرب» ١٩٨٢، و«الدوامة» ١٩٨٣..

ولها في الدراسات الأدبيّة والفكريّة: «التصوف الإسلامي»١٩٦٢، وفي أدب الرحلات «أوراق مسافرة» ١٩٨٤، وفي السيرة: «أسامة بن منقذ» ١٩٨٣، و«امرؤ القيس» ١٩٨٤، و«عفيف الدين التلمسانيّ». (١٩)

ومن كتاب لها بعنوان:

(دمشق عاصمة ثقافة أبدية) قولها:

الخصوصيّاتُ الدمشقيّة ما أكثرَها ... تتجلّى في الأفراد ... وتتفرّع في الحرف، والمهن، وفي الفنون أيضاً، أعدادٌ كثيرةٌ من الدمشقيِّين منذ أزمانٍ بعيدة وحتى الآن ربما اسْتهوَتْهم فنونٌ أو مؤلفاتٌ وحتى مذكرات، فرصدوها في كتبٍ متميّزة ليست سياقاً ولا نهراً، وإنّما هي السّواقي والروافد ... وفي نسبة أقلّ الفنون الجميلةً من تصويرٍ، ونحت، وتشكيل، ولو كان من الطّين.

وكم يطيبُ لي أن أتغلغلَ في روح دمشق ... وشرايين دمشق ... وأتلمّسَ ما فيها من خصوصيات جميلة إلى حدِّ الإبهار، تشكلُ نموذجاً للتطور والابتكار ... دون أن أنسى خصوصيّةَ صناعةً السيوفِ الدمشقيّة التي لم يعرفوا لها سرّاً ... وصناعة الآلات الموسيقيّة كالعودِ والمزاهرِ وغيرِها معبّرة عَن كلِّ مناسبة دينية أو احتفاليّة. (٢٠)

من مؤلفاتها في مكتبة الأسد الوطنية عن دمشق:

- دمشق عاصمة الثقافة، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.

الأديبة كوليت الخوري

تُعَدُّ «كوليت الخوري» واحدةً من أهمِّ الكاتبات من النساء في الوطن العربي.

هي شاعرةٌ، وأديبة، وروائيةٌ دمشقيّة، ولدَت عام ١٩٣٧م في بيت من بيوت دمشقَ في (باب توما) وسطَ عائلة مثقَّفة تهتمُّ بالعلم، كان جدُّها رئيسَ الوزراءِ السّوريّ في عهدِ الاستقلال (فارس خوري). (٢١)

(19) أديبات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج2/203 ← 205).
(20) دمشق عاصمة ثقافية أبدية، قمر كيلاني، ص 115.
(21) أعلام الأدب العربي المعاصر (سير وسير ذاتية)، الأب روبرت ب.كامبل اليسوعي، ص 580.

تلقّت تعليمَها الابتدائيَّ في مدرسة راهبات القلبين الأقدسين بدمشق، والثانوي في المعهد الفرنسي بدمشق، ودرست الحقوقَ في جامعة القدّيس يوسف في بيروت حتى عام ١٩٥٥م، ثم درست الأدبَ الفرنسيَّ في جامعة دمشق. (٢٢)

أما والدها فهو (سهيل الخوري) الذي كان محاميّاً ووزيراً، تبوَّأ سدّة الوزارة مرتين، وكان شخصية لامعة ومحبوبة.

«كوليتُ» هو اسمُها الأوّلُ الذي اختارَه والدُها بسبب إعجابه بالكاتبة الفرنسيّة (كوليت)، أما «خولة» فهو الاسمُ الذي اختارَهُ لها الجدُّ «فارس الخوري» تيمُّناً ببنت الأزور، ورغبةً منه بوجود فارسة من عائلته، وكانت فارسةَ الأدب. علَّمها جدُّها مبادئَ اللغة العربية، ودرّسها الإنجيلَ والقرآنَ الكريم منذ نعومة أظفارها، حتى نشأت فصيحة اللسان، ناصعةَ البيان، لا يعرف الخطأُ إلى قلمها أو لسانها سبيلاً، أطلق عليها الشاعرُ الكبير (سعيد عقل) لقبَ (صاحبةَ القلم الضوئيّ)، وقال فيها:

«كوليت الخوري» امرأة عظيمةٌ، وروائيةٌ كبيرة، ومع أنها مثقفةٌ ومطّلعة على أدب الغرب، وأدب وكتّاب العرب المشهورين، إلا أنها لم تتأثرْ بأحد من هؤلاء، وبقيت «كوليت» هي «كوليت»، وهذا مهمٌّ جداً أن تكونَ في خطِّ العظماء وتبقى أنتَ أنت». (٢٣)

تقول كوليت عن حياتها: «ولدتُ في أسرة صغيرة جداً بالعدد، كبيرة جداً بالأصدقاء والأحبّاء والمعارف، مستورة جداً في حياتها العائلية الخاصة، ومشهورة جداً في الميدان السياسيّ والصحفيّ والأدبيّ، ومتواضعة في الإمكانات المادية، وغنيّة بالوطنية والثقافة والفكر».

كان جدُّها (فارس الخوري) ١٨٧٧ - ١٩٦٢ من أهمِّ رجالات الأمة العربية، وخالُها الأستاذ (حبيب كحَّالة) من أهمِّ صحفيي سورية، وصاحب مجلة (المضحك المبكي) المعروفة.

تقول «كوليت» إنها مالت في طفولتها إلى الموسيقا، والغناء، والرياضيات، والكيمياء، لكنَّ البيئة أو الظروف لم تسمحْ لها بأن تحققَ طموحاتها في هذه المجالات.. وأنها كانت دائمًا تشعر بأنها في حاجة إلى التعبير عما تفيضُ به نفسها، وإلى الاحتجاج والصّراخ، وبما أنها كانت لا تحبُّ الصراخَ بالحنجرة، فقد صرختْ بأصابعها فأصبحت أديبة.

درَّست في معهد اللاييك بدمشق من ١٩٥٧ - ١٩٥٩م. (٢٤)

عملتْ أستاذةً محاضرةً في قسم اللغة الفرنسية في جامعة دمشق من ١٩٧٤ حتى ١٩٧٨م، وأتقنت كتابةَ الشعر والرواية والقصة القصيرة، وفي عام ١٩٥٧ أصدرت كتابَها الأوّلَ بالفرنسيّة بعنوان: «عشرون عاماً» وهو مجموعةٌ من القصائد الشعرية.

عُيِّنت مستشارةً للشؤون الأدبية في رئاسة الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

وكتبت الكثيرَ من القصص التي دافعتْ فيها عن حقوق المرأة، إضافةً إلى العديد من المقالات السياسيّة والأدبية.

(22) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، ص 177.
(23) أديبات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج118/2).
(24) أديبات عربيات سير ودراسات، عيسى فتوح، (ج117/2).

إنها الروائيّةُ التي سَكرتْ بنبيذ ياسمينها العَطر، والقاصّةُ التي عزفتْ في قصّتها هذه على وترِ وصف جمال دمشقَ، فكان اللحنُ أخّاذاً يَسبيَ العقول.

من مؤلَفاتها المتوفرة في المكتبة عن دمشقَ روايتان وهما:

- دمشق بيتي الكبير، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م.
- دمشق بيتي الكبير وحكايات في البال، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، نشر سنة ٢٠١٦م.

أما رواية «دمشق بيتي الكبير» فتحكي عن فتاة دمشقيّة تعشقُ مدينةَ دمشق، وزائر عراقيٌّ لا يعرفُ عن دمشقَ أيَّ شيء، ويتطلّع لإنهاء عمله فيها، والعودة لبلاده، وعندما تعرفُ البطلة بذلك تصرُّ أن تعرِّفَه على جمال دمشقَ، وتسأله سؤالاً:

(هل تعرفُ لماذا سُمّيت هذه المدينةُ دمشق؟ طبعاً لم يكنْ يعلم، قالت: دومسكس أسماها الرومان دومسكس غدت «دو» و «مسكس» أي؛ المسك المضاعف، دومسكس غدت «دومشك» ثمّ « دمشق»، فدمشقُ هي المدينةُ المضاعف عطرُها).

وتنجُح بجعله يعشقُ دمشقَ مثلَها إذ تقولُ في نهاية القصّة:

(لا لم يعدْ يودُّ الرحيل، بل لم يعدْ يطيقُ مفارقةَ دمشق مادامتْ هناك واحدةٌ مجنونةٌ يحبّها، صبيّةٌ تتبخترُ في دمشق، وكأنّ دمشقَ بيتُها الكبير).([٢٥])

الأديبة والشاعرة والمربيّة
مقبولة شلق

مقبولة شلق: أديبةٌ قاصّة وحقوقيّة، وشاعرةٌ، ومربيّة.

وُلدَت عام (١٩٢١م) في دمشقَ في حيِّ المهاجرين، في بيتٍ عريقٍ من بيوتات دمشق، فوالدها «حمدي» من كبار قضاة دمشق.

بدأت دراستها في الخامسة من عمرها، وظلت تتابع دراستها الإعدادية والثانوية في مدرسة تجهيز البنات.

درست الحقوقَ في جامعة دمشق، تُعَدُّ رابعَ فتاة تتخرجُ في جامعة دمشق، وهي من أوائل مَن حملنَ إجازةَ الحقوق في سورية من السيّدات عام (١٩٤٤م).

تزوّجت من طبيبَ أسنان، وسافرت معه إلى باريس، حيث أُوفد من الجيش العربي السوري لفرنسا للتخصُّص في جراحة الفم والأسنان، وهناك درستْ قضايا الحضانة ورعاية الأطفال، وحين عادتْ إلى دمشقَ أسّسَت (جمعيةَ حماية الطفل) في بعض قرى دمشقَ عام (١٩٥٢م).

وقد ذكر ذلك الدكتور (نزار أباظة) في كتابه (معجم شهيرات النساء في سورية).

كانت السيّدةُ «مقبولة» رائدةً من رائدات سورية في الدفاع عن حقوق المرأة، واشتركتْ في الجمعيّاتَ النسائيّة، وحاضرتْ في المنتديات مطالبةً بمساواة المرأة بالرجل في التّعليم.

أحبَّت الكاتبةُ (مقبولة) دمشقَ، وأخذت تتغنّى بها، فهي مهدُ الحضارات، وتحدّثتْ عن جبلِ

(25) دمشق بيتي الكبير وحكايات في البال، كوليت خوري، ص 127، 151.

قاسيون، وأطلقتْ عليه الأبَ الحنون، أما دمشقُ فهي ابنتُه التي أحبَّها ورعاها.

ذكرتْ في قصصها أنَّ اللّه خلقَها في حضن قاسيون، وجرى بردى في أرجائها ليعمَّ الخير.

وصوّرتْ في قصَصها تعلُّقَ أبناء دمشقَ بمدينتهم العريقة التي نافحوا عنها.

للكاتبة تاريخٌ نضالِيٌّ حافلٌ ضَدَّ المستعمر الفرنسي، فهي من أوائل النساء اللواتي شاركْنَ في أوّل مظاهرة نسائيّة خرجت في دمشق، وألقت كلمةً حماسيّةً ضد الفرنسيين، وهي في السادسةَ عشَرةَ من عمرها.([٢٦])

انتسبتْ إلى اتّحاد الكّتاب العرب، وكانت عضواً مؤسساً في جمعية أصدقاء دمشق وجمعية القصّة والرواية، عملَت مدرّسةً لمبادئ التربية الوطنية والتاريخ في مدرَسة التجهيز للبنات مدةَ خمس سنوات، عرفها قراؤها مدة عشر سنوات باسمها المستعار (فتاة قاسيون) قبل أن تخرج وتطالب بحقوقها.([٢٧])

لها مجموعاتٌ قصصيةٌ عبَّرت من خلالها عن قضايا اجتماعية وقضايا وجدانية.

تُوفيت عام (١٩٨٦م) تاركةً بصمةً كبيرةً في مسيرةِ الأدبِ النسويِّ الدمشقيّ، فهي مثال المرأة السورية الأديبة والمناضلة.

من مؤلفاتها المتوفرة في المكتبة عن دمشق:

- قصص مَن بلدي، دَمشق: المكَتبة العمومية، ١٩٨٢م.

ولها ديوان شعر تغّنت فيه بدمشق وهو: «أغنيات قلب»، دمشق: المكتبة العمومية، ١٩٨٢م.

الأديبة ناديا خوست

كاتبةٌ وأديبةٌ سوريّة، وُلدت في دمشق عام ١٩٣٥م، حصلت على درجة الدكتوراه في الأدبِ المقارن من الاتّحاد السوفيتيّ بعد حصولها على إجازة في الفلسفة من جامعة دمَشق.

كانت أطَروحتُها لرسالة الدكتوَراه في الأدب المقارن بعنوان:

(أدب تشيخوف وأثره في الأدب العربي).

انتمت إلى جيل تشرّبَ الثقافةَ انتماءً، والهُويّةَ الوطنيّة والقوميّةَ قضية، فترسّخَ اسمُها بين الأسماء الأدبيّة والفكريّة الكبيرة في سورية.

تمثّلَ الأديبةَ «ناديا خَوست» إحدى الدعائم الأدبيّة والفكريّة في سورية، فهي ترى نفسَها محظوظة؛ لأنها وُلدت في حيٍّ عريق ومتنوّر هو حيُّ «سَاروجة»، الذي عاشتْ فيه مجموعةٌ من الشخصيات المثقفة، الذين تركوا في ذاكرتِها الانطباعَ الأوّلَ عن دمشق، ممّا كان له الأثرُ الكبيرُ في توجُّهها نَحو الأدَب.

بدأتْ كتاباتها في الستينيات، وأصدرتْ أوّلَ مؤلفاتها: «أحبُّ الشّام» عام ١٩٦٧.

هي عضوٌ مؤسسٌ في هيئة دمشق القديمة، وعضوٌ في لجنةِ البناءِ للجنة دمشق القديمة التاريخية.

(26) أعلام في ذاكرة الشام، عزة آقبيق، ص332.

(27) مجلة جنى، تاريخ: 2022/9/10، مقالة بعنوان: مقبولة الشلق صاحبة قلم فتاة قاسيون.

انطلقتْ عوالمُها الروائيةُ من البيئة الدمشقيّة، فهي تذكر أن الكاتبَ من دونِ مكانٍ لا وجودَ له؛ لأنه يأخذ من المكان نكهتَه، وتاريخَه، وعراقتَه.

وهي عضوة فاعلة في لجنة الحفاظ على المدينة القديمة في دمشق، التي تهدفُ للمحافظة على التراث المعماريِّ والفنيِّ التاريخيّ في أحياء دمشقَ، وبيوتها القديمة.

ناديا خوست شكّلت حالةً فريدةً في الثقافةِ السوريّة المعاصرة، إذ جمعت بين الإبداعِ الأدبيّ والدراسة البحثيّة. (٢٨)

ومن أهمِّ كتبها: (دمشق ذاكرة الإنسان والحجر) الذي تحدّثتْ فيه عن «سوق ساروجه»، الذي ذكرته في كتابها: (الهجرة من الجنة)، وهو حيٌّ في وسط دمشق الحديثة، أنشأه السلاجقةُ ثم الأيوبيون، كما تناولت التربَ الموجودةَ في الصّالحية، وذكرَت أهميتَها.

أبدعتْ في ذكر ملامحَ أزقّة، وحاراتِ دمشق، والبيتِ الدمشقيِّ، وفنَّ عمارته، الذي يخاطبُ أنواعَ الحسِّ في الإنسان.

وممّا ورد في كتابها «دمشق ذاكرة الإنسان والحجر» قولها: يتوقّفُ ابنُ بطوطة في سنة ١٣٥٥ عند الربوة: وفي آخر جبل قاسيون الربوةُ المباركة ... وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها، وبها القصورُ المشيّدَةُ، والمَباني الشريفة، والبساتينُ البديعة، والمأوى المبارَك مغارةٌ صغيرةٌ في وسطها كالبيت الصغير، إزاءها بيتٌ يقال إنّه: مُصلّى الخضر عليه السلام، يبادر الناسُ إلى الصلاة فيها، وللمأوى بابُ حديد صغير، والمسجدُ يدور به، وله شوارع دائرة، وساقية حسنة ينزل لها الماءُ من علو، وينصب في شاذروان في الجدار، يتصل بحوض من رخام، ويقع الماء فيه، ولا نظيرَ له في الحسن وغرابة الشكل، وهذه الربوةُ المباركةُ في رأس بساتين دمَشقَ، وبها منابعُ مياهها، وينقسم الماءُ الخارجُ منها على سبعة أنهار، وكلُّ نهر آخذٌ في جهة، ويُعرف ذلك الموضع بالمقاسم، وأكبرُ هذه الأنهار المسمَّى بتورة، وهو يشقّ تحت الربوة، وقد نُحت له مجرًى في الحجر الصّلد كالغاز الكبير، وربما انغمسَ ذو الجسارة من العوّامين في النهر من أعلى الربوة، وهي مخاطرةٌ عظيمة، وهذه الربوةُ تُشرفُ على البساتين الدائرة بالبلد، ولها من الحسن واتّساع الأبصار ما ليس لسواها، وتلك الأنهارُ السبعةُ تذهبُ في طرق شتّى، فتحارُ الأعينُ في حسنَ اجتماعها، وافتراقها، واندفاعها، وانصبابها، وجمالُ الربوة وحسنُها التّام أعظمُ من أن يحيطَ به الوصف، (رحلة ابن بطوطة ص ١٣٠ أنهى تسجيلها سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م). (٢٩)

من قصصها عن دمشق المتوفرة في المكتبة:

- أحبُّ الشام: (مجموعة قصص) دمشق، ١٩٦٧م.
- حب في بلاد الشام: (رواية)، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٥م.
- دمشق ذاكرة الإنسان والحجر، دمشق: دار دانية، ١٩٩٣م.
- عند البوّابة: (قصص وحكايات)، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠١٩م.

(28) جهينة (صحيفة إلكترونية)، العدد/57/، تاريخ: 2010/2/1م.
(29) دمشق ذاكرة الإنسان والحجر، ناديا خوست، ص 44، 45.

د. نجاح العطار

نائب رئيس الجمهوريَّة العربيَّة السوريَّة منذ تاريخ ٢٠٠٦/٣/٢٣م.

أوَّلُ امرأة عربيَّة تصل إلى هذا المنصب، وهي من مواليد دمشقَ ١٩٣٣/١/١٠، ينتمي والدها «محمد العطار» إلى سلك القضاء، فقد نال شهادةَ الحقوق مِن إستانبول عام ١٩٠٥.

هيَّأت لها أجواءُ العائلة في المرحلة الابتدائيَّة دوراً سياسيّاً غضّاً بمبادرتها الطفوليَّة على تحريض زميلاتها في مدرسة التطبيقات في حي «الروضة الدمشقيّ» على السير في مظاهرة وصلتْ إلى حيِّ الشعلان ليطالبْنَ فتيات معهد الفرنسيسكان للمشاركة في التنديد بالانتداب الفرنسي، فتمَّ حجزهنّ في باحة المعهد، وفُتح تحقيقٌ اهتمَّ بالمحرِّضينَ على التظاهرة، وبين بكاء زميلاتها خوفاً أمام الدرّكِ والضابط الفرنسي ثبتت الصغيرةُ حيث ردَّت بلهجة خطابيَّة واضحة على الأسئلة الموجَّهة إليها مع الإصرار على المواجَهة، وبحضور قائد الشرطة «أحمد اللحّام» الذي استطاعَ حلَّ الإشكال، والسماحَ للصغيرات بالمغادرة، لم تعنِ الحادثةُ لها الخوفَ، بل واصلت نشاطَها بين الأوساط الطلابيَّة بعد نيل الاستقلال وقيام الحكم الوطني.

لم تكن د. «نجاح العطَّار» قد تجاوزت الخامسةَ عشرةَ، وبعد حينٍ قدَّمها مديرها «عاصم النجاري» للوقوف على درج بناء السراي في ساحة المرجة لتُلقي خطاباً حماسيّاً عام ١٩٤٨ أمامَ جمع غفير عقبَ النكبة، إنَّ ثقةَ معلمها بوطنيّتها وفصاحتها قد اعتمدت على مؤشِّرات نابعة من معرفته التامَّة بنضج فكرها الأدبيّ ووعيها السياسي، هذا الوعيُ والنضجُ كانت تدعمه خلفيَّةٌ واعيةٌ من أب شعرَ بحقوق المواطنة، وغرَسها في نفوس أبنائه، وعلى ذلك شبَّت الفتاةُ لتنالَ الشهادة الثانويَّة، وتنتسب إلى الجامعة السوريَّة عام ١٩٥٠، فحازت إجازة في «الآداب والعلوم الإنسانيَّة» عام ١٩٥٤، وعلى دبلوم التربية عام ١٩٥٥م.

تابعت دراستَها في بريطانيا مع زوجها اللواء الطبيب «ماجد العظمة»، فنالت الدبلوم في الدراسات الإسلاميَّة عام ١٩٥٦، وحصلت على شهادة «الدكتوراه» في الأدب بدرجة شرف عام ١٩٥٨ من جامعة «أدنبرة»، كما حصلت على عدد من الدبلومات في العلاقات الدوليّة والنقد الأدبي والفنّي، درَّست عند عودتها إلى دمشق في المدارس الثانويَّة مدّةَ ثلاث سنوات، انتقلت بعدَها إلى مديريَّة التأليف والترجمة في وزارة الثقافة والإرشاد القومي، إذ أصبحت مديرةً لها، تولَّت منصب وزيرة الثقافة عام ١٩٧٦، واستمرّت فيها حتى عام ٢٠٠٠م، ونشرت الكثيرَ من الأعمال الفكريّة الثقافيَّة، وواصلت لسنوات طويلة كتابةَ الدراسات النقديَّة والشعريَّة والروايةِ والمسرح والزواياَ الصحفيَّة الأسبوعيَّة.

أسهمتْ في إطلاق أوَّل مشروع لإنشاء متحف للفنون في سورية، كما أشرفت على بناء المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، والمعهد العالي للموسيقا، ومكتبة الأسد، ودار الأوبرا.

كانت بين أعضاء المكتب التنفيذي لاتِّحاد الكتَّاب العرب، وفي جمعيَّة النقد والأدب، وتولَّت رئاسة مجلس أمناء جامعة القلمون الخاصّة منذ افتتاحها في سورية عامَ ٢٠٠٣، وحتَّى ٢٠١٠.

وأطلقت في عام ٢٠٠٦ المشروعَ الوطنيَّ الشامل للتمكين للغة العربيَّة، بالتعاون مع مجموعة

من الباحثين والمسؤولين، إضافةً إلى مشروعِ تعديل قانون «مجمع اللغة العربيَّة» بهدفِ رفعِ ظاهرة التعريب اللغوي.

من مؤلَّفاتها المتوفرة في المكتبة عن دمشق:

- «حافظ الأسد الذي صنع التاريخ»، وزارة الثقافة، ٢٠١١م.
- «سورية في مواجهة الحرب الكونية»، تأليف مجموعة من الباحثين، إشراف: الدكتورة نجاح العطار، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨م.

ولها مؤلفات أخرى متميزة:

- «أدب الحرب» دراسة بالاشتراك مع حنا مينة ـ دمشق ١٩٧٦ .
- «نكون أو لا نكون» مقالات ـ جزآن ـ دمشق ١٩٨١ .
- « من مفكرة الأيام» ـ مقالات ـ دمشق ١٩٨٢ .

حصلتْ الدكتورة العطار على العديدِ من الجوائزِ، وشهاداتِ التقدير، والأوسمةِ في سورية وخارجها:

- وسام أميّة الوطني ذو الرصيعة قام السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد بتقليدها هذا الوسام تكريماً لدورها الثقافي والوطني في خدمة وطنها في ٢٠٢٢/١٠/٣١م.
- وسام «الصداقة بين الشعوب» ممنوح من رئيس مجلس السوفيات الأعلى لاتِّحاد الجمهوريّات السوفياتيّة الاشتراكية سابقاً.
- وسام «الثقافة البولونيَّة».
- وسام «الاستحقاق الوطني الفرنسي»، من الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» عام ١٩٨٣ .
- وسام «جوقة الشرف برتبة كومندور»، عام ١٩٩٢ .
- وسام «السيدة العظيمة» من مالطا .
- وسام «الصليب المقدَّس» من الرئيس البولوني عام ١٩٩٩ .
- وسام «الكنز المقدَّس ذو الوشاح الكبير» في أرفع درجاته من إمبراطوريّة اليابان عام ٢٠٠٢ .
- ميداليَّة «الشرف» من الرئيس التشيلي عام ٢٠٠٤ .([30])

وفي كلمة أعدّتها الدكتورة نجاح العطار لتُلقى في افتتاح دار الأسد للثقافة والفنون في بداية عام ٢٠٠٠م وجّهت رسالةً إلى الرئيس الراحل «حافظ الأسَد» تقول فيها:

إنَّ الصروحَ الثقافيّةَ والفنيّةَ في دمشقك، دمشقنا، وفي مدننا الأخرى واجهةٌ حضاريّة، ومعيارٌ حضاريّ، وسمةٌ عصريّة، ومنارةٌ فكريّةَ، دافعها ورَاعيها وبانيها عقلٌ اتخذ الثقافةَ زاداً، والعلمَ منهلاً، والتقدُّمَ سبيلاً؛ لأنه عقلٌ تشبّعَ بالمعارف النظريّة تنويراً، والإحداثات الثقافية تثويراً، والصّبوات الإبداعية تأسيساً، يرفدها جميعاً إيمَانٌ راسخٌ بأنّ المستقبلَ لمن يستطيع في زمن الاكتشافاتَ التقنية المذهلة هذا أن يحوّلَ العلمَ إلى واقع، والطموحَ إلى ممكن، والغايات إلى وسائل، بها وحدَها تصبح الممارسة الحقيقة؛ لأنها تُوفِّر لها مقوماتها التي بها تتجلّى عطاءات

(30) أعلام في ذاكرة الشام، عزة آقبيق، ص72، 73.

ملموسة، هي الغايةُ المنشودةُ من وراء استمطار الغمام خيراً للوطن، والشعب، والأمة.

بالأمس مكتبةُ الأسد، واليوم دارُ الأسد للثقافة والفنون، وغداً مدينةُ السينما، ومتحف الفن، وبينَ هذه الشوامخ شوامخُ أخرى هي حلقاتٌ متتابعة، متكاملةٌ، متواصلةٌ في مسيرة النور والتنوير اللذين على هديهما يمضي موكبُنا العربيُّ القوميُّ، مستشرفاً أفقَ الهدف الكبير، في أن نتبوّأ مكانتَنا بالعملِ لا بالقول، وبالعزمِ المَوّارِ بتفاؤلِ الإرادة، لا بالتمني سراباً، يرتجيه الظامئون ماءً ولا ماء. (٣١)

والدكتورة نجاح العطار مثّلت قدوة للمرأة العربية والسورية في دأبها وسعيها للارتقاء بالشأن الثقافي ليكون له الأولوية، لأن الثقافة المدخل الواسع للتنمية المستدامة وبناء الوطن والإنسان.

ثانياً: وإذا ما ذُكرت دمشق فلا بد أن يأتي الذكر على ما قدمته من ظروف مواتية حتى اعتلى فيها شأن العلم واستطالت فيها قامات العلماء من الاختصاصات كافة. فدمشق بمكتباتها ودور العلم فيها وتوفر المدرسين والعلماء الأكفاء قدّمت الشرط لانطلاق العلماء في مجالات الطب والفلك وعلم النبات والكيمياء وسواها من العلوم.

علماء دمشقيون

ـ ولعلَّ من أهمّ الدمشقيين الذين أثّروا في أطباء الغرب، ولهم مخطوطاتٌ في مكتبة الأسد الوطنية الطبيبَ الدمشقيّ «ابنَ النفيس» الذي لُقّب بعبقريِّ الطبِّ العربيّ، وبمكتشفِ الدورة الدمويّة.

هو علي بن أبي الحزم، علاء الدين، أبو الحسن، القَرَشيّ، الدمشقيّ، المصريّ، الشافعي، لُقِّب بألقاب عدّة منها: ابن النفيس، وهذا لقب عائلته، ولُقّب بابن سينا الثاني؛ وذلك لحبِّه له ولولعه بكتبه.

ولد عام ٦٠٧هـ/١٢١١م في قرية صغيرة قربَ دمشق تدعى قَرَش، بفتح القاف وسكون الراء، وكانت خارجَ أسوارِ المدينة، وهي اليوم جزءٌ صغير من حيِّ الميدان في دمشق، وفيه زقاق ما زال ــ حتى اليوم ــ يدعى زقاق القَرَشي، وتوفّي في مصر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م. (٣٢)

أساتذته:

تتلمذ في الطب على يد (مهذب الدين الدخوار) في البيمارستان النوري، وبرع في أكثر العلوم كالنحو والمنطق والعلوم العقلية والفقه والأصول.

وعمل في البيمارستان النوري، ثم أسس شيخُه في الطب (مهذب الدين الداخور) أول مدرسة طبية في بلاد الشام تُدعى الداخورية عام ٦٢١هـ، واستمرَّت قرناً من الزمن، وكان لها دور كبير في منهجه، وطريقته العلمية.

كما درس كتب جالينوس، وكانت دراسته لكتبه دراسة نقدية واعية، إذ كان يحكّم عقلَه ومنطقه، ويشكك في صحة ما يدرسه، فهو قد انتقد جالينوس، وصحّح خطأه بشأن الدورة

(31) الفن إبداع في سرّه الأعلى يكتب الوجود، نجاح العطار، ص181، 182.
(32) ابن النفيس الدمشقي، علي القيّم، ص 29.

الدموية الصغرى، وهو أول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية.([33])

مؤلفاته في مكتبة الأسد الوطنية:

- الشامل في الصناعة الطبية، تحقيق: يوسف زيدان، المجمع الثقافي في أبو ظبي.
- شرح فصول ابقراط، تحقيق: يوسف زيدان، دار العلوم العربية، ١٩٨٨م.
- المهذب في الكحل المجرب، تحقيق: محمد ظافر الوفائي، ومحمد قلعجي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ١٩٨٨م.
- الموجز في الطب، تحقيق: عبد الكريم العذباوي، وزارة الأوقاف، ١٩٨٦م.

وقد أقامت وزارة الثقافة بالتعاون مع وزارة الصحة في مكتبة الأسد الوطنية بتاريخ ٢٠١٩/٤/٢٣م احتفالية بالذكرى السبعمائة والخمسين على نبوغ العالم والفيلسوف ابن النفيس بعنوان: ابن النفيس عالماً ومبدعاً.

وذلك ضمن احتفاليات الذكرى العالمية لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم اليونيسكو.

- ومن علماء الفلك الدمشقيين الذين أثّروا في الحضارة العربية، ولهم مخطوطات في المكتبة «ابن الشاطر» وهو عالمٌ دمشقيٌّ من كبار علماء الفلك، هو عليّ بن إبراهيم بن محمّد الأنصاري، أبو الحسن، علاء الدين، وُلد عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م في دمشق، وقد عاش مع جدِّه بعد وفاة أبيه وهو في السادسة من عمره، علّمه زوجُ خالته تطعيمَ العاج، ومنه اكتسب كنيتَه المطعّم لإبداعَه في تطعيم الخشب بالعاج، وجمعَ ثروةً كبيرةً من هذه المهنة، فاستغلّها في التنقل بين الأمصار لتعلّم الرياضيات والفلك، إذ رحل إلى مكةَ، ومصرَ، والحجاز، واليمن، وفلسطين، وتلقّى مختلفَ العلوم عن جماعة من العلماء، ومنها: علوم الحديث، والقراءات، واللغةَ، والفقه، والأصول.

قرأ علىَ (علي بن إبراهيم بن يوسف) وكان يُعرف بابن الشاطر، فسُمِّي هو بذلك، ثم عادَ إلى دمشق، وقضى معظمَ حياته في وظيفة التوقيت، ورئاسة المؤذنين في الجامع الأمويّ بدمشق، وصنع ساعةً شمسيةً لضبطَ وقت الصلاة المعروفة باسمَ المزولة، وضعها في مئذنة العروس بالجامع الأمويّ، وصحّحَ نظريةَ (بطليموس) القائلة بأن الأرضَ هي مركزُ المجموعة الشمسية، ونشر ذلك في كتابه: (نهاية السُّول في تصحيح الأصول)، واخترع جهازاً لحفظ الوقت سمَّاه (صندوق الياقوت)، ومن الأجهزة المهمّة التي اخترعها «الإسطرلاب»، وصحّح المزاولَ الشمسيةَ التي بقيت متداولةً لعدّة قرون، وفي خمسينيات القرن الماضي تحقّقَ العلماءُ الأوربيون من صحّة نظريته الكوكبية، تلكَ التي سبق من خلالها نظريةَ العالم البولنديّ (نيكولاس كوبرنيكوس) بنحوَ مئتينِ وخمسين عاماً، واكتُشف في منزل كوبرنيكوس مخطوطات لهذا العالم العربي أثبتت أنَّ له باعاً كبيراً في علم الفلك.

تميّزَ «ابن الشاطر» عن الفلكيين الذين سبقوه بعدم تمسُّكه بالمبادئ النظرية للفلسفة الطبيعية أو علمِ الكونيّات الأرسطي، بل سعى لإنتاجِ نموذجٍ أكثر توافقاً مع الملاحظاتِ التجريبية

(33) الأعلام، خير الدين الزركلي، (ج270/4، 271).

وعمليات الرصد الفلكيّ، توفي رحمه الله في ١٣٧٥م، ويمكنُ القولُ بأن أعمالَه تمثّلُ نقطةَ تحوّلٍ في علم الفلك، وهو عالمٌ قلَّ نظيره في القرنِ الرابعِ عشر الميلادي.([٣٤])

قالَ عنه «بورتريه»:

(فلكيّ العرب الذي ألهم النهضة الأوربية).

ويشار بالبنان إلى «ابن الشاطر» كونه صاحب مؤلفات تقوم على مرجعيّة علميّة صحيحة.

ومن هذه المؤلفات المخطوطة الموجودة في المكتبة:

- الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة، برقم: ١٦٥٠٤ت من [١ ← ٢٠].
- جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيارة، برقم ١٤٦١٥ت٢ من [٢٢ ← ٣٢].
- الربع التام لمواقيت الإسلام، برقم: ٣٠٩٨ت١١ [٤٤ ← ١٤٧].
- رسالة في الإسطرلاب، برقم ٩٢٣٦، ١١ ورقة.
- رسالة في العمل بالربع المجيب، برقم: ٣٨٨٣ت٣ من [٥٦ ← ٦٠].
- الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات، برقم: ١٤٦١٩ت١ من [٧٠ ← ٩٢].
- زيج ابن الشاطر، برقم: ١٦٤٥٠، ١٦٩ ورقة.
- نزهة السامع في العمل الجامع، برقم: ٣٠٩٨ت١٠ من [٢٩ ← ٤٤].

ويوجد في المكتبة أطروحةُ ماجستير أعدتها «نغم مشارقة» حققت فيها زيجَ «ابن الشاطر».

وقد أقامتْ مكتبةُ الأسد ندوةً حول هذا العالم تناولتْ إسهاماته العلميّةَ ضمنَ فعّاليات احتفالية أيام الثقافة السوريّة في ٢٥/نوفمبر/٢٠٢٠م، شَاركَ فيها رئيسُ الجمعية الفلكيّة الدكتوَر «محمدَ العصَيري»، والدكتور «مختار الطنطاوي» والمهندس «خالد العلبي».

ثالثاً: تتوفرُ في مكتبة الأسد موادّ ثقافية كثيرة، فيها سطورٌ مضيئةٌ عن عروس الخلود وَرَحم الحضارة دمشق، منها كتبٌ في موضوعات تتناول التراث الماديّ واللامادِيّ، اخترت بعضاً منهاَ على أنها غَيض من فيض، وليست على سبيل الحصر وفقاً لما رأيته مُهِمّاً بالنسبة لموضوع البحث:

الآثار

١. اكتشافات مثيرة تغير تاريخ دمشق القديم ١٩٧٠م: أحمد غسان سبانو، (دراسات ووثائق دمشق الشام)، دار قتيبة، ١٩٧٠م

٢ ـ حوضة دمشق في العصر الحجري الحديث والنحاسي: هبة عاصي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٦م.

٣ ـ دمشق الأسطورة والتاريخ من ذاكرة الحجر إلى ذاكرة البشر: الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة، ٢٠٠٨م.

٤ ـ دمشق الشام: جان سوفاجيه، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م.

٥ ـ دمشق القديمة: واين بيتارد، دار الشرق، ٢٠٠٨م.

٦ ـ كنيس دورا أوروبوس في المتحف الوطني بدمشق: زهدي بدير، مطبوعات المديرية العامة

(34) صحيفة صدى البلد (صحيفة إلكترونية)، مصر، رئيس تحريرها: أحمد صبري، تاريخ: 6/يناير/2021م.

الصفحة السادسة عشرة — عدد السائح الممتاز لسنة ١٩٣٢

الرابطة الادبية في دمشق

فئة من اخوة الرابطة الادبية في دمشق

اسماء الجلوس – من يمين الناظر
(١) سليم الجندي . (٢) الشماس ابيفانيوس زائد (من لجنة النقد) . (٣) خليل مردم بك (رئيس الرابطة الادبية) . (٤) محمد الشريقي (نائب الرئيس)
اسماء الوقوف – من يمين الناظر
(١) عبدالله ليجار (الكاتب الخارجي) . (٢) احمد شاكر الكرمي (من لجنتي الانشاء والنقد) . (٣) حليم دموس (من لجنة الانشاء) . (٤) عز الدين علم الدين (من لجنتي الانشاء والنقد)
المحرر – يرى القارىء لكل من هؤلاء الادباء في ما يلي من الصفحات الاربع شيئا من المنثور او المنظوم ما عدا حليم دموس فقد ارسلت الينا الرابطة الادبية قصيدة من نظمه بعنوان «كل معيداه» نظم بها مقالة بنفس العنوان للآنسة «مي» ظهرت في مجلة الهلال فلم تنشرها لان الرصيفات في سوريا سبقتنا الى نشرها وهذا العدد الممتاز لا يحمل الا الجديد كما ينتظر طلابه

للآثار والمتاحف، ١٩٦٦م.
٧ ـ لمحة عن السرج القديمة ونماذجها في المتحف الوطني بدمشق: زهدي بدير، ١٩٧٤م.
٨ ـ المتحف الوطني بدمشق: محمد أبو الفرج العش، دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٦٩م.
٩ ـ مشروع ترميم الباب الشرقي: عدنان المفتي، ١٩٦٦م.
١٠ ـ النيوليتي ما قبل الفخار في منطقة دمشق: عادلة طالبي، ١٩٩٩م.

الأديرة والكنائس

١ ـ أديرة وكنائس دمشق وريفها : متري هاجي أثناسيو، دمشق، ٢٠٠٥م.
٢ ـ كنائس حي الميدان: متري هاجي أثناسيو ٢٠٠٤م.

تحت ظلال الارز

ماري عجمي

BAJO LA SOMBRA DEL CEDRO

Traducció ncastellana de:
A. IAMAME CHARIFE

Texto original en árabe de:
MARY AYAMI

¡Oh Cedro del Líbano, extraordinario Rey de los Arbustos!

¡Magnífico sería que tu firme trono se elevara por sobre las nubes en un reinado imperecedero, sin lugar a otros reinados!

Hacia tí, se inclinan respetuosamente las florecillas del valle y te sonríen las perlas de Kadisha que, con su resplandeciente blancura, desdan por tu amor, a las estrellas.

Sus cataratas corren limpidas y cristalinamente entre praderas cuál escalones multicolores de un altar, donde se entonan salmos de veneración a tu altura y se

raron bajo tu sombra, el desvanecimiento de la juventud.

Déjame exclamar ¡Dios bendiga al Cedro! pilar de los tronos y de la gloria.

Me gustaría ser ave, para saltar sobre cada una de sus ramas. Me gustaría ser poetisa, para componer para tí, de cada verso y de cada término, perlas y collares.

يا ارز لبنان، وملك النبات فرادتهم ربك غبطة ! حبذا لو كنت طيرا، اذن

المهيب! ما اعظم ان يسمو فوق كم من راس يبعث شعره لرقصت ايها الارز على كل

العمام عرشك الوطيد وان السنون بكى تحت ظلالك فمن من اقدانك !

يدوم لك الملك ولم يبق لملك زوال شابه !: حبذا لو كنت شاعرة، اذن

سوددا ! دعني اهتف: حي الله الارز لنظمت لك من كل قافية ومعنى

ترتو اليك قوافي الوادي عند الاراك والامجد ! درا وعقودا !

الأسواق

١ـ أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية: قتيبة الشهابي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.

٢ـ الأسواق في مدينة دمشق ودورها الاقتصادي من ١٨٤٠ ـ ١٩١٨م، نايف الجباعي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٩م.

الأمثال الشعبية والفلكلور

١ ـ أجمل الزغاريد الشامية والعراضات الشعبية: محمد أبو قاسم، دمشق، سورية: الدار المركزية، ٢٠١٠م.

٢ ـ أمثال دمشق الشعبية: مطيع المرابط ـ دمشق، سورية: وزارة الثقافة، ١٩٩٥م.

٣ ـ الأمثال العامية الشاميّة: جمع: يسار عبيد، دمشق، سورية: المكتبة العربية، ١٩٨٥م.

٤ ـ حكايات حارات شاميّة: سناء فوزي الموالدي، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م.

٥ ـ الحكي ما عليه جمرك: ثريا يعقوبي، دمشق: دار الينابيع، دمشق، سورية: دار الينابيع، ٢٠١٩م.

٦ ـ زغاريد وأمثال وعراضات شامية: محيي الدين قيروط، ١٩٩٤م.

٧ ـ طيب الكلام: وفيق الزعيم، دار الفكر، ٢٠١١م.

٨ ـ المرأة في المثل الشعبي الشامي: منير كيال، ٢٠٠٢م.

الأنساب

١ ـ آل الرجولة في سجلات مركز الوثائق التاريخية بدمشق: ٣ أجزاء، فواز الرجولة، دمشق: ٢٠١٠م.

٢ ـ أسرة بني القدسي الحسيني بمدينة دمشق: محمد فخري القدسي، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م.

٣ ـ حوار علمي مع فضيلة الشيخ عبد الكريم الحمزاوي نقيب السادة الأشراف بالإجازة بدمشق حول علم الأنساب: عبد الكريم الرفاعي، حوار: أحمد محمود الرفاعي، مركز علوم الحديث النبوي، ٢٠٠٥م.

٤ ـ دراسة عن تاريخ أسرة الصواف والمهايني في مدينة دمشق: محمد شريف الصواف، ط٢، ١٩٩٨م.

٥ ـ دليل العائلات الدمشقيّة: محمد خير إسماعيل، ٢٠٠١م.

٦ ـ العائلات الدمشقية في سجلات المحاكم الشرعية العثمانية بدمشق: هاني عمر سكرية، المشرق للكتاب، ٢٠١١م.

٧ ـ في ربوع دمشق: فواز الرجولة، ٢٠٠٩م.

٨ ـ منتخبات من تاريخ نقابة الأشراف والطالبين وذلك بترجمة مَن تولاها من آل الحمزاوي الدمشقيين: بسام عبد الكريم الحمزاوي، ١٩٩٨م.

٩ ـ منظومة في نسب آل الحمزاوي الدمشقيين: محمد نسيب الحمزاوي، ٢٠٠٢م.

١٠ ـ موسوعة شجرة آل حيبا في حي برزة (أم دمشق): محدوب إبراهيم حيبا، ٢٠٠٩م.

التاريخ

١ ـ تاريخ مدينة دمشق ومن حكمها من الملوك والأمراء والرؤساء: خليل طيبا، دار اقرأ، ٢٠٠٨م.

٢ ـ حوادث دمشق اليوميّة ١١٥٤ – ١١٧٥هـ: أحمد البديري، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩م.

٣ ـ دمشق الأسرار: نصر الدين بحرة، دار طلاس، ٢٠٠١م.

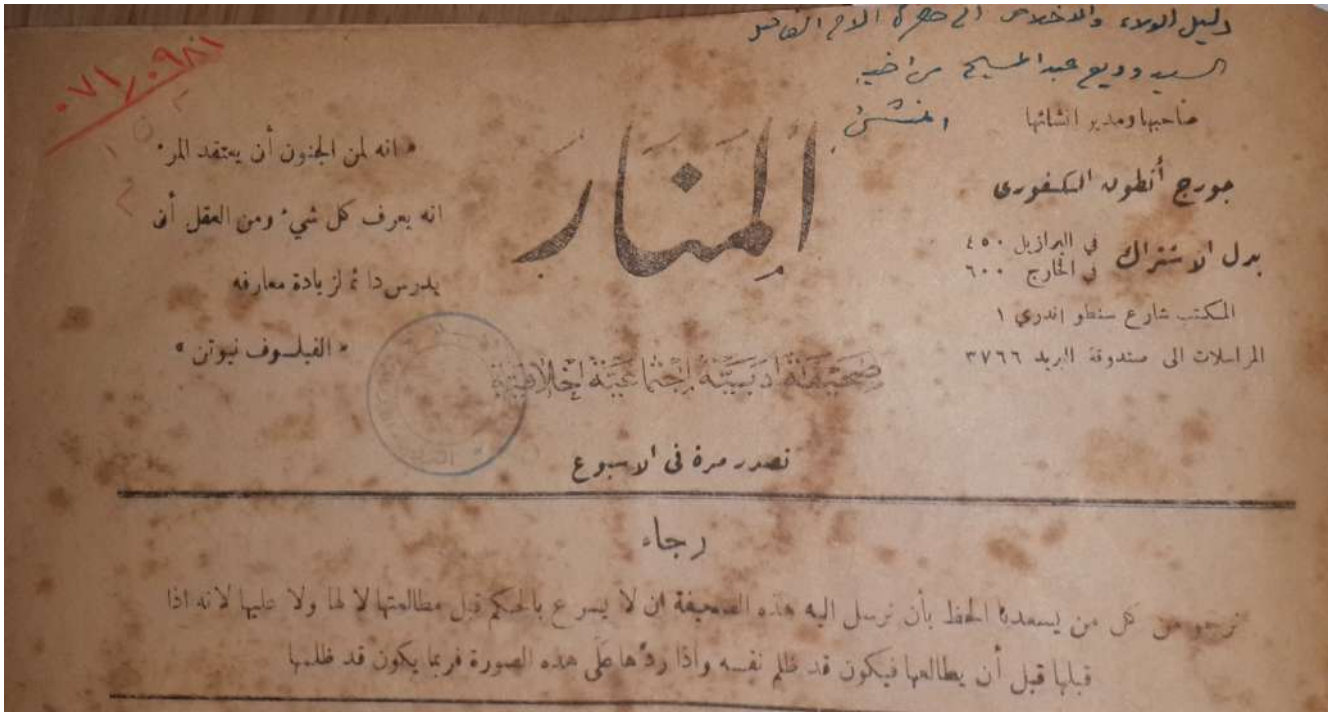

٤ ـ الزيارات بدمشق: محمود الزوكاري، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م.
٥ ـ ساحة المرجة ومجاوراتها في دمشق بين الأمس واليوم: قتيبة الشهابي، الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة، ٢٠٠٨م.
٦ ـ الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية: ابن طولون، مكتبة القدس، ١٩٢٩م.
٧ ـ صور وطرائف من مجتمع دمشق، هاني الخير، ١٩٩١م.
٨ ـ قصر أسعد باشا العظم بدمشق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكشاف، ١٩٤٧م.
٩ ـ قصور الحكام بدمشق: عبد القادر الريحاوي، ١٩٧٢م.
١٠ ـ هؤلاء حكموا دمشق: سليمان المدني المنارة، ٢٠٠٠م.

التراجم

١ ـ أوراق فارس الخوري: فارس الخوري. دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨م.
٢ ـ الباشات والقضاة والوزراء الذين حكموا دمشق، ولاة دمشق في العهد العثماني: تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩م.
٣ ـ تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب: خليل الصفدي، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩١م.
٤ ـ ترجمة الشيخ بدر الدين الحسني: محمود العطار، دار البشائر، ٢٠٠٨م.
٥ ـ صفحات من حياة عميد الكتلة الوطنية دولة جميل مردم بك: تميم مأمون مردم بك، دمشق: دار طلاس، ٢٠١٠م.
٦ ـ عائشة الباعونية الدمشقية: فارس أحمد العلاوي، دار معد، ١٩٩٤م.

٧ ـ معجم الشعراء من تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، المعروف بابن عساكر، دار الفكر، ١٩٩٩م.
٨ ـ ولاة دمشق في العهد السلجوقي: ابن عساكر، دار الكتاب الجديد، ١٩٨١م.
٩ ـ ولاة دمشق في عهد المماليك: محمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية ١٩٦٤م.
١٠ـ يوحنا الدمشقي: كمال اليازجي، بيروت: منشورات النور، ١٩٨٤م.

جغرافية وسياحة

١ـ عنوان الفيحاء (دراسة في تكوين مدينة دمشق)، عفيف بهنسي، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م.
٢ ـ إسهام الإرث الحضاري لدمشق في السياحة ودور اليونسكو: إبراهيم ترسيسي.
٣ ـ دمشق الحياة: معتز شريف جبر، سارة أحمد بدران، إشراف: فاتنة الشعال، جامعة دمشق، ٢٠١٧م.
٤ ـ دمشق يا عروس الشام: سعاد مهنا مكارم، دار حوران، ١٩٩٩م.
٥ ـ روائع التراث في دمشق: عبد القادر الريحاوي، دار التكوين، ٢٠٠٥م.
٦ ـ السياحة التاريخية في مدينة دمشق ودورها الاقتصادي: صفاء كامل عمار.
٧ ـ السياحة المستدامة في مدينة دمشق وآفاقها المستقبلية: رنا موصلي، إشراف: عدنان سليمان عطية.
٨ ـ السياحة والعمران في دمشق: فريد رجب منان، إشراف: عدنان عطية.
٩ ـ غوطة دمشق: سارة محمد بلال، إشراف: شاهر آغا.
١٠ـ مدينة دمشق: صفوح خير، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٢م.
١١ ـ وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس: زكريا القزويني، أحمد الإيبش، ١٩٨٣م.
١٢ ــ دراسة جغرافية حول السياحة في مدينة دمشق: محمد سلوم.

صناعة واقتصاد

١ـ قاموس الصناعات الشاميّة، محمد سعيد القاسمي، تحقيق: ظافر القاسمي.

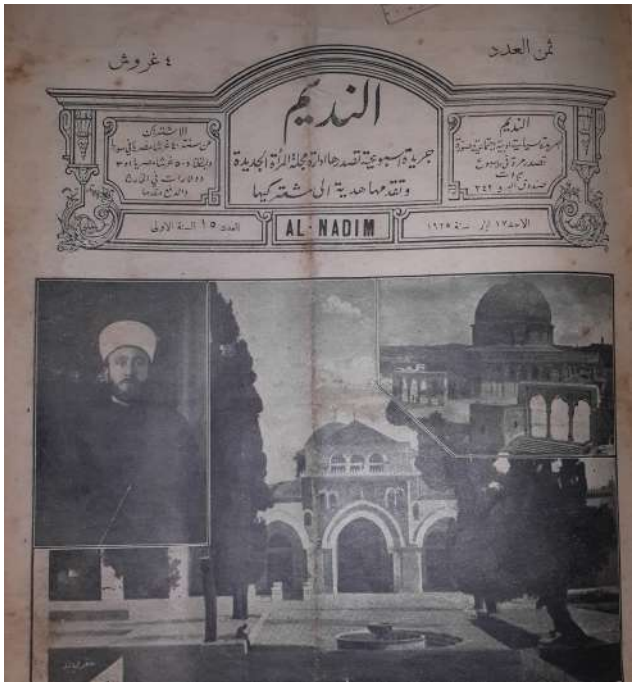

٢. الصناعات الجلدية في مدينة دمشق: فاطمة محمد لإبراهيم.
٣. الصناعات الغذائية في مدينة دمشق: يوسف صالح نمر.

المطبخ الدمشقي

١ ـ أشهى المأكولات الشامية: نور حسام الدين، القاهرة: المركز العربي، ١٩٩٥م.
٢ ـ أشهى المأكولات الشامية: هبة عبيد، الأردن: دار عالم الثقافة، ٢٠٠٣م.
٣ ـ الدليل للطبخ الشامي الأصيل: ديالا أبو شعر، دار السعد، ٢٠٠٩م.
٤ ـ مآكل سيدة البيت الدمشقي من السلف إلى الخلف: منير كيال، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م.
٥ ـ المطبخ الدمشقي عبر العصور: مها العطار، ٢٠٠٢م.
٦ ـ المطبخ الشامي: رهيدة الجابي، دار المعرفة، ١٩٨٩م.
٧ ـ ولائم الشام: الشركة الشرقية للمطبوعات، ١٩٩٥م.

العادات والتقاليد والحرف التقليدية

١ ـ الأصناف والطوائف الحرفية في مدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر: عيسى سليمان أبو سليم، عمان، الأردن: دار الفكر، ٢٠٠٠م.
٢ ـ أضواء على قاموس الصناعات الشامية: بدر الدين السباعي، دمشق: دار الجماهير الشعبية، ١٩٧٧م.
٣ ـ التربية الشعبية في مدينة دمشق: قصيباتي شحرور، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٩م.
٤ ـ تقاليد الزواج الدمشقي: عدنان العطار، دار سعد الدين، ١٩٩١م.
٥ ـ التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود: فراس سليم حياوي، ٢٠٠٤م.
٦ ـ ثقافة الترفيه والمدنية العربية في الأزمنة الحديثة: مهند مبيضين، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٩م.
٧ ـ حديث دمشقي ١٨٨٤ ـ ١٩٨٣: نجاة قصاب حسن، دار طلاس، ١٩٨٨م.
٨ ـ الحرف الدمشقية وإسهامها في تفعيل السياحة والاقتصاد: حسام يحيى المذري، لبنان:

برق
جريدة يومية سياسية قومية
صاحبا الجريدة: جورج فارس و منير الريس
السنة الاولى ، العدد
ثمن العدد ١٥ قرشاً
مدير الشؤون الادارية
جورج فارس
الاشتراك
سوريا ولبنان ٢٥ ليرة
في سائر الاقطار العربية :
في البلاد الاجنبية :
الاعلانات
يتفق عليها مع الادار
٢٩ كانون الاول ١٩٤٥
رئيس التحرير
منير الريس
ة الجريدة ومطبعتها
: ٢٧٨ ، شارع الشهداء
وق البريد : ٣٥٠
تلفون ١٤-٢٢
والرسائل لاترد لاصحابها
رت او لم تنشر

الجامعة اللبنانية، رسالة ماجستير، ٢٠١٩م.
٩ ـ الحرفة الشامية والتراث الشعبي الشفاهي: محمد خالد رمضان، دمشق: مديرية التراث الشعبي، ٢٠٠٩م.
١٠ ـ دفاتر شامية عتيقة: أحمد إيبش، دمشق: دار قتيبة.
١١ ـ دكاكين وبياعين زمان: خلدون شيشكلي، دمشق: دار البشائر، ٢٠٠٦م.
١٢ ـ زقاقيات دمشقية: سعاد جروس، رياض الريس، ٢٠١١م.
١٣ ـ السيران الدمشقي: محمد خالد رمضان، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.
١٤ ـ العرس الدمشقي وأغنياته وأهازيجه بين الماضي والحاضر: ازدهار تيسير سرو، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٦م.

علوم اجتماعية (السكان والخدمات الاجتماعية)

١ ـ بيمارستان نور الدين: صلاح الدين المنجد، ١٩٤٦م.
٢ ـ البيمارستانات في دمشق: إلهام محفوض، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ٢٠١٠م.
٣ ـ التخطيط العمراني في ضوء تحديّات الأمن الاجتماعي في مدينة دمشق: إبراهيم عربش، إشراف: بهاء الدين تركية، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠١٨م.
٤ ـ تطوّر البنية الحضرية في دمشق (المنطقة الصناعية نموذجاً)، إعداد: يوسف أبو عبد الله، إشراف أسامة قدور، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠١٩م.
٥ ـ تغيّرات البنية الوظيفية في حي المزة الشرقيّة في مدينة دمشق، إعداد: براءة خالد

الزعتري، إشراف: فيصل عزام قماش، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠٢٠م.
٦ ـ حي القيمرية في مدينة دمشق القديمة واقعه وآفاق تطويره: لينة عزيزتلي، إشراف: أسامة قدور، جامعة دمشق، ٢٠٢٢م. رسالة ماجستير.
٧ ـ حياة دمشق الاجتماعية: خيرية قاسمية، ٢٠٠٠م.
٨ ـ دمشق في الأربعينات وعبر القرون: نصر الدين البحرة، دار البشائر، ٢٠٠٢م.
٩ ـ دمشق والمجتمع الدمشقي، محمد أحمد الخطيب، دار ابن خلدون، ١٩٨٥م.
١٠ ـ مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ ـ ١٢٥٦هـ/١٧٧٢ ـ ١٨٤٠م: يوسف جميل نعيسة، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٦م.

العمارة

ـ جداريات الجامع الأموي بدمشق: إحسان الرباعي.
ـ دمشق القديمة وكنوزها الدفينة: بريجيت كنان، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.
ـ دمشق المدينة العربية المتجددة الشباب: بشير زهدي، دار الفرقد، ٢٠٠٩م.
ـ زخارف العمارة الإسلامية في دمشق: قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م.
ـ قلعة دمشق: هزار عمران، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٨م.
ـ كنوز العمارة الدمشقية: فلادا ميلنيك، دار الشرق.
ـ مآذن دمشق تاريخ وطراز: قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، ١٩٩٣م.

الفنون

١ ـ خزف دمشق الإسلامي: منى المؤذن، المديرية العامة للآثار والمتاحف٢٠١٣م.
٢ ـ دمشق القديمة وكنوزها الدفينة: بريجيت كنان، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.
٣ ـ الزجاج المملوكي الدمشقي (من القرن ٧ ـ ١٠هـ/١٣ ـ ١٦م): حنين شاهين دويعر، دمشق، ٢٠٢٠م. أطروحة.
٤ ـ الزخارف والألوان في ملابس أهل الشام: لطفي فؤاد لطفي دمشق: ٢٠١١م.
٥ ـ الفسيفساء السورية والمعتقدات الدينية القديمة والميثولوجيا: خليل المقداد، المديرية العامة للآثار والمتاحف ٢٠٠٨م.
٦ ـ القاشاني الدمشقي: عفيف بهنسي، دمشق ٢٠٠٠م.
٧ ـ كنائس حي الميدان: متري هاجي أثناسيو، ٢٠٠٤م.
٨ ـ المسكوكات النقدية السورية منذ الأصول وحتى الفتوحات العربية الإسلامية: خليل المقداد، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٧م.
٩ ـ المشاهد الأسطورية في الفسيفساء السورية خلال العصر الروماني: أسامة سعيد نوفل. رسالة ماجستير.

١٠ ـ نقود الشام: قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة ٢٠٠٠م.

المدارس والتربية

١ ـ الإعلانات في معرفة الخانات: ابن المبرد، لبنان. دار ابن كثير، ١٩٨٨ .

٢ ـ التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني: محمد إبراهيم الحوراني، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥ .

٣ ـ دور القرآن في دمشق: عبد القادر النعيمي، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٧٣ .

٤ ـ مدارس دمشق في العصر الأيوبي: حسن شميساني، دار الآفاق الجديد، ١٩٨٣ .

٥ ـ مدارس دمشق ورُبُطها وجوامعها : تحقيق: محمد دهمان. مكتبة الدراسات الإسلامية، ١٩٤٧م

٦ ـ المدارس المملوكية في دمشق: وفاء بدر صارم، دمشق. رسالة دكتوراه.

٧ ـ المدرسة العادلية الكبرى: محمد أحمد دهمان. مكتب الدراسات الإسلامية، ١٩٥٣م

٨ ـ المشيدات التعليمية في حي الصالحية بدمشق ـ شارع المدارس ـ القرن ٦ ـ ١٠هـ: مجد يوسف المنصور، ٢٠١٨، رسالة ماجستير.

٩ ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، ١٩٥٠م.

النثر الأدبي وأدب الرحلات

١ ـ دمشق يا عروس الشام: سعاد مهنا، دار حوران، ١٩٩٩م.

٢ ـ دمشق الأسرار: نصر الدين البحرة، دار طلاس، ٢٠٠١م.

المجلات

هناك تنوعٌ كبيرٌ في المجلات الدمشقية، وهذا التنوّعُ في العناوين يشير إلى المكانة السياسيّة والأدبيّة لدمشق، وإلى دورها العلميِّ الرائد، فالمجلات العلميّة والتخصصيّة المختلفةَ إنما تدلُّ على ثراء الحياة فيها، وعلى العقولِ النيّرةِ التي كتبتها. والأقلامِ الواعدة التي بشّرتْ بمداها بقيام النهضة العربية.

إنَّ المجلات الثقافيّة تشيرُ إلى البيئة الثقافية الغنية، وشموليتها، وتجذّرها، وسعيها نحو

التحديث.

ونورد جدولاً بأهم المجلات السوريّة التي صدرت منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى ستينيات القرن العشرين، والموجود في أرشيف المكتبة.

الصحف

أما الصُّحُفُ فهي لسانُ حالِ الواقعِ السياسيِّ والاجتماعيّ، وقد كانت من التنوّعِ والغنى ما يثير الفضول.

وهذا يؤكد على وجود مناخات ملائمة للإبداع، ووجود الإنسان المتمسك بقضيته، والسَّاعي نحو البناء والتقدم، والمؤمَن بدورِ الفكرِ والثقافة في عمليّة تشكيل الوعيِ الاجتماعي، ولاسيما بعد عهودَ الاستبداد العثمانيّ، والاحتلالَ الغربيّ.

لقد كانَت الصِّحَافةُ السوريةُ منبراً للأقلامِ العربيّة، ولنخبةٍ من مفكري الأمّةِ الذين يأملونَ بمستقبلٍ مشرق.

ولا يغيبُ عن الأذهان غنى حركة الطِّباعة والنّشر، التي هي دليلٌ على وجودِ نُخَبٍ ثقافيّةٍ وفكريّة تتعاملُ مع هذه المطبوعات، وتُقبلُ علَى اقتنائها وقراءتها.

ونورد جدولاً بأهم الصحف السوريّة التي صدرت مَنذ أواخر القرن التاسع عشر إلى ستينيات القرن العشرين، والموجود في أرشيف المكتبة.

مختارات من الدوريّات (المجلات)

ت	العنوان	النوع	البلد	اللغة	التواتر	سنة الصدور	الجهة المسؤولة	أول عدد متوفر لدينا	الموضوع
١	القانون الأساسي	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٨٩٨	جمعية الاتحاد والترقي العثمانية		
٢	المقتبس(القبس-الأمة-بريد الشرق)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٠٨	نجيب الريس -أحمد كرد علي		
٣	المقتبس+القبس	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٠٨	محمد كرد علي	١٩٠٨	سياسي
٤	فتى العرب	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩١٧	معروف أرناؤوط	١٩٢٣	إخباري
٥	journal officiel de la republique syrienne	جريدة	دمشق	فرنسية	شهري	١٩١٨	وزارة المالية	١٩٣٨	قرارات حكومية
٦	الجريدة الرسمية السورية العاصمة	جريدة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩١٩	المخابرات العامة	١٩١٩	قرارات حكومية
٧	المفيد	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩١٩	يوسف حيدر - خير الدين الزركلي	١٩١٩	إخباري
٨	ألف باء	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩١٩	يوسف العبيسي	١٩٢٢	سياسي
٩	العمران	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٢٠	إلياس قوزما	١٩٢١	سياسي
١٠	الأنوار	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٢	يوسف الحاج	١٩٢٢	سياسي
١١	الاستقلال	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٢٣	راغب عثماني	١٩٢٧	سياسي
١٢	الفيحاء	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٢٣	قاسم الهيماني	١٩٢٣	منوع
١٣	الميزان	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٥	أحمد شاكر الكرمي	١٩٢٥	أدبي
١٤	الأصمعي	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٢٦	يوسف العيسى	١٩٢٦	منوع
١٥	التعاضد	جريدة	دمشق	عربية	ثلاث مرات أسبوعيا	١٩٢٦	محيي الدين العديوي	١٩٣٠	منوع
١٦	الرأي العام (الرأي)	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٢٦	طه المدور		
١٧	الاستقلال العربي	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٢٧	محمد توفيق جانا	١٩٤١	سياسي
١٨	الحوت	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٢٧	فريد سلام		
١٩	الصباح	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٧	علي الغبرة	١٩٣٢	سياسي
٢٠	النظام	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٢٧	فوزي أمين	١٩٣١	سياسي انتقادي
٢١	الشعب	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٢٧	محمد توفيق جانا	١٩٢٧	سياسي
٢٢	المرصاد (الأمة-المستقبل)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٢٨	عبد الله الأوبري		
٢٣	سورية الجديدة	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٢٨	حبيب كحالة		
٢٤	الناقد	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٠	اديب الصفدي	١٩٣٠	أدبي نقد
٢٥	النشرة الرسمية للجمهورية السورية	جريدة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٣٠	.	١٩٣٠	قرارات حكومية
٢٦	الأيام	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٣١	نصوح بابيل		سياسية اجتماعية
٢٧	الشام	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٣١	خليل المحصل		سياسي

٢٨	برق الشمال	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٣١	نقولا جانجي	١٩٤٧	سياسي
٢٩	LES ECHOS DE DAMAS	جريدة	دمشق	فرنسية	.	١٩٣١	جورج فارس	١٩٣١	سياسي
٣٠	الأيام	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٣٢	جميل مردم بك نصوح بابيل	١٩٣٢	سياسي
٣١	الجزيرة	جريدة	دمشق	عربية	شهرية	١٩٣٢	محمد تيسير ظبيان		
٣٢	لواء الجزيرة	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٣٢	سعيد البحرة	١٩٣٦	سياسي
٣٣	الجريدة الرسمية السورية	جريدة	دمشق	عربية وفرنسية	نصف شهري	١٩٣٣	وزارة المالية	١٩٣٧	قرارات حكومية
٣٤	الضياء	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٣٣	فريد سلام		
٣٥	لسان الأحرار	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٣٣	هاشم خانكان		
٣٦	الكوكب	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٣٤	زهير عسيران		
٣٧	الصرخة	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٣٦	أحمد زكي افيون	١٩٥٤	سياسي
٣٨	الإنشاء	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٣٧	وجيه الحفار	١٩٤٨	سياسي
٣٩	الشاطئ	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٣٧	أمين حداد	١٩٥٥	سياسي انتقادي
٤٠	النضال	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٣٨	سامي كبارة	١٩٤١	سياسي
٤١	LA CHRONIQUE	جريدة	دمشق	فرنسية	.	١٩٣٩	أندريه كيكاتي	١٩٣٩	سياسي
٤٢	الكفاح	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٠	أمين سعيد	١٩٤٠	إخباري
٤٣	الأخبار	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤١	محمد بسيم مراد		سياسية
٤٤	النصر	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٣	وديع صيداوي	١٩٤٨	سياسي
٤٥	الشورى	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤٥	محمود خير الدين الحلبي		
٤٦	بردى	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٥	جورج فارس منير الريس	١٩٤٥	سياسي
٤٧	البعث	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤٦	مكتب البعث العربي	١٩٤٦	سياسي
٤٨	البلد	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٦	إيليا الشاغوري	١٩٥٠	سياسي
٤٩	الرقيب	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٤٦	محمد عثمان الشحرور	١٩٥١	انتقادي
٥٠	المنار	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤٦	بشير العوف		
٥١	اليقظة	جريدة	دمشق	عربية	شهرية	١٩٤٦	أكرم الحوراني		
٥٢	العلم	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٦	عزة حصرية	١٩٤٦	سياسي
٥٣	الحضارة	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٤٧	فهمي المحايري	١٩٥٠	سياسي
٥٤	النضال	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤٧	صبري القباني		
٥٥	الفيحاء	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٤٨	سعيد التلاوي		
٥٦	الشعب (لسان الشعب)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٤٩	عادل قريها		سياسية
٥٧	العمال	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٤٩	.	١٩٥٣	إخباري
٥٨	النقاد	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٤٩	يحيى الشريف	١٩٤٩	سياسي
٥٩	الجيل الجديد	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٠	عصام محايري		
٦٠	المساء	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٠	بشير العوف	١٩٥٠	سياسي
٦١	الاشتراكية	جريدة	دمشق	عربية	اسبوعية	١٩٥١	الحزب العربي الاشتراكي		
٦٢	دمشق المساء	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥١	نصوح الدوجي		
٦٣	عصا الجنة	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥١	نشأت تغلبي		
٦٤	الأنباء	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٢	سامي كبارة-يوسف العيسى		إخبارية
٦٥	البناء (البناء الجديد)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٢	فهمي المحايري		

٦٦	الزمان	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٢	نجيب الريس	١٩٥٢	سياسي
٦٧	اللواء	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٢	منير الريس	١٩٥٢	سياسي زراعي
٦٨	النصر الجديد	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٢	وديع صيداوي وبسيم مراد		
٦٩	نداء الوطن	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٥٢	أحمد قدامة	١٩٥٥	سياسي
٧٠	التحرير العربي	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٣	أحمد قدامة		سياسية
٧١	البلاغ	جريدة	دمشق	عربية	شهرية	١٩٥٤	وكالة الأنباء السورية		
٧٢	البيان	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٤	أحمد قدامة	١٩٤٥	سياسي
٧٣	الرأي العام (الرأي)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٤	أحمد عسة		
٧٤	السنا	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٤	عبد الحميد الحلو	١٩٥٥	منوع
٧٥	القبس العلم	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٤	نجيب الريس-عادل كرد علي		
٧٦	المختار	جريدة	دمشق	عربية	.	١٩٥٤	شاكر خردجي	١٩٥٤	منوع
٧٧	الناس	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٤	حسني البرازي-نذيرفضة		
٧٨	صوت العرب	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٤	عبد القادر قواص		
٧٩	الاتحاد السياسي	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٥	حسن عبد العال	١٩٥٥	سياسي
٨٠	الأنباء	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٥	نذير فضة		إخبارية
٨١	الجمهور	جريدة	دمشق	عربية	يومي	١٩٥٥	بشير كعدان	١٩٥٥	سياسي
٨٢	الشام (جريدة الوطن العربي)	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥٥	بكري المرادي	١٩٥٥	إخباري
٨٣	الشهاب	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥٥	محمد علي القباني		
٨٤	أخبار الأسبوع	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥٥	دار البيان		
٨٥	نداء الوطن	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٥	أحمد قدامة		
٨٦	التحرير	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٦	عبد الكريم الدندشي		سياسية
٨٧	الحياة	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥٦	عرفان الأويري		
٨٨	الرأي	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٦	محمد ناجي ضللي		
٨٩	الطليعة (الطليعة العربية)	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٦	عدنان الملوحي		
٩٠	النور	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٧	عبد الباقي الجمالي - الحزب الشيوعي السوري		
٩١	الكفاح	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٨	رياض طه		سياسي
٩٢	الثقافة الأسبوعية	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٥٨	مدحت عكاشة		
٩٣	الجماهير	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٩	جمال أتاسي		
٩٤	الوحدة (الوحدة الكبرى)	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٥٩	سامي الدهان - راتب الحسامي		
٩٥	الصدى العام	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٦٢	أحمد عسة		
٩٦	الثورة	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٦٣	مؤسسة الوحدة	١٩٦٣	سياسي
٩٧	الوحدة العربية	جريدة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٦٣	نزيه الحكيم		
٩٨	صوت الجماهير	جريدة	دمشق	عربية	يومية	١٩٦٣	الحكم دروزة		
٩٩	كفاح العمال الاشتراكي	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعية	١٩٦٨	الاتحاد العام لنقابات العمال		
١٠٠	نضال الفلاحين	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٦٨	الاتحاد العام للفلاحين	١٩٧١	سياسي
١٠١	أنباء موسكو	جريدة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٦٩	اتحاد الجمعيات السوفيتية للصداقة	١٩٨٥	منوع

_ الخاتمة:

إن مكتبة الأسد الوطنية المتربعة في قلب دمشق ستظل تتوهَّج علماً وأدباً ومعرفة، وذلك وفاء للمكان، وعرفاناً بإسهامات دمشق كحاضنة للإبداع والثقافة عبر العصور، وستبقى دمشق قبلة للعطاء والإبداع، وأمام تفردها وجمالها سنبقى ساعين لأن نسلط الضوء على ما خفي من جوهرها وما استتر من فضائلها، فحبُّنا لها يجب أن يدفعنا لإبراز مكامن الإبداع فيها، ويُحتِّم علينا أن نتعاون أفراداً ومؤسسات لكي نصونها برموشنا ونحافظ عليها من عوامل الزمن وانشغال الذاكرة، فدمشق ذاكرة وطن وأمة، ونريدها جميعاً أن تكون عاصمة المستقبل التي تنضح عطاء وكبرياء وسؤدداً.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن النفيس الدمشقي: علي القيّم، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١٥م.
- أديبات عربيات سير ودراسات: عيسى فتوح، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.
- أعلام الأدب العربي المعاصر (سير وسير ذاتية): الأب روبرت ب. كامبل اليسوعي، بيروت، الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٩٦م.
- أعلام الأدب العربي المعاصر (سير وسير ذاتية): اليوسف، شريح، بإشراف: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، المجلد الثاني، ٢٠١٣م.
- أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، دمشق، دار العرّاب، ٢٠٢٠م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.
- الحركة الأدبية في بلاد الشام: عبد النبي اصطيف، الجزء الثاني، إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، ٢٠٠٨م.
- ألفة الإدلبي: محمد العنيزان، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٩م.
- الفن إبداع في سرِّه الأعلى يكتب الوجود : نجاح العطار، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.
- دمشق بيتي الكبير وحكايات في البال: كوليت الخوري، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م.
- دمشق ذاكرة الإنسان والحجر: ناديا خوست، دمشق، دار دانية، ١٩٩٣م.
- دمشق عاصمة ثقافية أبدية: قمر كيلاني، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠م.
- عاشقة في محبرة: غادة السمان، منشورات غادة السمان، ١٩٩٥م.
- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، دمشق، دار الفكر.
- يا مال الشام: سهام ترجمان، ١٩٧٨م.
- صحيفة صدى البلد (صحيفة إلكترونية): مصر، رئيس تحريرها: أحمد صبري ٦/ يناير/ ٢٠٢١م.
- مجلة المعرفة: العدد: /٢٢٨/، تاريخ ١/١/١٩٨١، مقالة بعنوان: شهادات أدبية حول رواية دمشق يا بسمة الحزن.
- مجلة جهينة (مجلة إلكترونية): العدد /٥٧/، تاريخ ١/٢/٢٠١٠م.
- مجلة جنى: تاريخ ١٠/٩/٢٠٢٢م، مقالة بعنوان: مقبولة الشلق صاحبة قلم فتاة قاسيون.
- موقع ويكيبيديا (https://ar.m.wikipedeia.org) دمشق يا بسمة الحزن: فيلم سوري مقتبس عن رواية الكاتبة السورية ألفة الإدلبي التي تحمل الاسم نفسه، تأليف: محمود عبد الواحد، إخراج: ماهر كدو، إنتاج المؤسسة العامة للسينما عام ٢٠٠٨م. وعرض مسلسل بعنوان: بسمة الحزن عام ١٩٩٢م مقتبس من الرواية عام ١٩٨١م.

قراءة نقديَّة لكتاب: دمشق ١٩٠٢م للكاتب ستيبان كوندوروشكين

الدكتور غسان كركوتلي(1)

أ.د عمار محمد النهار(2)

(1) دكتور في العلوم الاقتصادية _ عضو مجلس إدارة الجمعية الجغرافية السورية.
(2) أستاذ في جامعة دمشق، قسم التاريخ، المدير ورئيس التحرير.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث بالنَّقد كتاباً صدر حاليَّاً بعنوان: دمشق ١٩٠٢م، للكاتب ستيبان كوندو روشكين، يتحدَّث فيه الكاتب عمَّا شاهده في دمشق من معالمها وحياة الناس فيها ومناخها، وقد أورد الكاتب خلال ذلك أحكاماً وأوصافاً عن دمشق وأهلها، كثيرٌ منها لا يصحُّ تاريخيّاً، ويُخالف ما كتبه المؤرِّخون والرَّحَّالة الذين زاروا المدينة، فكان لا بدَّ من نقد هذه الأفكار بالأدلَّة الواضحة.

أولاً _ تمهيد وتعريف بالكاتب:

هذا الكتاب من القطع الصغير، في ١٥٩ صفحة، تحدَّث فيه الكاتب عمَّا شاهده في دمشق من معالمها وحياة الناس فيها ومناخها، من غير أن يقف على تفاصيل مُقنعة أو مستوفية للرؤية العلمية المنهجية.

وقبل الدخول في قراءة هذا الكتاب، لا بدَّ من أن نَذكُرَ معلوماتٍ عن الكاتب (ثقافته، عمره، ميوله الدينية والسياسية)، كما ذكرها المترجم.

وُلد ستيبان كوندو روشكين عام ١٨٧٤ في قرية بمقاطعة سمارا شمال روسيا، في أسرة ريفية، ودرس الابتدائية في قريته، ثم انتقل عام ١٨٩١ للدراسة في دار المعلمين، وأصبح مُعلِّماً عام ١٨٩٥ وعمره لا يتجاوز الأحَدَ والعشرين عاماً، وبعد ثلاث سنوات انضمَّ إلى الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية[٣]، ومن خلال هذه الجمعية أُرسل للتعليم في مدارس سوريا عام ١٨٩٨، وحين وصوله تم تعيينه في مدرسة روسية بقرية مشغرة في البقاع الغربي، وكانت تتألَّف من صفٍّ واحد فقط، ثم انتقل لاحقاً للعمل في مدارس روسية أخرى، وفي سنته الخامسة هناك استلم مهمّات مساعد المفتش التربوي للمدارس السورية الجنوبية التابعة للجمعية حتى عام ١٩٠٣.

وبالإضافة لعمل ستيبان كوندو روشكين كمُدرِّس، برز عام ١٨٩٩ ككاتب صحفي وباحث اجتماعي، وكتب أول قصصه وأرسلها إلى مجلة (روسكويه يوغا تسنفو)، وكان موضوعها عن الحياة الاجتماعية في سوريا.

وبعد عودته إلى روسيا انخرط في العمل الكتابي الأدبي، وبدأ بنشر مجموعات قصصية منذ عام ١٩٠٨ بعنوان: قصص سوريَّة، وظهر فيها تبنِّيه وجهةَ النظر الروسية بمواجهة السلطنة العثمانية، ووقع من خلالها في زلَّات استشراقية استعلائية كبيرة، كما يقول المترجم الأستاذ عماد الدين رائف، وظهر وكأنَّه ينظر إلى البلاد وناسها من منظار استشراقي غربي[٤].

(3) وهي جمعية دينية تأسَّست في القدس عام 1882، وحظيت بحماية القيصر الروسي ورعايته.
(4) دمشق 1902: ستيبان كوندو روشكين، ص127.

ومُؤلَّفه (دمشق ١٩٠٢) هو بحث جغرافي تاريخي أنثروبولوجي عن الشام عام ١٩٠٢، نشره في العام التالي (١٩٠٣) مُزوَّداً بالصور التي التقطها بنفسه، وكان عمره وقتها ثمانية وعشرين عاماً، وغابت الترجمة العربية للكتاب حتى ترجمه حالياً عماد الدين رائف.

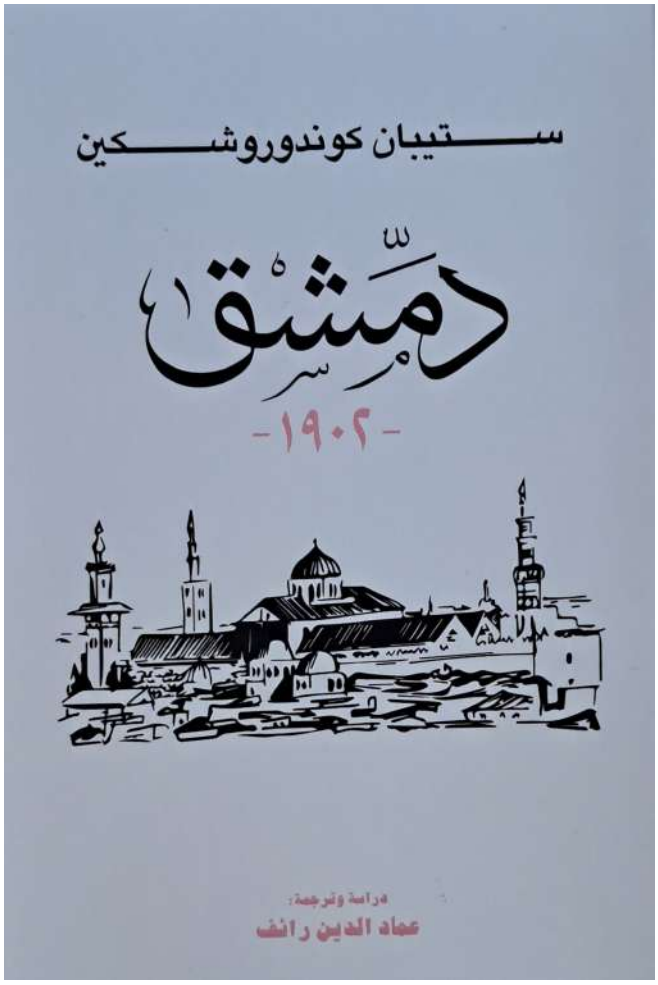

غلاف كتاب: دمشق ١٩٠٢

ثانياً ـ لمحة تاريخية خاطفة:

استهلَّ ستيبان كوندو روشكين كتابه بتمهيد تاريخي سريع وغير واف، ويظهر أنَّه أراد من ذلك تمرير معلومة مُعيَّنة، فأشار إلى أنَّ مدينة دمشق تتمتَّع بتاريخ عظيم منذ العصر الآرامي، وأنَّ سكانها وسكان سوريا الآراميين يُنسبون لإلهم (حدد)، ويُسميه هو: ابن هدد[٥]، وكان مرجعه في ذلك التَّوراة من سفر أرميا، ومن خلاله تنبَّأ بحرق مدينة دمشق لمَّا قال: «أشعل ناراً في سور دمشق، فتأكل كل قصور ابن هدد»، وغمز في الوقت نفسه إلى أنَّ الآراميين كانوا مُعاصرين لـ (المملكة العبرية ـ يهوذا وإسرائيل)!![٦].

وينطبق على ستيبان ما تقوله العرب: رمتني بدائها وانسلَّت، إذا رمى كلمة ومشى كما نقول، وهذا يعني تقصُّد ذكر هذه المغالطة، لأنَّ تاريخ مدينة دمشق في عصر مملكة آرام دمشق بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق.م تاريخ واسع مليء بالعلاقات الدولية المتعددة، وقد بلغت دمشق فيه درجة من القوة مكَّنتها من تزعُّم العالم السوري ـ الفلسطيني في مواجهة التوسُّع الآشوري غربيَّ الفرات، كما تمتَّعت دمشق خلال هذا العصر بقوة اقتصادية كبيرة نتيجة سيطرتها على جزء مهمٍّ من الطُّرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط، والأناضول وجنوبي بلاد الشام، ونستدل على ذلك من كمية المعادن الكبيرة التي دفعتها دمشق أواخر أيامها كجزية للآشوريين، مع علمنا أن هذه المعادن أو أغلبها غير متوفِّر في مناطق سيطرتها المباشرة، وإنما حصلت عليها مما كانت تفرضه من ضرائب على القوافل

(5) ويصح أن نقول: أدد، بالآرامية.
(6) دمشق 1902: روشكين، ص13.

التجارية التي كانت تعبر أراضيها، فتراكم من ذلك ثروات كبيرة وظَّفتها في تدعيم نفوذها على القوى المجاورة لها، وفي حشد القوى للتصدِّي للآشوريين، ولا يوجد في ذلك الوقت إلَّا الرواية التَّوراتية في مجال العلاقة بين آرام دمشق وإسرائيل ويهوذا، وبالتالي تُعَدُّ الرواية التوراتية مصدرَها الوحيد(٧).

ثالثاً _ مشاهداته ووصفه للمدينة:

وذكر ستيبان أنَّ دمشق عبارة عن «كومة صفراء رمادية من المنازل المُكدَّسة، بعضها فوق بعض، فيما يُشبه فوضى كاملة، وداخل هذه الفوضى تنتشر أسطح الأسواق المسقوفة الشبيهة بثعابين عملاقة»، وأتى بعد ذلك على ذكر المجاري الضيقة المنحنية التي «تقطع كومة المنازل»، وتمرُّ في جميع الاتجاهات، وتُرمى فيها القمامة، وتتحوَّل إليها مياه الصرف الصحي(٨).

مؤلِّف الكتاب في صورة له في سان بطرسبرغ

فهل كانت بيوت دمشق مُكدَّسة في فوضى كاملة؟! لننظر ماذا قال نعمان قساطلي (ت ١٩٢٠) المعاصر للمدة نفسها التي يتكلَّم عنها ستيبان، يقول: «أبنية هذه المدينة شاهقة ملتصقة بعضها ببعض، لا فسحة بين دار وأخرى، حتى كأنَّ المدينة بناء واحد، وهذه الأبنية التي تشاهداها كأبراج عالية ... بداخلها دور فسيحة مزخرفة بأنواع الزخارف والنقوش، وبصحنها بِرَكٌ محفوفة بالليمون وغيره من الأشجار، مع كثير من النباتات العطرية ذوات الأزهار الجميلة والروائح الذكية ... ولا تدخل داراً من دور دمشق إلا تجد في حجرها فرشاً جميلاً معمولاً بالطراز الشرقي ... ومما يزيد دور دمشق حسناً لطفُ أهلها العجيب ...».

ثم تابع القساطلي الحديث عن البيوت الدمشقية وروائعها، وأورد أمثلة عنها، وجاء على ذكر بيوت هي أشبه ما تكون بالقصور، مثل دار عبد الله بك العظم، ودار متري أفندي شلهوب، ودار أنطون أفندي الشامي، ودار يوسف أفندي عنبر، ودار شمعايا أفندي، ودار سعيد أفندي قوتلي،

(7) انظر: دمشق الآراميَّة التَّشكُّل والاسم والمعنى والتَّاريخ: جباغ قابلو، ص10 _ 41.
(8) دمشق 1902: روشكين، ص17.

ستيبان مع معلِّم عربي في دمشق عام ١٩٠٣

ودار حسن آغا البارودي، ودار سعادة محمد سعيد باشا، ثم قال: «وكل هذه حديثة العهد، أُنفقت عليها المبالغ العظيمة، ويوجد دور كثيرة معتبرة أعرضنا عن ذكرها اكتفاء بالأشهر»، ثم أورد أعدادَها فقال: «وكان عددُ دور دمشق بالتقرير الرسمي سنة ١٨٧١ نحو ١٤٦٩٦ داراً لكل الطوائف»[٩].

أما أحمد وصفي زكريا فيقول، بعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠هـ: «وتمتاز دمشق عن مدن الشام كلِّها بجمال الهندسة العربية، فكل البيوت الضيِّقة وكل القصور الكبيرة ذات منظر خارجي واحد»، ثم يدخل بنا إلى وصف هذه البيوت من الداخل، ليصل إلى قوله: «ويصعب الدخول إلى بيوت المسلمين التي لها من غناها وأناقتها ما يجلب أنظار السياح وانتباهَهم، أما بيوت النصارى واليهود فالحصول على الإذن بزيارتها سهلٌ، وهي كثيراً ما تكون جميلة أو على الأقل مزيَّنة جدّاً»[١٠].

ويُشير المتخصِّصون إلى أنَّ مَن يدخل إلى دمشق «تطالعه الجدران الصَّماء للبيوت المختلفة المستويات، والتي تُعبِّر عن الفهم العميق للنفس البشرية، حتى لا يشعر الجيران والمارَّة بالحارة بالتفاوت الماديِّ بينهم ...»، ثم يُعدِّدون أسباباً أخرى لهذا التَّصميم، ليصلوا إلى الوصف التفصيلي الجمالي الفائق للبيوت الدمشقية[١١].

وتُجيب مُتخصِّصة عن سبب التراصِّ بين البيوت الدمشقية بقولها: «أَمَّن النسيج المتراصُّ ذو الجدران المشتركة عزلاً محيطيّاً لهذه المنشآت، تاركاً المجال أمام الفناء الداخلي ليتحكَّم بالحرارة»، ثم تُتابِع الحديث عن أسرار الهندسة المعمارية للبيت الدمشقي وتوظيفاته المتنوعة[١٢].

(9) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص165 _ 168.
(10) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص68، 69.
(11) انظر: جولة معمارية في البيت الدمشقي: زكريا كبريت، جمال كبريت، ص197 _ 230.
(12) انظر: البيت الدمشقي وملاءمته البيئة: لونا رجب، ص231 _ 250.

بردى يمر بالربوة باتجاه دمشق

وإذا عدنا إلى الوراء، في مدة لم تختلف بيوت دمشق بعدها كثيراً، ولم تتغيَّر معالمها إلا قليلاً، وهي عصر المماليك، فسنجد أنَّ الباحث أحمد إيبش قام خلال (٢٥) عامًا بتجميع (٣٩) نصًّا نادرًا لرحَّالين وفدوا على دمشق في عصر المماليك من عدد من الدول الأوروبيَّة، ومنها: فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وسويسرا وبولونيا وروسيا واليونان[١٣]، واطَّلع على أقوالهم، ونقل لنا شهاداتهم في ذلك، ولم نجد مِن هؤلاء من وافق وصفُه وصفَ ستيبان لهذه المدينة.

ومن هؤلاء، على سبيل المثال فقط، الرَّحالة الفلورنسي جورجو كوتشي ـ Giorgio Gucci، الَّذي كتب عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م: «إنَّ دمشق، أو الجزء المُحاط بالأسوار منها، تبلغ مساحتُه ثلاثةَ أضعاف مساحة فلورنسا. ويدور بها سوران: أي أنَّ هناك أوَّلًا سورًا متينًا يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعًا وهو خارج الخندق، وثمَّة سور آخر يبعد عن الأول بين ١٥ و١٦ ذراعًا ... والمدينة حصينة جدًّا بأسوارها وخنادقها، ويوجد في داخلها قلعةٌ لها أسوار وخنادق، ويبلغ محيطُها نحوَ الميل ... ومنازلها متَّسعة، بحيث يمكن أن يأوي إليها نحو عشرين ألفًا من رجال الحرب مع خيولهم».

وكتب الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي ـ Leonardo Frescobaldi (ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م) في عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م أيضًا: «إنَّ جميع الشَّوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تُنيرها في اللَّيل

(13) دمشق في عصر سلاطين المماليك: أحمد إيبش، ص33 - 35.

سوق البزورية مطلع القرن الماضي

مصابيحُ معلَّقة فيها. ودُورها مرتفعة ومبنيَّة من الخشب الَّذي لا يظهر للعيان، إذ إنَّ جُدُرها الدَّاخليَّة مطليَّة باللَّون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوَّة بالفُسيفساء. وتندر الدُّور الَّتي ليس بها نوافير منحوتة من الرُّخام، والَّتي هي متعةٌ للنَّاظرين. أمَّا شوارع المدينة فتغصُّ بالنَّاس كما هي شوارع فلورنسا يوم عيد القدِّيس يوحنَّا. وكما أنَّ المدينة مزدحمة بالسُّكَّان فشوارعها مكتظَّة بالتُّجَّار والصُنَّاع. وما يُصنع بدمشق هو أكثر ممَّا يُصنع في أيِّ مكان آخر في الدُّنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريريَّة والقطنيَّة والكتَّانيَّة والذَّهب والفضَّة والنُّحاس من جميع الأصناف».

بينما كتب البولوني لودفيكو دي فارتيما LODOVICO DE VARTHEMA (ت ٩٢٣هـ = ١٥١٧م) عام ٩٠٨هـ = ١٥٠٢م: «يتحتَّم عليك أن تعرف أنَّ في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة ... يُضاف إلى ذلك أنَّه في كلِّ زاوية من القلعة المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرُّخام. وهي مُحاطة بخنادق، ولها أربعة أبراج متينة التَّحصين وجسور متحرِّكة. وتعلو هذه الأبراج دومًا مدافع قويَّة ممتازة. وثمَّة خمسون مملوكًا من خدم السُّلطان الكبير يُقيمون مع نائب القلعة على الدَّوام»[١٤].

ونعود إلى ستيبان الذي شاهد البيوت الدمشقية، ووصف بأنَّ أطرافها العلوية متلاصقة لا

(14) دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص31.

سوق الحميدية مطلع القرن الماضي

يفصلها عن بعضها البعض أكثر من ٧٠ سم[١٥]. وهو وصف واقعي للبيوت الدمشقية في الأزقة الضيِّقة فقط، ولا تزال مشاهدة إلى اليوم.

وأشار ستيبان إلى وجود سوقين كبيرين في المدينة، الأول: سوق الطويل، والثاني: سوق الحميدية، فوصف الأول بأنَّه سوق شعبي مُكتظٌ بـ «الناس والباعة والحمير والجمال والكلاب، وجَوُّه خانق بالدخان والغبار»، ووصف السوق الثاني بأنَّه سوق «أرستقراطي به متاجر أوروبية نظيفة، ورُوَّاده من الأغنياء والموظفين والنساء»[١٦].

إذن، اقتصر ستيبان على ذكر سوقين فقط في المدينة، ووصفهما وصفاً عامَّاً خاطفاً لا يفي بالغرض ولا يعطي الصورة الحقيقية، بينما لو قلَّبنا صفحات كتاب: الروضة الغنَّاء للقساطلي، المعاصر للمدة نفسها التي كتب عنها ستيبان، فسنجد صورة أخرى واضحة ومُعبِّرة، وتعطي مدينة دمشق حقَّها الحضاري الراقي المتمثِّل بالأسواق التخصُّصية الراقية الضَّاجَّة بالحياة، إذ قَسَّم القساطلي أسواق دمشق إلى نوعين، مجموعة ومتفرِّقة، وقال إنَّ المجموعتين تحتويان على (٦٩٠٠) دكاناً، وقال إنَّ الأسواق المجموعة يُطلق عليها اسم المدينة، وعَدَّدَ منها مع ذكر أسمائها

(15) دمشق 1902: روشكين، ص17.
(16) دمشق 1902: روشكين، ص17.

الشارع المستقيم في دمشق مطلع القرن الماضي

وتخصُّصاتها: ٣٠ سوقاً تخصُّصيّاً، أي إنَّ كل سوق كان يتخصَّص بسلعة واحدة تخصُّصية، مثل: سوق الدقّاقين المختصّ بالأقمشة الحريرية، وسوق العطَّارين، وسوق السلاح، وسوق النسوان، وسوق الصاغة، إلخ[١٧].

أما الأسواق المتفرِّقة، فقال إنَّها كثيرة جدّاً، إذ كان في كلِّ حيٍّ كبيراً كان أم صغيراً سوق أو أكثر، ومنها ما كان متَّصلاً بعضُه ببعض كسوق علي باشا وسوق المحايرية وسوق الصناديقيين[١٨].

ومن تحريفات ستيبان، ما أوردناه عن هذه الأسواق قبل أسطر، المتمثل بقوله إنَّ هذه الأسواق: «جَوُّها خانق بالدخان والغبار»، إذ نجد وصفاً معاكساً تماماً بحسب ما ذكره القساطلي، إذ يقول حرفيّاً عن أسواق دمشق: «كلها عريضة مستقيمة جميلة مرتبة، لا ترى الشمسَ في الصيف ولا الأمطار في الشتاء لأنها مسقوفة ... وأرض هذه الأسواق مرصوفة بالحجارة، على أنَّه لتمادي الأيام تغطَّت بتراب، ولكثرة رش المياه عليه صيفاً وتواصل دوس الأقدام صار كبلاط لا يصدر عنه الغبار، فلذلك ترى البضائع دائماً نظيفة»[١٩].

(17) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص169 _ 171.
(18) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص172.
(19) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص173.

شارع النصر (جمال باشا سابقًا) في دمشق مطلع القرن الماضي

ومما لفت نظر ستيبان أنَّ أعداد الكلاب في المدينة كانت كثيرة جدّاً، وأنَّها موجودة في كل مكان وزقاق وحارة، وأنَّ «الأزقَّة كانت قذرة للغاية»[٢٠].

وشاهد ستيبان سور دمشق القديم، ووصفه بـ«المُتهاوي الذي أجبرَ العربَ الغزاةَ على أن يقفوا تحته أربعين يوماً»، وحسبَ طولَه بنحو خمسة كيلو مترات[٢١].

ثم أتى على ذكر «المَعْلَم التذكاري الذي يُمثِّل العصر الإسلامي في المدينة»، وهو المسجد الأموي، وشاهد المباني المنتشرة حوله، ووصفها بأنَّها «مبانٍ حديثة بائسة الذوق»[٢٢].

وبدورنا، ولمَّا دقَّقنا في هذا الكلام، لم نقف على أيِّ رحَّالة أو مؤرِّخ يُشاطر ستيبان هذه الرؤية، بل العكس هو المذكور عند هؤلاء الذين زاروا المدينة وأُعجبوا بمبانيها، خاصَّةً المنتشرة حول الجامع الأموي.

ودخل ستيبان المسجد الأموي، والغريب والمستهجن، مع وجود هندسة معمارية فائقة لهذا المسجد، ومع انتشار العناصر المعمارية الرائعة فيه، من مآذن وقباب وزخارف ...، والتي بهرت

(20) دمشق 1902: روشكين، ص22. ولا ندري إن كان هذا التَّعميم من ستيبان صحيحًا على كل حارات دمشق، ولم نجد المصادر التاريخية تذكر ذلك.
(21) دمشق 1902: روشكين، ص26، 27.
(22) دمشق 1902: روشكين، ص28.

عيون كل من زار هذا المسجد، لم ينطبع في عقله إلَّا ما شاهد من طريقة المسلمين آنذاك في تلاوة القرآن، ولمَّا وصف ذلك وصفَه بطريقة الناقد وغير الفاهم للغايات والطرق الدينية آنذاك، يقول: «وداخل المسجد المسلمون يجلسون على السجاد، ويهزُّون أجسادَهم من جانب إلى آخر، وهم يتلون القرآن بصوت مسموع، والتمايل أثناء التلاوة إلزامي، ويُؤدِّي التمايل المنتظم في الواقع إلى حالة ذهاب العقل في عمق التأمُّل في أسرار النعمة الإلهية المستمدَّة من التلاوة!»[٢٣].

ولفتَ نظرَه في صحن الجامع «الغرفة القائمة على أعمدة بساحة المسجد، والتي فُتحت للإمبراطور الألماني، فوُجد فيها كتب مقدَّسة إسلامية ومسيحية باللغات العبرية والسريانية واليونانية والعربية»[٢٤].

وقد اختصر ستيبان جوامع دمشق ومساجدها بذكر الجامع الأموي فقط، وتغاضى عن ذكر عشرات المساجد المنتشرة في كل مكان من المدينة، وهنا يقول المؤرخ نعمان القساطلي: «الجوامع في دمشق كثيرة العدد ومتفرقة في كل أنحاء المدينة، وتبلغ ١٥٣ جامعاً، هذا فضلاً عن مقابر الأولياء الشهيرة، والمدارس العديدة التي تُقام فيها الصلاة، وإذا قصدنا ذكرها بالتفصيل ضاق عنها هذا الكتاب، فنقتصر على ذكر الجوامع الأكثر شهرة ...»[٢٥].

ثم جاء ستيبان على ذكر صلاح الدين الأيوبي، ويظهر أنَّه شاهد المدرسة العزيزية الملاصقة للجامع الأموي، وتحتها ضريح صلاح الدين، وذكره بجملة واحدة فقط، ومع ذلك لم يحالفه الصواب فيها، إذ قال: «يُعرف القائد صلاح الدين الأيوبي بأنَّه فاتح دمشق الشهير»[٢٦]، فصلاح الدين لم يفتح دمشق بل فتح بيت المقدس، والذي فتح دمشق هو أستاذ صلاح الدين نور الدين محمود بن زنكي.

رابعاً _ التوزع الديني للسكان:

لعلَّ أهم ما جاء في هذا الكتاب، ذكر ستيبان للتوزُّع السكاني في مدينة دمشق في الوقت الذي زارها فيه، ولا ندري مدى مصداقية هذه المعلومات.

بكل الأحوال يُخمِّن ستيبان بأنَّ عدد سكان دمشق ربما يصل في وقت زيارته لها بثلاثمائة ألف نسمة، بينما الأرقام الإحصائية الرسمية تَذكُر مئةً وأربعةً وستِّين ألف شخص، مُوزَّعين حسب الديانة على النحو:

(23) دمشق 1902: روشكين، ص29.
(24) دمشق 1902: روشكين، ص30. ويقصد قبة الخزنة أو المال طبعاً.
(25) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص180 _ 185.
(26) دمشق 1902: روشكين، ص30.

المحمديون السنُّة	٩٩٠٠٠
الأرثوذكس	٢٠٠٠٠
الروم الكاثوليك	١٥٠٠٠
السريان الكاثوليك	١٠٨٠٠
الموارنة	٣٤٧٠
الأرمن الغربيون	٩٠٠
اللاتين	٦٠٠
اليهود	٤٠٩٠
المجموع	١٥٤٠٠٠

ويرى ستيبان أنَّ المسيحيين يُشكِّلون ثلث سكان دمشق، بينما يلفت النظر بشكل خاصٍّ إلى عدد اليهود، فيذكر أنَّ بالمدينة ثلاث مدارس يهودية ابتدائية، فيها أكثر من ألف تلميذ، ويصل إلى نتيجة أنَّ عددهم في دمشق أكثر من عشرة آلاف نسمة، مع أنَّهم في الإحصاء الرسمي لا يصلون إلى أكثر من أربعة آلاف!![٢٧].

ونحن، بدورنا، لو قارنا عدد سكان دمشق، بتنوُّعهم، في المدة التي عايشها ستيبان، وبفرق بضع سنوات فقط، سنجد تزويراً كبيراً منه بعدد السكان، إذ أتى المؤرخ نعمان أفندي قساطلي على ذكر إحصاء تفصيلي لسكان مدينة دمشق، وأورده كالآتي[٢٨]:

عرب	١٢٦٧٠٠
مغاربة	٤٢٠٠
أتراك	٤٠٠٠
أكراد	٦٠٠٠
عجم	٦٠٠
أرمن	٦٠٠
إفرنج ويونان	٣٥٠
سريان	٣٠٠
المجموع	١٤٢٧٥٠

(27) دمشق 1902: روشكين، ص34.
(28) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص26، 27.

ثم أورد القساطلي إحصاءً آخر بحسب مذاهب أهل دمشق، وجاء كالآتي:

سنة	١١٤٠٠٠
شيعة	٥٤٠٠
دروز وغيرهم	٢٥٠٠
روم أرثوذكس	٧٠٠٠
أرمن	٤٥٠
سريان قدماء	٤٥٠
غرباء مستوطنون	٢٠٠
روم كاثوليك	٧٠٠٠
أرمن كاثوليك	١٤٠
سريان كاثوليك	٢٠٠
موارنة	٢٠٠
لاتينيون	٥٠
بروتستانت	٦٧
يهود	٥٤٠٠
المجموع	١٤٣٠٥٧

فيُظهر هذا الإحصاء الدقيق لنعمان قساطلي، المُعاصر للمدة نفسها التي كتب عنها ستيبان، تزويراً كبيراً في عدد سكان دمشق، وخلطًا للأوراق كما يقولون، وهذا يعني انعدام الأمانة العلمية والمنهجية العلمية لدى ستيبان، أو أنَّه، وهذا ما نرجِّحه، تعمَّد هذا التَّضليل لغايات دينية غير مُحقَّة.

ولحسن حظِّنا أنَّ أحمد وصفي زكريا قدَّم إحصاءً لعدد سكان دمشق في المدة نفسها التي نعالجها، فبعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م)، قال: «وسكان دمشق نحو: ١١٠ ـ ١٢٠ ألف نسمة»، ثم وضع الجدول الإحصائي، وهو كما يأتي[٢٩]:

(29) انظر: دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص65، 66.

مسلمون	٧٤٤٦٤
دروز	٥٠٠
روم كاثوليك	٦١٩١
روم أرثوذكس	٥٩٤٥
سريان كاثوليك	٢٦٠
أرمن وكلدان	٤٠٥
أرمن كاثوليك	٢٣٥
موارنة	٤٠٦
لاتين	١١٠
بروتستانت	٧٠
غرباء وجنود	١٥٠٠٠
يهود	٤٦٨٠
المجموع	١٠٨٧١٦

وفي كل الأحوال، وصف ستيبان سكان دمشق أيضاً بأنَّهم «متنوِّعون عرقيَّاً»، ويُشكِّل العرب الذين وصفهم بـ «الغزاة» الأكثرية، ولاحظ أنَّ المسيحيِّين تظهر عليهم «ملامح سكسونية سلتية وسلافية وجرمانية ورومية»، وأنَّ «من الواضح أنَّ شمس سوريا أثَّرت على بشرتهم وطمست بعض الاختلافات بالملامح»[٣٠].

ووصف ستيبان نساءَ دمشق، وقال إنهنَّ بارعات الجمال، ذوات عيون سوداء كبيرة، معظمهنَّ سمراوات، بينما الشقراوات قليلات جداً، وتعتمر العديد منهنَّ القبعات، ولفت النظر بأنَّ الدمشقيات تتفاخرن بمعرفتهنَّ اللغة الفرنسية، ولما قارن الجمال قال: «إنَّ المسيحيات الكاثوليك أكثر جمالاً من المسيحيات الأرثوذكس والبروتستانت»[٣١].

ويظهر أنَّ ستيبان وقف على الصفات الذاتية النفسية لأهل دمشق، وقرَّر ــ برأيه ــ أنَّ المسلمين الدمشقيِّين وَدودون مهذَّبون متواضعون، وصادقون لا يُخلفون الوعد والعهد، وأنَّ المسيحيين يتَّصفون بالكذب والتظاهر بالنقيض والجبن والسَّفاهة، ويَنتقمون بدناءة وشرٍّ وخُبث، وأنَّ كل هذه الصفات فيهم لم يستطع الدين المسيحي التخفيف منها، ولم يُخفِّف منها التعليم على أيدي المُبشِّرين الأوربيين[٣٢].

(30) دمشق 1902: روشكين، ص35.
(31) دمشق 1902: روشكين، ص36.
(32) دمشق 1902: روشكين، ص37.

ساحة الشهداء (المرجة) في دمشق مطلع القرن الماضي

ولا نجد هذا الوصف لمسيحيي دمشق في كتب المعاصرين للمدة التي يتكلَّم عنها ستيبان، ومنهم نعمان القساطلي المسيحي، الذي لم نجد في كامل كتابه: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء أي إشارة لذلك، ولم نعثر على أيٍّ من ذلك في كتابات أحمد وصفي زكريا، بل تكلم عن حالة صحية للمسيحيين في دمشق، وعن تعليمهم ذكوراً وإناثاً، ومدارسهم، وراهباتهم، وأعمالهم ... إلخ[٣٣].

ونجد في ثنايا سطور ما كتبه ستيبان تلميحات سلبية ليس لها أي مصداقية في ميزان الحقيقة التاريخية، ومن ذلك وصفه لحالة عجيبة لم يذكرها أحد من المؤرِّخين أو الرَّحَّالة، إذ رأى أنَّ «حالة العبودية لدى المسيحيين في سوريا مستمرة منذ أحد عشر قرناً، منذ غزو المسلمين لها، وامتثالهم لشروط الطاعة التي أرسلوها للخليفة عمر بن الخطاب، ولا يزال تطبيق شروطها قائمًا حتى اليوم، وكان التسلُّط على المسيحيِّين المحلِّيِّين بلا حدود!»، ورأى أنَّ المسلمين في دمشق «كانوا يتميَّزون بالتعصُّب الشديد، إلَّا أنَّه تغيَّر اليوم بعد سقوط الإسلام، وتسلُّل التنوير إلى مملكة الإسلام المظلمة!»[٣٤].

(33) انظر: دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص65، 66.
(34) دمشق 1902: روشكين، ص41.

ولنا أن نسأل: ما مدى مصداقية ما ذكره ستيبان عن المسيحيين بدمشق؟ وهو تساؤل نجد جوابه في كتاب نعمان قساطلي الذي يعطينا صورة مغايرة تماماً لما ذكره ستيبان، ويكفي أن القساطلي مسيحيٌّ، ولم نجد في كتابه أي إشارة إلى ذلك، وقد وضع القساطلي العنوان الآتي: كنائس دمشق وأديرتها، وتكلَّم تحت هذا العنوان على عشرات الكنائس والأديرة، ولم يورد كلمة واحدة توافق على ما ذكره ستيبان[٣٥].

ثم ذكر عنواناً آخر هو: مدارس النصارى، وذكر تحته أسماء تسع عشرة مدرسة للمسيحيِّين للذكور والإناث، وعن أعداد المعلمين فيها وأعداد الطلبة، والمقررات المُدرَّسة، ونفقات هذه المدارس، ولم نجده يذكر أي انطباع سلبي في كل ذلك، بل دلَّ سياقُ كلامه على حالة حضارية اتَّصفت بها مدينة دمشق[٣٦].

ثم خصَّص فصلاً كاملاً بعنوان: مشاهير علماء المسيحيِّين في جيلنا الحاضر[٣٧].

وخصَّص فصلاً آخر كاملاً بعنوان: القدِّيسون والمشاهير من العلماء المسيحيين الذين نشؤوا في دمشق[٣٨].

ولم نجد القساطلي المسيحي يذكر ولو إشارة أو تلميحاً إلى ما قرَّره ستيبان!

ومن اللافت للنظر في كتاب ستيبان أنَّه يُشير إلى يهود المدينة كثيراً، وحين يتكلَّم عنهم يتكلَّم بطريقة تعاطفية، من ذلك قوله أنَّه بالرغم من أنَّ اليهود «يُشكِّلون كتلة بشرية صغيرة، إلَّا أنَّها تحتلُّ مساحة شاسعة جنوب المدينة»، ويتابع: «من الواضح أنَّ اليهود جاؤوا إلى دمشق منذ زمن بعيد، وفي أوقات لاحقة، وبشكل مستمرٍّ انضم إليهم يهودٌ آخرون من جميع البلدان، فزاد عددهم»[٣٩].

ووصف ستيبان أحوالَ هؤلاء اليهود في دمشق، وقال إنَّهم يعملون بالحرف والتجارة، ويعيشون بهدوء وسلام، ولا يتعرَّضون للاضطهاد كما هو الحال في أوروبا[٤٠].

وأشار إلى أنَّ اليهود الروس «يتمتَّعون بالمزايا الأوروبية، فهم لا يدفعون الضرائب، ولا يخضعون للعقاب بموجب القوانين التركية»[٤١].

وأتى ستيبان على ذكر «المسلمين الكريتيين» الذين هاجروا من اليونان إلى دمشق، وقال

(35) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص174 _ 180.
(36) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص204 _ 206.
(37) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص252 _ 264.
(38) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص247 _ 252.
(39) دمشق 1902: روشكين، ص40.
(40) دمشق 1902: روشكين، ص41.
(41) دمشق 1902: روشكين، ص42.

إنَّ الحكومة بنت لهم على طول سفح جبل الصالحية منازل بصفوف منتظمة[٤٢].

وتحدَّث ستيبان عن هجرة الشركس القوقاز إلى دمشق، وذكر شيئاً من أسبابها، وأدلى برأيه في هذه القضية بقوله بأنَّ الحكومة التركية تُرحِّب بهم وتُقدِّم لهم الأرض والمسكن والطعام، بينما هم برأي ستيبان مستوطنون جبليُّون متعصِّبون متوحِّشون دينيَّاً، ويرفضون التَّمدُّن[٤٣].

قبة الخزنة في الجامع الأموي، وفي مداها مأذنة قايتباي

خامساً _ الحياة في دمشق:

بحسب رؤية ومشاهدة ستيبان، فإنَّ الحياة في دمشق كان يتركَّز أغلبُها في الشارع، أي معظم نشاطات الدمشقيِّين لم تكن في المنازل، لذلك _ كما رأى _ فإنَّ الشوارع كانت مزدحمة، مع وجود عدد لا يحصى من المقاهي المتلئة بالناس طوال اليوم، ووصفهم بأنَّهم يجلسون في المقاهي هذه بـ «خمول على أرائك ممزَّقة، يحتسون القهوة، ويلعبون النرد، ويُدخِّنون النارجيلة، ويسمعون الموسيقا، ويسمعون روايات بعض الحكواتيِّين الذين يتمتَّعون بفن الإلقاء وارتجال الشعر»[٤٤].

وأشار ستيبان إلى وجود مسرح في دمشق، وقال إنَّه في قبو صغير، وكانت تُقام فيه العروض المتنوِّعة؛ كالأغاني مع الموسيقا والرقص، والمسرحيات الكوميدية باللغتين العربية والتركية[٤٥].

(42) دمشق 1902: روشكين، ص43.
(43) دمشق 1902: روشكين، ص46.
(44) دمشق 1902: روشكين، ص53.
(45) دمشق 1902: روشكين، ص55.

وشهد ستيبان شهرَ رمضان في دمشق، ووصف كيف كانت الشوارع خلاله تكتظُّ بالناس، وخاصة ساعات الظهيرة.

وذكر أنَّه في كل سنة وفي اليوم الخامس بعد رمضان تُغادر قافلة الحج نحو مكَّة، ولذلك كان الحُجَّاج يتوافدون من جميع أنحاء العالم إلى دمشق ليسيروا بقافلة واحدة تعبر الصحراء، ويحرسها جنود أتراك، ويجتمع الجميع في الميدان جنوبي دمشق.

وهنا، وكعادته بالغمز واللَّمز ومحاولة التركيز على السلبيَّات، عَدَّ ستيبان أنَّ مكَّة المكرمة هي المصدر الأول للأمراض الوبائية المُعدية مثل الطاعون والكوليرا!![٤٦].

سادساً _ مناخ دمشق وما يتعلَّق بذلك:

ولم ينسَ ستيبان أن يأتي على وصف مناخ دمشق، فبَيَّن أنَّها كانت تتمتَّع بمناخ صحيٍّ معتدل، لا تتجاوز الحرارة فيه ٣٢ صيفاً، وتهبط إلى الصفر شتاءً[٤٧].

وذكر ستيبان هنا أمراً عجيباً، وهو أنَّ لباس الدمشقيِّين في الصيف لم يختلف عن لباسهم في الشتاء، ووصفهم بأنَّهم غير مبالين بنوعية الملابس صيفاً وشتاءً، وعَمَّم وصفَه على سكان دمشق بأنَّهم كانوا يمشون حفاةَ الأقدام، ويلبسون قنابز وطرابيش، وأنَّ الأطفال كانوا يأتون إلى المدرسة نصفهم يلبس قبقابًا والنصف الآخر يأتي حفاة[٤٨].

ولنا أن نُحيل القارئ إلى ما ذكره القساطلي وأحمد وصفي زكريا، لنتبيَّن انتفاء الأمانة العلمية عند ستيبان، إذ ذكر القساطلي ملابسَ أهل دمشق بمختلف مذاهبهم وأديانهم، من المسلمين والمسيحيين واليهود، وجاء على ذكر لباس النساء كذلك، ولم يقل أو يُشر إلى أيٍّ مما ذكره ستيبان، لا صراحة ولا إشارة[٤٩].

أما أحمد وصفي زكريا، فيقول بعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠ هـ: «أما السكان فهم جميلو الصورة، مَهيبو الطلعة، يُميِّزهم الناظر بجمال ملامحهم وحسن قوامهم وصفاء دمهم العربي»، ثم يُتابع مستهجناً رؤية بعض من يلبس اللباس الأوروبي، ويقول: «ولا يظهر في سكان دمشق، كما في سكان إستانبول، ذلك التباين البارز في الملامح والهيئات الذي حصل من شدة اختلاط العناصر، واللباس الأوروبي والكسوة الرسمية البشعة التي أوجدها الترك عقب التنظيمات (١٢٥٥هـ) لا يراهما السائح في دمشق إلا فيما ندر»، ثم يُبدي إعجابه بلباس أهل دمشق، فيقول: «الشوارع ملآى بجماهير ذات منظر مُعجِب

(46) دمشق 1902: روشكين، ص58.
(47) دمشق 1902: روشكين، ص61.
(48) دمشق 1902: روشكين، ص62.
(49) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص216، 217.

للعين، وألوان متعدِّدة مبرقشة، وتتسلَّل النساء في هذه الشوارع تسلُّل الأشباح والطُّيوف، وهذه النساء يلبسن ملاءات طويلة فضفاضة بيضاء، ويسترن وجوههن بالبراقع ستراً دقيقاً»[٥٠].

وأخبر ستيبان أنَّ الدمشقيين كانوا يُصابون بأمراض مختلفة في المعدة والأمعاء بسبب المياه غير الصحية، لأن مياه نهر بردى كانت تنساب في أقنية من دون أن تخضع للتنظيف أو التطهير[٥١].

ورأى نظام صرف صحي في المدينة، وبرأيه هو الوحيد المفيد عمليّاً، وأنَّ نظام الريِّ مبنيٌ بشكل ممتاز، ويُوزِّع المياه على جميع أنحاء المدينة والحدائق بمهارة كبيرة دون أي آلات، إلَّا أنَّ هذه المياه كانت تحمل معها الأوساخ والصرف الصحي من كل منزل فيها[٥٢].

وهذا أمر اختلط على ستيبان، أو أنَّه تعمَّد المغالطة، إذ، من المعروف، أنَّ مدينة دمشق كانت مُزوَّدة بشبكة من الأقنية على قسمين، أقنية للمياه الوسخة، وفوقها أقنية للمياه النَّظيفة، وهذا أمر لفت أنظار الرَّحَّالة، فتكلَّموا على ذلك بإعجاب شديد[٥٣].

ولم نجد من ذكر أن شبكة هذه الأقنية قد اندثرت أو تعطَّلت في الزمن الذي تكلَّم عليه ستيبان! وقد تحدَّث القساطلي بفصل كامل عن مياه دمشق وعَنونه: فصل في مياه دمشق ومتنزَّهاتها[٥٤].

وقد تحدَّث أحمد وصفي زكريا بالتفصيل عن مياه دمشق وأقنيتها وتوزُّعها، والبراعة في كل ذلك، وكان بين يديه (بتاريخ ١٩٢٥) التقرير الذي عرضته اللجنة المكلَّفة بالكشف عن مقاسم نهر يزيد وقناة المزة والديراني وثورا والقنوات وبانياس وبردى، ومشاهداتهم في ذلك، وبعد أن عرض نتائج الكشف من خلال التقرير قال: «إنَّ ما جاء في الحجة آنفة الذكر ... بشأن جعل سكور الماء من كباشات الخشب ومن الشوك والبلان والغما مذكور أيضاً في كتاب: البرق المتألق في محاسن جلِّق ... مما يدلُّ على أن استعمال هذه المواد قديم منذ قرون لا يُعرف أولها»[٥٥].

ونزيد الأدلة دليلاً آخر يتمثَّل بكتاب قيِّم جداً، لعدد من الباحثين المتخصِّصين، أصدرته جمعية أصدقاء دمشق، والكتاب بكامله مداره حول جغرافية دمشق وطبيعتها ومياهها، ونحيل بشكل خاصٍّ إلى الأبحاث التالية فيه: مشروعات استثمار الموارد المائية في العصور القديمة، الطوالع والسبل والنواعير في مدينة دمشق، الصرف الصحي في مدينة دمشق[٥٦].

(50) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص67، 68.
(51) دمشق 1902: روشكين، ص62.
(52) دمشق 1902: روشكين، ص63.
(53) انظر: دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص30.
(54) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص195 _ 199.
(55) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص191 _ 115.
(56) انظر: الخصائص الطبيعية لواحة دمشق: مجموعة من الباحثين، ص249 _ 268، 269 _ 300، 327 _ 346.

ونضيف دليلاً آخر ببحث مهمٍّ شرح فيه كاتبه المتخصِّص القنوات في دمشق، وكيف كانت موزَّعة بطرق تكاد تحاكي الطُّرق الحديثة اليوم، وكيف كانوا يتغلَّبون على ضغط المياه بوضع مصادات للضغط تُعرف بالطَّوالع، والتي لها دور آخر تؤديه، فهي عبارة عن مُوزِّعات للمياه، تأخذ المياه من الشبكات وتوزِّعها بدورها على مختلف المنشآت بمقادير محددة، وكانت شبكة المياه مؤلَّفة من ثلاثة عناصر هي: المآخذ والقساطل والطوالع.

ثم أفاض الكاتب بذكر أدوار هذه العناصر الثلاثة[٥٧].

وشاهد ستيبان بساتين دمشق الشاسعة وأشجار الفواكه فيها، لكنَّ انطباعه حينذاك كان غريباً، وهو أنَّ «المدينة مُملّة وقذرة للغاية، إلَّا أنَّها الأكثر أماناً بين مدن سوريا وفلسطين»[٥٨].

ولنا أن نُعلِّق أنَّ هذا الانطباع الشاذَّ الذي عبَّر عنه ستيبان لا نكاد نجد له شبيهاً عند كل من كتب أو زار أو رحل إلى هذه المدينة، بل ما نجده هو العكس، وبما أننا اتَّخذنا كتاب القساطلي مجالاً للمقارنة مع كتاب ستيبان بسبب المُعاصرة، فإنَّنا نجد في هذا الكتاب من أوله إلى آخره عكس ما ذكره ستيبان، ثم إنَّ القساطلي أنهى كتابه بقوله: «وقد امتُدحت دمشق من كثيرين نظماً ونثراً، ويضيق ذرعاً هذا المختصَر عن ذكر كل ما قالوه»، فاكتفى القساطلي بذكر قصيدة واحدة من عشرات الأبيات[٥٩].

ثم إنَّ القساطلي تحدَّث عن حمامات دمشق، وهي رمز النظافة والطهارة، وقال: «أجمع الذين ساحوا في جميع أنحاء الممالك العثمانية وبعض الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق على غيرها، لما فيها من الإتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه وإتقان الخدمة والإكرام والاعتناء وبخس الأجرة بالمغتسل»، ثم تابع شرح أقسام الحمام، وقال إنَّ بدمشق (٥٨) حمَّاماً، ثم ذكر أشهرها[٦٠].

والكلُّ يعلم أنَّ أقلاماً كثيرة من الشُّعراء والمؤرِّخين والجغرافيِّين تناولت هذه المدينة بالتَّأريخ والمديح، ووصفوا أنهارها وجِنانَها ومياهها ونظافتها وسحرها.

وكانت المدينة تلفت أنظار الرَّحَّالة بنظافتها، إذ كانت مُزوَّدة بشبكة مجارٍ للمياه الوسخة في أقنيَّة عميقة، تمرُّ من فوقها أقنية المياه النَّظيفة. وكانت مياه البرك والبحيرات تفيض في هذه المجاري فتَسوق ما فيها إلى ظاهر المدينة لسقي الغيطان. وقد أُحصيت الحمامات قبل كارثة تيمورلنك فكانت ٢٠٠ حمَّام[٦١].

(57) انظر: المناهل في مدينة دمشق: أحمد طرقجي، ص251 _ 274.
(58) دمشق 1902: روشكين، ص66.
(59) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص269 _ 273.
(60) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص185 _ 187.
(61) دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص30.

وقد تمَّ في عهد أمير دمشق تنكز تنظيف هذا النِّظام المائي وإصلاحه، وفحصه فحصاً دقيقاً، وذلك حرصًا على تأمين المياه لوسط المدينة، وقد كلَّف هذا المشروع ٣٠٠ ألف درهم(٦٢).

واستنتج ستيبان أنَّه وبسبب المناخ الصحي لدمشق فهي خالية من مرض الجذام منذ أقدم العصور، وأورد، كدليل على ذلك، قصة وردت في التوارة عن شفاء مرضى الجذام في دمشق، لذلك كان يسود اعتقاد أنَّ لمناخ المدينة ومياهها تأثيرًا شافيًا من هذا المرض، وأنَّ الثقة بهذا الاعتقاد متجذِّرة لورودها في التوارة(٦٣).

وهنا نقف على مغالطة واضحة، إذ لم يُشر ستيبان إلى السبب الحقيقي وراء خلوِّ دمشق من مرض الجذام، ألا وهو طهارة ونظافة مياهها، ولعلَّه لم يُفصح عن ذلك كيلا يضع نفسه موضع المناقض للحقائق، إذ تكلَّم قبل أسطر عن أنَّ مياه دمشق وسخة تُسبِّب الأمراض، بينما ذكر القساطلي عكس ذلك لمَّا قال: «ومياه دمشق فيها خاصة لدفع مرض الجذام، فلا يُصيب أهل دمشق، والغريب الذي يأتيها مصاباً به لا يزيد مرضه»(٦٤).

الخاتمة _ ملاحظات عامة على كتاب ستيبان:

وبعد هذا الشرح والتلخيص والنقد لكتاب: دمشق ١٩٠٢، نقف على الملاحظات العامة الآتية التي شابت هذا الكتاب.

_ إنَّ ما ذكره هذا الكتاب عن دمشق مقتضب جداً، وهذا الاقتضاب أدى إلى أخطاء كثيرة.

_ تغيب الأمانة العلمية في كثير من مواضع هذا الكتاب.

_ لم يلتزم الكاتب بالمنهجية العلمية، إذ ظهرت ميوله الدينية في مواضع عدَّة، وحكم على عدد من القضايا من خلالها .

_ ارتكب الكاتب خطأ التَّعميم، فأدَّى إلى عدم صحة كثير من الأحكام التي أطلقها على دمشق وأهلها .

_ لم يمتلك الكاتب مهارة تاريخية أو وصفية، وظهر بمظهر الكاتب المبتدئ.

_ من يقرأ هذا الكتاب من المتخصِّصين سيكتشف بسهولة أنَّ مؤلِّفه لم يقرأ عن تاريخ دمشق في أي مرجع عربي أو روسي، واكتفى بما ورد في التوراة، ورَجَّحه حتى على مشاهداته الحية.

(62) انظر: الحياة الاجتماعيَّة في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشَّريف: أنس المحمد، ص86. مدن إسلاميَّة في عهد المماليك: إيرا لابدوس، ص123 - 126.
(63) دمشق 1902: روشكين، ص68.
(64) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص224.

ـ وإنَّ تمسُّك الكاتب بمرجع ديني قديم، وتجنُّب أي كتاب عن تاريخ سوريا خلال خمس سنوات من إقامته فيها، يدلُّ على توظيفات دينية أرادها من خلال هذا الكتاب، ويدلُّ في الوقت نفسه على أنَّه لا يتقن أي لغة غير الروسية.

ـ وإنَّ اقتصاره على ذكر المسجد الأموي فقط من بين عشرات المعالم الأثرية العربية الإسلامية من مدارس ومساجد وترب وأحياء، يعني تغاضيه المتعمَّد عن تاريخ هذه المدينة الممتدِّ، على الأقل، ضمن العصور الإسلامية الزنكية والأيوبية والمملوكية والعثمانية.

ـ وما يلفت النظر ارتكاب ستيبان ما يمكن أن نسميه: البعد عن الأمانة العلمية، حين استغبى القارئ بإيراد إحصاء سكاني لا ندري على ماذا استند فيه، يدَّعي فيه بأنَّ المسيحيين كانوا يُشكِّلون ثلث سكان المدينة، وكذلك عدد اليهود فيها.

ـ وفي الوقت نفسه، وصف ستيبان المسيحيِّين بأوصاف غير أخلاقيه، وادَّعى أنَّهم يعيشون حياة عبودية، وأنَّ المسلمين متسلِّطين عليهم، وهذا يُناقض كلَّ ما ورد في المصادر التي تتحدَّث أنَّهم كانوا يشغلون مناصب رفيعة في الدولة، وكان لهم العلو الكبير في التجارة والصناعة، وكانوا يُنادَون بالخواجات.

ـ ويلاحظ أنَّ ستيبان كان يُخفي بعض التفاصيل أو الحقائق المهمة، في حين لا يتورَّع عن الإساءة لعرق معيَّن من الأعراق، ومثال ذلك حين أتى على ذكر وجود مهاجرين شركس في دمشق، ووصفهم بأنَّهم متعصِّبون دينيّاً، بينما غضَّ النظر عن ذكر السبب الذي دعاهم لترك بلادهم واللُّجوء إلى سوريا، وهو المجازر التي تمَّت بحقِّهم من قبل الجيش الروسي.

ـ وادَّعى ستيبان أنَّ حياة سكان في دمشق كان أغلبُها في الشوارع المزدحمة والمقاهي الممتلئة طوال اليوم، وهذا يدلُّ على عدم إقامته فيها، وما رآه من عدد المقاهي والأسواق عمَّمه على جميع الأحياء، فهناك أحياء لم يكن فيها مقاهٍ.

ـ ولنا ملاحظة على مُترجِم الكتاب، الذي اكتفى بالترجمة فقط، دون المقارنة أو النقد أو التصحيح أو التنبيه، مع العلم أنَّ الترجمة ـ وخاصة حديثاً ـ تُوجِّه المُترجِم أن يتدخل فيما يُترجِم توضيحاً أو نقداً أو تعليقاً.

مصادر البحث ومراجعه

ـ البيت الدمشقي وملاءمته البيئة: لونا رجب، الكتاب السنوي لجمعية أصدقاء دمشق، ٢٠٠٦ .

ـ جولة معمارية في البيت الدمشقي: زكريا كبريت، جمال كبريت، الكتاب السنوي لجمعية أصدقاء دمشق، ٢٠٠٦ .

ـ الحياة الاجتماعيَّة في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشَّريف: أنس المحمد، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٠م.

ـ الخصائص الطبيعية لواحة دمشق: مجموعة من الباحثين، جمعية أصدقاء دمشق، ٢٠٠٨ .

ـ دمشق ١٩٠٢ : ستيبان كوندو روشكين، عن دار المصور العربي، بيروت، ط١ ، ٢٠٢٤ .

ـ دمشق الآراميَّة التَّشكُّل والاسم والمعنى والتَّاريخ: جباغ قابلو، مجلة تاريخ دمشق المحكمة، مؤسسة تاريخ دمشق، العدد الأول، تموز، ٢٠٢١ .

ـ دمشق في عصر سلاطين المماليك: أحمد إيبش، دمشق، دار الشرق، ٢٠٠٥م.

ـ دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا : أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ط١ ، ١٩٩٠ .

ـ الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، دمشق، دار طلاس، ط٢ ، ٢٠٠٤ .

ـ مدن إسلامية في عهد المماليك: إيرا لابدوس، ترجمة علي ماضي، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.

ـ المناهل في مدينة دمشق: أحمد طرقجي، الكتاب السنوي لجمعية أصدقاء دمشق، ٢٠٠٦ .

توثيق

بقلم وتصوير: رئيس التَّحرير

تاريخ بين صورتين

تُظهر الصورتان جانباً من مدينة دمشق بين زمنين:

فالصورة الأولى من تصوير المؤرِّخ والمفن خالد معاذ رحمه الله سنة ١٩٥٤م.

والثانية من تصويري حديثاً.

وكلا الصورتين التُقطتا من مئذنة العروس في الجامع الأموي العامر.

وكلاهما تُظهران جانباً من مدينة دمشق باتجاه سفح جبل قاسيون ومدينة الصالحية مدينة العلم.

ويَظهر في الصورتين المدرسة العزيزية وقُبَّتها التي يرقد تحتها صلاح الدين الأيوبي، ثم المدرسة الظاهرية التي يرقد تحت قُبَّتها الظاهر بيبرس الذي يُلقِّبه المؤرِّخون الغربيِّون بصلاح الدين الثاني، لأنَّ أعماله العسكرية شابهت أعمال صلاح الدين الأول.

والمسافة الزمنية بين صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس (صلاح الدين الثاني) هي مئة سنة تقريباً، وقست المسافة بين الضريحين فوجدتها مئة متر تقريباً.

قواعد النشر وشروطه

ـ أن يكون البحث المقدَّم للمجلة مكتوباً باللغة العربية، وخالياً من الأخطاء النحوية والإملائية والمطبعية، وأن يكون مشفوعاً بملخَّص بالعربية، وآخر بالإنكليزية أو الفرنسية.

– أن يكون موضوع البحث من ضمن اهتمامات المجلة وأغراضها.

ـ أن يكون عدد كلمات البحث بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠ كلمة، وأن يكون مطبوعاً على الحاسوب، ومُرفَقاً بالسيرة الذاتية للباحث.

ـ أن يلتزم الباحث بمنهجية البحث العلمي وخطواته، وبالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة بحسب مجال بحثه.

ـ أن يتَّسم البحث بالعلمية والأصالة والجدّة والتَّنظيم والتَّرابط، وأن يستوفي شروط التوثيق والتخريج، واستعمال المصادر والمراجع، وفق الأسس العلمية.

ـ ألا يكون البحث جزءاً من رسالة علمية، وألا يكون منشوراً سابقاً، أو مُرسَلاً إلى جهة للنشر.

ـ يتحمل الباحث المسؤولية الكاملة تجاه كل المعلومات والبيانات والحقائق الواردة في بحثه.

– ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

– تُحال البحوث المرسلة إلى المجلة على التقويم، ويُوافَى الباحثُ برسالة تتضمَّن مصير بحثه.

– يتقاضى الباحث تعويضاً مالياً عن بحثه، ويستحقُّ التعويض عند إبلاغه بقبول البحث.

– تُرسل البحوث إلى رئيس التحرير على أحد البُرُد الالكترونية:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org
ammaralnahar@gmail.com

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org

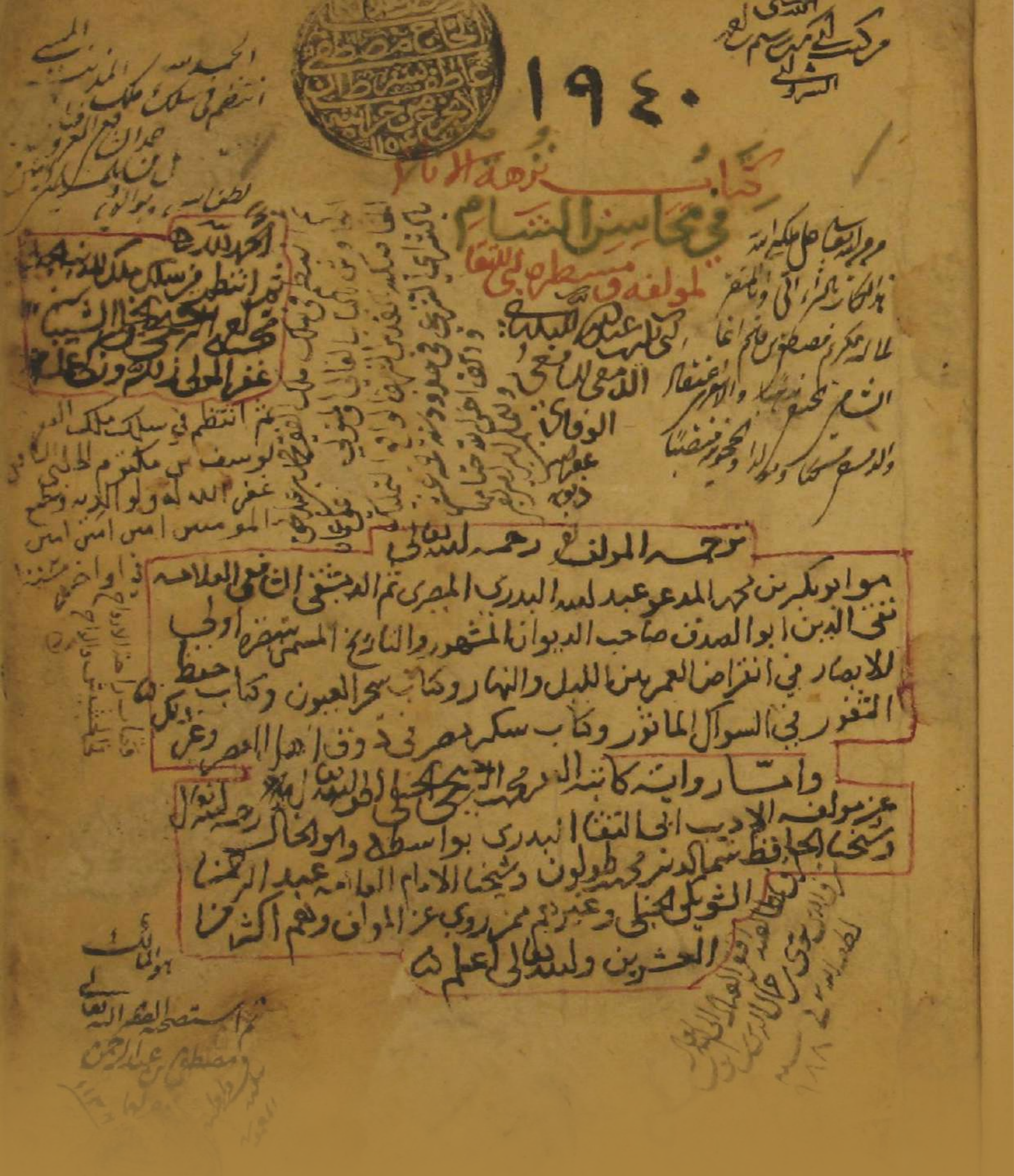

مخطوطة: نزهة الأنام في محاسن الشام لأبي التقى البدري الدمشقي (ت 894 هـ = 1488م)، بخط مصنفها، أهم مخطوطة عن تاريخ دمشق بعد تاريخ ابن عساكر، من مكتبة عمار النهار.